

10. 10. 1944 (17. 10. 1944)

10. 10. 1944 (17. 10. 1944)

10. 10. 1944 (17. 10. 1944)

10. 10. 1944 (17. 10. 1944)

10. 10. 1944 (17. 10. 1944)

10. 10. 1944 (17. 10. 1944)

10. 10. 1944 (17. 10. 1944)

10. 10. 1944 (17. 10. 1944)

10. 10. 1944 (17. 10. 1944)

10. 10. 1944 (17. 10. 1944)

10. 10. 1944 (17. 10. 1944)

10. 10. 1944 (17. 10. 1944)

10. 10. 1944 (17. 10. 1944)

10. 10. 1944 (17. 10. 1944)

10. 10. 1944 (17. 10. 1944)





دخائر العرب

١٨

مذكرات الأمير عبد الله

آخروملوك بني زيري بغرناطة

(٤٦٩ - ٤٨٣)

المسمّاه بكتاب "التبيان"

نشر وتحقيق

من النسخة الوحيدة المحفوظة

بجامع القرويين بفاس

إ. ليثي بروفسال

أستاذ الحضارة العربية بالمربون

ومدير معهد الدراسات العربية والإسلامية بجامعة باريس

والأستاذ الزائر بالجامعات المصرية

دار المعارف بمصر

مقدمة

إنَّ المصنّف الذى سيوجه الجزء الأكبر من نصّه هنا — وهو كلُّ ما عُثر عليه لحدِّ الآن — سبق أن عُرف لدى كلِّ من درس تأريخ الأندلس بعض الشيء ، وعلى الأخصّ العهد المسمّى بعهد ملوك الطوائف من هذا التأريخ ، والموافق إجمالاً للقرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . ولقد نشرتُ منه ، فى فترتين ، أولاً ثلاث قطع ، ومن ثمّ قطعتين واسعة كلّما اكتُشف شيء منها ، وذلك فى مجلّة « الأندلس » الصادرة فى مدريد فى عام ١٩٣٥ — ٣٩ وفى عام ١٩٤١ . وستظهر ترجمةٌ باللغة الإسبانية ، بعد فترة وجيزة ، بتوقيعى وتوقيع زميلى وصديق الأستاذ إ . غرسية غومس ، للمجموع الذى أُلّف بين أجزائه اليوم ، ما عدا الصفحة الأولى وفراغاً طويلاً يؤسف له فى وسط الكتاب . وستصحّب هذه الترجمة بمقدّمة مفصّلة وبمجموعة من الملاحظات التاريخية والجغرافية أُحيلُ إليها منذ الآن القارئ الذى يرغب أن يطلع بتفصيل على المؤلّف الذى أنشره اليوم وعلى قيمته الأدبية والتاريخية .

سأقتصر هنا إذاً على بعض الإشارات الأساسيّة . فليس من المألوف أن نجد فى تأريخ العالم العربى ملوكاً أو شخصيّات رفيعة اعتنوا بتسطير حياتهم ، فكتبوا مذكراتهم لقائدة معاصريهم أو الأجيال القادمة . إنَّ هذه الملاحظة لتصدق على الغرب الإسلامى أكثر منها على الشرق ؛ فإذا

وُجِدَ في الغرب الإسلامي بعض من يترجم لنفسه من الشخصيات الهامة كمثل ابن خلدون وابن الخطيب في القرن الثامن (الرابع عشر الميلادي) ، فلا يعرف من هذا الصنف التاريخي إلا مصنف واحدٌ يذكر ، وهو كتاب التبيذق صاحب المهدي ابن تومرت مؤسس الموحّدية ، وقد وقّعتُ منذ أكثر من ربع قرن على مخطوط له بمكتبة الأسكوريال في إسبانيا ظلّ مجهولاً إلى ذلك الحين . وإنّهُ لتوفيق آخر ليس أقلّ سعادة من الأوّل ، أن أحصل ، بعد سنين طويلة ، وجزءاً بعد جزء ، على مصنف لترجمة شخصيّة لا يقلُّ أهميّة عن الأوّل ، وهو مصنف الأمير عبد الله ، الذي كانت كرايسه مبعثرة بين مجموعة كثيفة من المخطوطات المهمة منذ ستة قرون على الأقلّ في جناح تابع لمسجد القرويين بفاس .

وقد كنّا نعرف ، بفضل إشارة واردة في كتاب « الحلال الموشية » المجهول المؤلف ، أنّ الأمير عبد الله كان قد دوّن تأريخاً عن الدولة التي أسّستها أسرته في إسبانيا والتي كان هو آخر ممثليها . وعندما أصدرتُ في ١٩٣٤ أوّل طبعة للقسم المتعلّق بالأندلس من كتاب « أعمال الأعلام » لابن الخطيب ، جلبت انتباهي الفقرة الآتية (ص ٢٩٩) : « وقفتُ على ديوان بخطّ عبد الله بن بُلقين ألّه بعد خله بمدينة آغمات وقرّر فيه أحواله والحادثة عليه ممّا يستظرف من مثله ، أنحفني به خطيبُ المسجد بآغمات رحمه الله . » وبفضل إشارة أخرى وردت في نفس الكتاب ، نعرف أنّ ابن الخطيب قد زار آغمات وزار بها قبر المعتمد بن عباد في سنة ٧٩١ (١٣٩٠) ؛ فيمكننا أن نتساءل بأن المخطوط الذي استعملناه ، إذا لم يكن هو نفس هذه النسخة ، فهو على الأقلّ نسخة ثانية كُتبت

عن الأصل وقُبلت معه ، كما تثبت ذلك الإشارة المترددة : « صح » ،
أصله » .

وأخيراً ، اكتشفت لي صدفة من صدف المطالعة العنوان التام
لمذكّرات عبد الله : ففي قهرة من كتاب « المراقبة العليا » (ص ٩٧) ،
وهو مصنف في مراتب القضاء بالأندلس لمؤلفه المشهور ابن الحسن النباهي
(وقد نشرته في القاهرة سنة ١٩٤٨) ، يتبيّن أنّ كتاب عبد الله
كان موسوماً بـ « التّبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري
في غرناطة » .

إنّ هذا العنوان يعلن أحسن إعلان عما يُقصد منه : فالملوّف الذي
عُزل ونُفي قصد إلى سرد تاريخ دولته وظروف عزله .

• • •

من كان الأمير عبد الله هذا ، وأيّة قيمة يجب إعطاؤها إلى كتابه ؟
فلأكتفِ هنا بتلخيص ما نشرته عنه أخيراً في الطبعة الجديدة لدائرة
المعارف الإسلامية (الطبعة الفرنسية ، ج ١ ، ص ٤٥) :

كان عبد الله بن مُبلّق بن باديس بن حبّوس بن زيري الملك
الثالث والأخير لمملكة غرناطة التي أسسها فرعٌ منحدرٌ من عائلة بني
زيري البربرية الصّهاجية ، وذلك بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة .
وُلِدَ في سنة ٤٤٧ (١٠٥٦) ؛ وعيّن عند وفاة أبيه مُبلّق سيف الدولة
في عام ٤٥٦ (١٠٦٤) كوليّ عهد لجدّه الأمير باديس بن حبّوس ؛
ثمّ اعتلى بعده عرش غرناطة في سنة ٤٦٩ (١٠٧٧) ، بينما أصبح أخوه

تميم المَعِزَّ أميرًا مستقلًّا في مالقة . ولم تكن دولة الأمير عبد الله إِلَّا سلسلة طويلة من الاضطرابات في داخل مملكته ، والمشادات المسلَّحة مع جيرانه من الأمراء المسلمين ، والمواطنات مع ملك قشتالة ألفونس السادس . وساهم عبد الله في وقعة الزَّلَاقَة ومحاصرة حصن لَيْيَط عند تدخُّل المرابطين في إسبانيا . لكن اتِّفَاقاته مع الملك النصراني أدَّت به إلى ضياع عرشه ؛ فقد جاء الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين لمحاصرته في غرناطة عام ٤٨٣ (١٠٩٠) ؛ فاضطرَّ إلى أن يسلم نفسه إليه ؛ فعزل عن ملكه وأرسل إلى المنى بمدينة آغمات ، في جنوب المغرب الأقصى ، حيث انتهت حياته .

أما كتابة عبد الله لمذكراته ، فقد كانت أثناء إقامته الإجبارية في آغمات . وإنَّ هذه الترجمة الشخصية تكونُ أعظم مجموعة وثائق نملكها عن تأريخ ملوك الطوائف وأقلها تحويراً ، كما نستطيع أن ندرك ذلك بسهولة . وعلى الرغم من الاستطرادات الطويلة التي يحاول فيها المؤلِّف أن يبرز موقفه السياسي أمام الأخطار التي كانت تهدِّم مملكته ، فإنَّ كتاب « التبيان » يقدِّم لنا سرِّدًا مفصَّلًا جدًا لجميع الحوادث التي أدَّت إلى استيلاء ألفونس السادس على مدينة طَلَيْطَلَة عام ٤٧٨ (١٠٨٥) وإلى تدخُّل المرابطين في شبه جزيرة إيريا في السنة التالية .

كما أنَّ مذكرات عبد الله هي وثيقة سيكولوجية من الطراز الأول ، يساعد بصورة أفضل من كُتُب التاريخ التي ألَّفت من بعد ، على الحكم على حالة الانحلال الاجتماعي والسياسي في الأندلس قبل معركة الزَّلَاقَة وبعدها ، وعلى التقدُّم الذي حقَّقه في هذا الوقت أنصار استرجاع

إسبانيا المسلمة إلى النصرانية . ومن جهة أخرى ، إنَّ قصَّة الحوادث السابقة على حكم الأمير عبد الله نفسه هو أيضاً أمرٌ جديدٌ وهامٌ جداً . ويجب إذاً أن نعتبر مذكرات ملك غرناطة كدليل مرشد لتأريخ الطوائف الغامض ، وذلك ابتداءً من العصر الذي تنتهى فيه مؤلفات ابن حيان . وإنَّ هذه الفترة التي سأصِفُها بحول الله في الجزء الرابع من كتابي « تأريخ إسبانيا الإسلامية » ستوضَّح بصورة أوسع وتحت ضوء جديد بفضل هذا الحصول السعيد على وثيقة غنيَّة لا يرتاب فيها .

* * *

إنَّ مخطوط مذكرات عبد الله يحتوى في مجموعه على ٨٠ ورقة من القِرطاس السحيك ومن القطع الكبير (٢٣ × ٣١ سنتمتر) . وهو مسجَّل في مكتبة جامع القرويين بفاس تحت رقم ١٨٨٦ . خطُّه من الخطِّ المبسوط الأندلسي . والنسخة على العموم في حالة جيِّدة عدا ورقتين ممزقتين جداً .

وقد أرفقنا مع النصِّ ملحقين يحتويان على فقرات غير منشورة من كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى المراكشي ، ومن كتاب « الإحاطة في تأريخ غرناطة » لابن الخطيب ، يتعلَّق هذا الذيل بالأمير عبد الله نفسه وبشخصيتين هامتين في دولته . وسيجد القارئ خريطة تساعد على الوقوف على أهمِّ المناطق الجنوبية في إسبانيا مما جرى ذكرها في النصِّ .

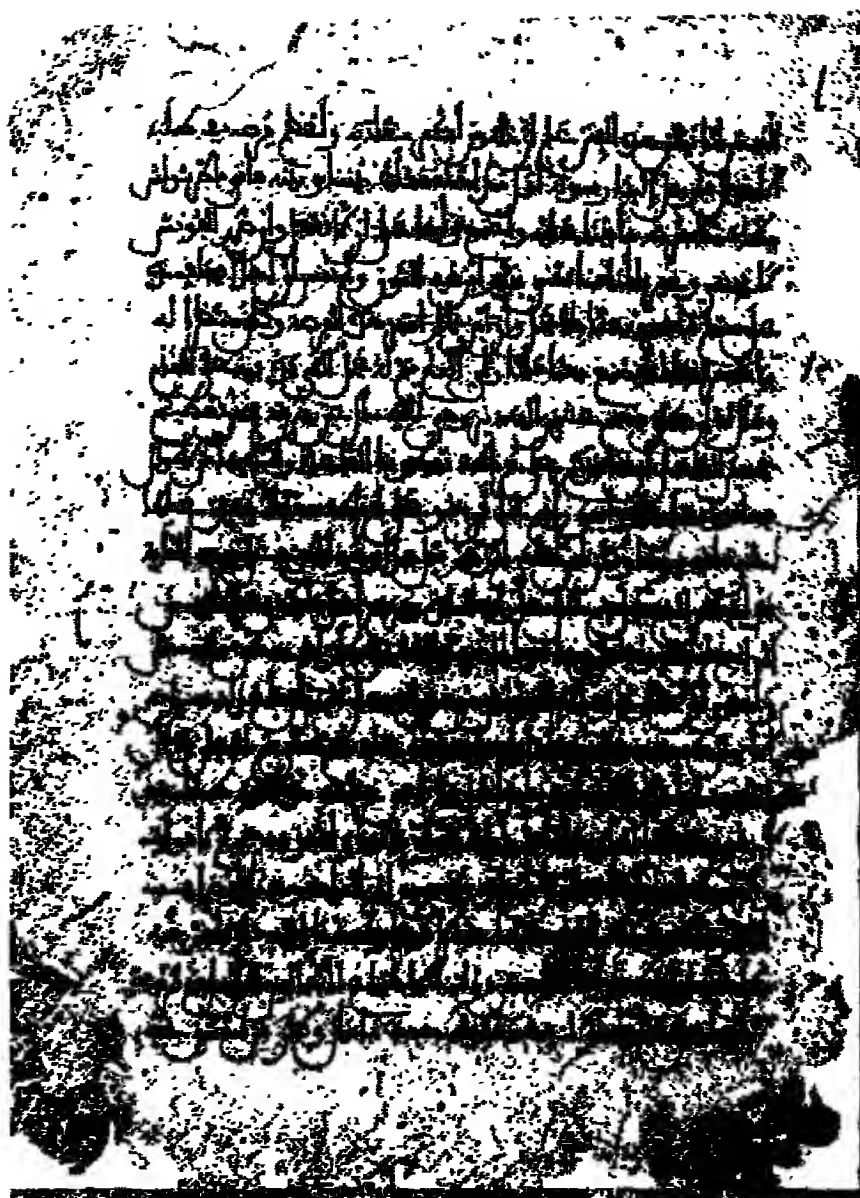
أودُّ في الختام أن أثبِّه قرأني الذين سيستغربون لبعض التعابير أو لبعض الصياغات في تأليف الأمير عبد الله إلى أن لفته ، مع أنها صحيحة ، قد تأثرت إلى حدٍّ ما باللغة العامية الأندلسية ، وأنه يلزم الرجوع بصورة

خاصّة إلى « ملحق القواميس العربيّة » لـ « لوزى لفهم بعض الألفاظ التي تبدو خاطئة ».

وليس من الضروري أن أثبته القراء من جهة أخرى إلى أن الصناءين التي أضيفت داخل النصّ للتفريق بين محتويات الفصول لم تكن مر في النصّ الأصلي .

ا . ل . ب

باريس ٢٦ يونيو ١٩٥٥



« مذكرات » الأمير عبد الله : صفحة من الأصل المخطوط

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لفصل الأول

نظرات عامة للمؤلف

١ — القواعد التي يتعين للمؤلف اتباعها

.....^(١) واستنباط الغريب الذي لا يعقله كثير من الناس ؛ فإن ذلك ١ (١)
يولد خشونة اللفظ ، الذي توجه الأسماع .

والكلام ، إذا خرج من القلب ، وقع في القلب . ولا خير في رام
ه رَعِش ، ولا متكلم هائب ؛ فإن الهيبة فرع [من] المحافة ، والمحافة فرع
[من] الحذر ؛ ومن حذر ، فقد عقله ، ومن خاف ، تكدر عيشه ، ولا
تصح مع هذا قريحة ينطق عنها اللسان ، ويذكر بها الجنان ؛ فالنفس ،
إذا منعت ما تشتهي ، ترى مختلطة ، وتصير كأنها بطوارق الجبل مختبئة .
ولا يجب على الناطق والكاتب أن يتبع هواه في أمره كله : فكل
١٠ مفتون ملقن حجة ، ولا عليه أن يرفض ذلك ؛ فيكون بانياً على غير أصل
وعاملاً لتغير نهاية . وعسى بذلك يسعى فيما يصلح غيره ويفسد حال نفسه ،
وهو لا يشعر ، بل يصرف نفسه على فرقتين : يسعى في بلوغ أملة وإدراك

(١) هنا يبتدئ نص المخطوط ، إذ تلفت منه الورقة الأولى .

مراده دون أن يكون ذلك مُخِلًّا بذكره ولا غرضاً لمدوّه . وكلّ بيان ما لم يكن صواباً ، فهدرٌ .

وليس يُحمَدُ لواضع كتابٍ أو ناظمٍ خبرٍ أكثر من جودة التأليف فقط ، لأنّه إنّما وضع ما قد سبقه إليه غيره ؛ وكلّ أحد ينفق ممّا عنده . وإنّ الأوّل لم يدع للآخر شيئاً . فلو كان نطقُ الناس إحالةً بقضهم على بعض ، ما سمع أحدٌ يأمر بمعروفٍ ولا ينهى عن مُنكرٍ ، ولا يتبرّع في [شئ] . ولكنّ الأوّل أن يؤخذ بما نصّ الله عليه في قوله ^(١) : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ .

ولست الفائدة فيما قصدنا إليه ذِكْرُ خبرٍ يوصف ويأتى عليه نادرة مستطرفة ، أو حكاية مستغربة ، أو معنى يؤدّى إلى تأدّب وانتفاع . فلعلّك — أيّها التأمّل كتابنا — أن يكون عندك أو طراً إليك خبرٌ من أحوال الدولة مشهور لا تجده منصوصاً هنا ، فتُجزّز واضِعَه : فليس إلّا كما قدّمناه . اللهمّ إلّا أن يكون حديثاً يؤدّى إلى القيام بحُجّة صاحبه* والاعتذار عنه من أمرٍ قد التبس على الجاهل أو أشكل على السامع لم يهجم على حقيقة ، فنطق هذرًا ، وساعدَ عليه أقواماً لم يخسروا في عرض غيرهم شيئاً ، وطمعوا على غائبٍ أو ميّتٍ لم يُحرّ الجواب عن نفسه ، أو دليلاً لم ينتصر لعرضه .

أو أبان المؤلّف عن نفسه حدّقاً ومعرفةً تُذكر عنه وتُنشر بعده : فإنّ ذلك من آكد ما يجب له السخى فيه وإعمالُ ذهنه وحواسّه في تلخيصه ، إن أعانه على ذلك اغتباطٌ بجميل الثناء ، وأنفةٌ لسوء المقال ، ونشاطٌ على

ترفع الذكر ، مع فتو الممة وصبوقة التريجة . وإلا ، فالأمر ناقص منه ،
واللسان عي عنه .

ولا نبيل إلى اجتماع أمرين مختلفين في الإنسان معاً ، ولا في غيره من
جميع المخلوقات . فإنه ، متى ارتفع أمر ، نزل ضده : كالحياة ، إذا ارتفعت ،
وجب الموت ؛ وإذا ارتفعت الصحة ، وجب السقم ؛ وإذا ارتفع الكرب ،
وجب الفرج .

هكذا نسق كل أمر : كالعامل للآخرة محضاً ، لا بد له من قصان
دنياه .

ألا ترى أن مؤلف الكتاب ، إن كان غرضه نظم الكلام وسجع
اللفظ ، كان ذلك ضاراً بالمعنى ؛ وإن أتى به ، فإنما يسوقه بعد تحليق عليه ،
وربما وضعه من غير شكله . وإذا تم المعنى ، قص بعض اللفظ ؛ كما قيل :
« إذا تم العقل ، قص الكلام » .

وأرى أن مساق الحديث في التأليف بعضه لبعض أحسن خطأ وأفضل
نظماً من تقطيعه . ولهذا نريد إيراد كالحديث « [فالحديث] ذو
شجون » ، ونضرب المثل لبعضه ببعض : فيتنق إرادته دفعة واحدة ،
ونضه على أكمل ما يمكن .

٢ - حقيقة الإسلام والرذ على من لا يؤمن به

ومن كان لا يعرف دنياه التي نشأ فيها ، وأدركها يبصره وجميع حواسه ،
فهو لآخرته أجهل ، [آخرته] التي لا تعرف إلا بالتفكر والاعتبار ، بعد

ما حضّ عليه الكتاب وأتى به الرسول — عليه السلام — . وقال تعالى ^(١) :
 ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ . وما * يصلح لنفسه لا يصلح لغيره . وأصل ^(٢) ()
 العلم كله معرفة الإنسان بدينه ، و [يقينه] بمعاده ، وأنه لم يخلق عبثاً . فإذا
 صحّت معرفته بذلك ، كان أخرى أن ينتفع به لادبائه التي يشاهدوها معاينةً .
 والرجال ثلاثة : رجلٌ عَمِلَ قَمِيلٌ : فذاك الذي يُدعى في الملوكوت ؛
 ورجلٌ عَمِلَ ولم يَعْمَلْ : فذاك الذي يُضَاعَفُ له العذاب ؛ ورجلٌ لم يَعْمَلْ
 ولا عَمِلَ : فذاك ، إن مات ، يموت ميتةً جاهليّةً ، ولا تصحُّ له معرفة
 دينه إلا بأن لا يقدر فيه قول كافرٍ ولا مُعْطَلٍ . فإذا حَسُنَ تمييزُهُ عن
 الصنف المُلْحِدِ ، عرف فَضْلَ ما هو عليه ، فَاتَّبَعَ على يقينٍ وجودةَ نَظَرٍ ،
 لا باستهزاء ولا تقليدٍ ، فيعجز ويشكُّ . ١٠

وأما من كان من الأصناف المُلْحِدَةِ ، غير أهل الكِتَابَيْنِ ^(٣) من المُشْرِكِينَ
 ومن سِوَاهُم ، فالضلالُ منهم بَيِّنٌ ، لا يحتاج معه إلى قياس ولا تفتيش . وأما
 ما يزعم أهل الكتاب من أنَّهم على الحقِّ ، ولهم الدين القويم ^(٤) ، وأنَّ قولهم
 أَخْلُ [بنيره] ، فالردُّ عليهم في ذلك أن يُقال لهم : « إن كنتم تزعمون
 أنه ليس بعد نبيِّكم نبيٌّ ولا مُنَّةٌ ، فلا يكون هذا القياس إلاَّ بأن
 تكفروا بمن كان قبل نبيِّكم من الأنبياء ! ألم تكن قبل موسى شرائعُ
 وكتبٌ مُنزَلةٌ وأنبياءٌ عدَّةٌ ؟ فلو كان على مذهبكم ، لا ينسخ دينٌ ديناً ،
 لم يجب لكم أنتم شيءٌ ! » ١٥

وإنَّ الله تعالى لا يترك الخلق سُدًى مُهْمَلِينَ ، وهو قوله تعالى ^(٥) :

(١) سورة الرعد : ١٨ . (٢) كذا في الأصل . (٣) أصل : « القديم » .

(٤) سورة فاطر : ٢٢ .

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ ، وقد كانت الضلالة بيّنة في الفترات من عبادة الأوثان وتعبّدهم بعضهم لبعض ، ما لم يكن في حكمة الله ومشيتته أن يترك الردّ ودينه ، ولا يمهّل من يعبد سواه حتى بعث محمّداً — صلى الله عليه وسلم — بالحقّ بشيراً ونذيراً ؛ فصدع بالقرآن ، وجاهد في الرحمن ، وسنّ السنن ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر . وكان في ذلك الزمان ٥

قد ضلّ أهل الكتاب ، واختلفوا ، وردّ بعضهم [على بعض بما لا] يمكن أن تصحّ لفرقة منهم شريعة مع الأخرى ؛ وكانوا كم * ^(١) ٢ (ب) الله تعالى ؛ فحتم الله الرسالة بنبيّنا — عليه السلام — ليبيّن له ما فرضه عليهم ، ويظهره على الدين كاهه ! إن يقولوا : « ما جاءنا من بشير ولا نذير ! » وقال الله تعالى ^(٢) : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ ، فالْحِجَّةُ عليهم ظاهرة على ما بينناه فيما يعطى العقل والقياس . وأمّا تبيين نبوته — عليه السلام — في الآيات التي جرت على يده ، فأكثر من أن توصف . وإذا قلتَ أحدهم ببعض هذه الحجج ؛ فمن ينتحل منهم قهراً في علمه وسداداً ، يرجع إلى أن يقول : « إنّما كان رسولاً إلى العرب ! » فتأمل ١٥

تناقضه ، وكيف أثبت له الرسالة ؛ ومتى وجب إثبات الرسالة ، فقد أوجب على نفسه التصديق في كلِّ مقالة وما أتى به . ثمّ الله يقول ^(٣) : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ . وقال — عليه السلام — : « بُعِثْتُ إِلَى الْأَسْوَدِ وَالْأَبْيَضِ وَالْحَرِّ وَالْعَبْدِ » ؛ فهم لا يصحّ لهم الإنكار جلة ولا الإيمان بأمرٍ دون أمرٍ .

(١) خرم نحو سطر في الأصل .

(٢) سورة المائدة : ٤٨ .

(٣) سورة سبأ : ٢٨ .

٣ - قصور القياس دون عون من الوحي

- وقد كانت معرفة الباري تعالى بالعقل اضطراراً لقوله ^(١) : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ . ولو ترك الناس في ذلك على قياسهم وما تدركه عقولهم ، لكان خوضهم في هذا المعنى قليلاً ، مستضعفين ، لا يطيقون نصر ما عهد إليهم مما يريدون من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولغلب جهالهم وعامتهم التظلم ، ولم يلتفت أحد إلى قوله وما يقيس عليه . فكانت النعمة مما أراد الله من صلاح العالم أن بعث فيهم الرسل ، ليكون ما أتوا به دواء لما في الصدور وهُدًى ورحمة ؛ فن عرف الله قبل العقل ، أتم عليه نعمته ؛ فقد عرفه نفسه باليقين ، وبشره بالثواب ، وأنذره العقاب ، ليرفع الشك ويوقن بالمعاد ولينقد إليه عامة الناس طوعاً أو كرهاً .
- ١٠ ألا ترى أن لا شيء من أمور الدنيا يصح بالظن دون اليقين ؟ فكيف الآخرة التي لا يوقن ^(٢) * الذين أبانوا عنها ؛ والظن أ كذب الحديث والشرع ، ومن تقلده بطل [رأيه] . وليس حكم الباري تعالى مما يجري على قياس : كيف ؟ وهو خالق القياس ، وهو واهب العقل الذي به أدركنا جميع الأشياء . ألا ترى أن النفس لم يقف أحد منها على حقيقة ما هي إلا اختلاف بين العلماء الشرعيين وأهل الطبيعة والذهريّة . والحق إنما يكون في طرف واحد ؛ فهم يخبطون خبط عشواء وإذا قست على الحق ، فإنما تجده عند أهل السنة لما بأيديهم من القرآن

(١) سورة الزمر : ٨٧ .

(٢) حرم نحو نصف سطر في الأصل .

وحديث ارسول — عليه السلام — ، فهم يتكلمون على أصل ، وغيرهم على قياس : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾^(١) .

وترى من الملحدين كثيراً [مَنْ] لا يؤمن بالغيب ويقول : « إِنَّمَا أَعْلَمُ^(٢) ما تُدْرِكُه حواسي من حارٍّ وباردٍ ورطبٍ ويابسٍ ، وما أدركته بعقلي مما كان ؛ ولا أعلم ما يكون ، وإِنَّمَا أَنَا أَنُ الْآنُ » . فالرَّدُّ عليه أن يقال له : « أُنَدْرِى بِمَعْرِفَتِ هَذَا كُلِّهِ ؟ » سيقول : « بالنفس . وعلمتُ النفس بالعقل الذى هو أرفع الدرجات » . فتقول له : « إِذَا عَرَفْتَ بالعقل ما أنتَ فيه ، لم يكن لك شئٌ متقدِّمٌ تعرف به العقل ، ولا استطعتَ لنفسك ، ولا علمتها قبل ؛ فتركب فيها عقلاً وتديراً . وواهبُ العقل الذى خلقتك ودبرك كيف شاء ، قادرٌ على أن يميزك ولا يحطك هملاً ، ولم يخلقك عبثاً ! ولو أنك تعلم — أيها الشقي — أن العقل ، إِذَا جِئْتَ به آيات ربك ، كلٌّ عليك وحملٌ يوم القيامة ؛ وهو قوله تعالى^(٣) : ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَتَمُّهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَمْجِدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ . وقال^(٤) : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ .

١٥ وقد أنت الرسل بالآيات التى هى خارجة عن حكم الطبيعة ليكون ذلك فى العالم أشدَّ استغراباً ومعجزاً يؤمن به أكثرُ البشر . وقد أمر الله تعالى بالإيمان بما قد غاب عن العقل والقياس ؛ ولا يعجز الله فى قدرته على ما يشاء* جاحدٌ كافرٌ.

٣ (ب)

كقول أهل الطبيعة : إِنها هى تُدَبِّرُ كلَّ شئٍ ، وإِنها أعلم [من] كلِّ

(٢) أصل : « نعلم » .

(٤) سورة يس : ٧٨ .

(١) سورة الأنعام : ١١٦ .

(٣) سورة الأحقاف : ٢٦ .

عليم وأحكم [من] كلِّ حكيم ؛ فتجع من فعلها في الأبدان ما لا تدركه
الطِّباءُ بجتهادها . وقال غيرهم : « الطبيعة اسمٌ واقعٌ على غير شيء لا يُدرى
ما هو . » فالحُجَّةُ عليهم : أهيَ طبيعةٌ واحدةٌ ، أم طبائعٌ كثيرةٌ ؟ بل ،
سيقولون : « لكلِّ شيءٍ طبيعةٌ ، فأرى أضداداً لا تصحُّ لأحدها إلهيةٌ ،
وغيرُها مُناقِضٌ لها . وهي كانت حُجَّةُ إبراهيم على قومه وردَّه على من قال
إنَّ الشمس هي حياة العالم دون غيرها ؛ فقال — عليه السلام — : « أرى
الظِّلَّ يفعل ضدَّ ما تفعله الشمس ؛ والخالقُ لا يُضادُّ ! » فأثبت الوحدايةَ
بالحُجَّةِ القاطعة الواضحة .

وقد ذُكر عن سُقراط ، وكان في زمن جاهليَّة ، أنه قال ، بما أوتي من
الحكمة ، مخاطباً الباري عزَّ وجلَّ : « يا أزل الأزل ! ويا أولَّ الأوائل !
ويا قديماً ! لم يزل مِنِّي نارُك لعلِّي أن هذه الخلوقات من آثارك ؟ »
ولم تكن معه فتنةٌ يتبعونه على قوله ، ولا يمتثلون ما قال ، حتى أمروا
بقتله .

ولهذا يرجع ما قدَّمنا ذكره أنَّ شرعاً لا يتمُّ بقياس العلماء وخواصِّ الناس
دون الرسالة ، على أنه لا يشكُّ ذو عقل أن الخلوقات قد جعلها الله عللاً بعضها
لبعض ، ولم يخلقها عبثاً ؛ ولكلِّ علَّةٍ علَّةٌ إلى أن ينتهي ذلك إلى الباري عزَّ
وجلَّ ؛ فهو الذي لا فوقه شيء . وهو قول إفلأطون لموسى — عليه السلام —
إذ قال له : « يا أخى ؟ رسولُ مَنْ أنت ؟ » أراد استخباره ؛ فقال له موسى :
« أنا رسولُ العلَّةِ » . فقال له إفلأطون : « ما العلَّةُ ؟ » قال : « لا أدري !
ولو كنتُ أدري ، لكنتُ أنا العلَّةُ ! إنما أنا متَّبِعٌ ! » فقال له إفلأطون :
« اذهب وبتَّعْ ما شئتَ ! فالآن صحَّ عندي أنك رسولُ حقٍّ ! »

(١) سورة البقرة : ٢٢٥ .

٤ - ضرورة التعليم والتجربة

- وأَعْلَمَ أَنَّ الْعَقْلَ مُحْتَاجٌ إِلَى التَّعَلُّمِ ، وَلَا يَسْتَحْكُمُ تَعَلُّمٌ إِلَّا بِتَجَرِبَةٍ ،
وَلَا تَسْتَحْكُمُ تَجَرِبَةٌ إِلَّا مَا كَانَ فِيهَا بَعْضُ التَّكْدِ وَالْإِشْغَافِ ؛ فَالْإِنْسَانُ عَلَى
مَا ضَرَى عَلَيْهِ وَعَلَى أَنَّ السَّعِيدَ مَنْ أَعْطَى بغيره ؛ لَكِنْ مِنْ شَأْنِ الْإِنْسَانِ
التَّسْوِيفُ وَ « لَعَلَّ » وَ « عَسَى » ؛ فَإِذَا أُحْتِيجَ فِي ذَاتِهِ ، أَعْقَبَهُ ذَلِكَ
بِقِظَةٍ وَحِكْمَةٍ . وَكَذَلِكَ مِنْ أُحْوَجَ إِلَى نَفْسِهِ كَأَنَّمَا لَا يَتَّكِلُ عَلَى غَيْرِهِ .
فَيَنْبَغِي الْعَاقِلُ أَنْ يَعْمَلَ نَفْسَهُ فِي رِيَاضَةٍ ذَلِكَ ، وَالتَّمَرُّنُ فِيهِ ، إِنْ لَمْ يَحْجُوجْ
الدَّهْرَ ؛ وَإِلَّا : فَلْيَتَمَبَّ ذَهَنَهُ ، وَيَشْغُلْ بَالَهُ بِالْفِكْرَةِ فِيهِ ، خَوْفًا أَنْ يُضْطَرَّ
إِلَيْهِ ، وَإِنَّ اللَّعْمَةَ غَيْرَ دَائِمَةٍ . فَإِنْ أَحْتَاجَ إِلَى نَفْسِهِ ، وَجَدَهَا ؛ وَإِنْ اسْتَعْنَى
عَنْهَا ، عَرَفَ فَضْلَ مَا هُوَ فِيهِ ، وَكَانَتْ لَدَيْتُهُ بِهِ أَشَدَّ تَمَكُّنًا : فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ ؛
قَدَرَ الْخَيْرِ مَنْ لَا يَعْرِفُ الشَّرَّ . وَإِعْمَالُ الْفِكْرَةِ فِي هَذِهِ الْمَعَانِي كَالْتَجَرُّبِ
بِهَا : فَإِنَّ الْإِهْتِمَامَ بِمَا لَمْ يَكُنْ بِلَا فِي النَّفْسِ كَأَنَّ ، وَذَلِكَ الْبَلَاءُ مُؤَدَّبٌ ،
وَاعِظٌ ، نَافِعٌ ، مُضْهِجٌ ، خَيْرٌ مِنْ بَلَاءٍ مُوجِعٍ حَالٍ .
- وقيل : ليس العلم بكثرة الرواية ؛ إِنَّمَا هُوَ نُورٌ بَصَّتَهُ اللَّهُ فِي الْقُلُوبِ .
- وَلَا عَذْرَ لِلْإِنْسَانِ فِي أَنْ يَجْهَلَ عِلْمًا يَلِيقُ بِهِ ، لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ^(١) : ﴿ فَسْتَلُوا أَهْلَ
الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وَمِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الرَّءِ تَرْكِهِ مَا لَا
يَعْنِيهِ . وَلَيْسَ كُلُّ مَا حَضَرَ عَلَيْهِ وَنَمَى عَنْهُ عَلَى الْعُمُومِ ، بَلْ لَئِكَ كُلُّهُ
حُكْمٌ يَحْسِنُهُ الْعَاقِلُ ؛ وَالْجَاهِلُ لَا يَحْسِنُهُ ، وَإِنْ جَهِدَ جَهْدَهُ .

(١) سورة النحل : ٤٣ .

٥ - التكوين السياسى للمؤلف

وقد كُنَّا — مَعشَرَ أَهْلِ بَيْتِ الْمَلِكَةِ — نَرَى مِنْ آكَدِ مَا تَأْدِبُ بِهِ إِعْمَالَ السِّيَاسَةِ فِي طَلَبِ الرِّيَاسَةِ ، وَالسَّمَى لَهَا بِكُلِّ الْوُجُوهِ ، وَإِحْضَارِ الْأُذْهَانِ ، مَا لَوْ أَنَّ الْمُفْرِطَ فِي بَعْضِ ذَلِكَ مِنَّا يَكُونُ أَقْبَهُ النَّاسِ فِي سَائِرِهَا مِنَ الْعُلَمَاءِ ، لَكَانَ عِنْدَنَا نَاقِصًا ، لَا يَصْلُحُ لِهَذَا الشَّأْنِ ، حَتَّى وَقَعَ التَّنَاقُصُ عَلَى ذَلِكَ .

وَقَتَلْنَاهَا نَحْنُ عِلْمًا لِرِيَاسَةِ أَنْفُسِنَا لَهَا ، وَمَا أَجْرَانَا^(١) عَلَيْهِ آهَاؤُنَا ، وَبَصُرُونَا فِيهِ مِنْ أَوَّلِ نَشَاتِنَا .

١٠ وتلك صناعةٌ وجب تَعَلُّمُهَا لِنُضْرُورَةِ الْحَالِ ، كَسَائِرِ الصَّنَائِعِ الَّتِي مِنْهَا مَعَاشِ النَّاسِ ، وَلَا بَدَّ لَهُمْ مِنْ إِيْتَانِهَا . وَلَعَمْرِي إِنَّ الْوَالِيَّ أَكْثَرَ عِلْمًا وَأَحْسَنَ عَقْلًا : فَإِنَّ جَمِيعَ حُقُولِ النَّاسِ تَعْرِضُ لِدَيْهِ ، وَيَجْرُبُ فِي مَوْضِعِهِ مَا لَا يَجْرُبُ غَيْرُهُ فِي تَقْلُبِهِ فِي الْبِلَادِ ، وَإِلَيْهِ تَهْدِي الْأَخْبَارُ ، وَيَتَخَصَّمُ النَّاسُ ، وَعِنْدَهُ يَقَعُ الطَّلِبُ ، وَتَرْفَعُ الْحَاجَاتُ ، وَتَقَعُ الْعِنَايَاتُ ؛ فَيَرَى وَيَسْمَعُ كُلَّ يَوْمٍ جَدِيدًا لَمْ يَرَهُ أَمْسًا . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْعَزِيزِ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — : « لَسْتُ كَخَبِيرٍ ، وَلَا الْخَبِيرُ يُخْدَعُنِي ! » وَقِيلَ : « فَلَانٌ لَا يَعْرِفُ الشَّرَّ » . ١٥

قال : « ذَلِكَ أَجْدَرُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ ! »

* وَلَمَّا كَانَ الْمُظَفَّرُ جَدُّنَا — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — قَدْ أُوتِيَ مِنَ الدِّهَاءِ وَالتَّمْيِيزِ (١) ٥ لِأَحْوَالِ الزَّمَانِ مَا لَا خِفَاءَ بِهِ ، وَأَنَّهُ مِنْ آكَدِ مَا يَجِبُ لَهُ النَّظَرُ فِيهِ تَرْشِيحُ

أَحَدَ بَيْنِهِ لِلْوَلَايَةِ بَعْدَهُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِتَعْمِينِهِ وَإِعْمَالِهِ فِي جَمِيعِ خِدْمَتِهِ ، كَيْ يَتَدَرَّبَ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الدَّوْلَةِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِيهِ نَفْسُهُ ، كُنْتُ مَعَهُ وَقَعَهُ اللَّهُ لِرَبِّهِ وَالْإِنْصِياعَ لَوْصِيَّتِهِ . فَأَمَرَ بِإِخْرَاجِي مِنَ الْمَكْتَبِ إِلَى التَّصَرُّفِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ لِي — نَصَرَ اللَّهُ وَجْهَهُ — : « مَعَكَ مِنَ الْكِتَابَةِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ مَا يَكْفِيكَ ! وَهَذَا أَوَّلَى مَا تَعَلَّمُ ! فَعَلَيْكَ بِإِحْضَارِ ذَهْنِكَ لِجَمِيعِ مَا يَكُونُ مِنِّي وَمَا يَنْقُضِي فِي دَوْلَتِي أَيَّامَ هَذِهِ النَّتَنِ ؛ فَإِنَّ الزَّمَانَ أَشْرُّ ، وَالْأَيَّامُ أَقْصَرُ مِنْ أَنْ تُدْرِكَ تَعَلَّمَ كُلُّ شَيْءٍ يَعْنِي بِهِ الْمُلُوكُ لِأَبْنَائِهِمْ ! »

فَامْتَثَلْتُ حَذَّه . وَأَخَذْتُ نَفْسِي أَوَّلًا بِالتَّوَضُّعِ لَهُ وَابْتِغَاءِ كُلِّ شَيْءٍ يَجْعَلُهُ فِي نَفْسِهِ أُنَى أَشْرَهُ بِهِ إِلَى تَعْجِيلِ الْوَلَايَةِ أَوْ الْحِرْصِ عَلَى الرِّيَاسَةِ ؛ بَلْ كُنْتُ أَتَأَنَّى لَهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَلَا أَخْكُمُ بَيْنَ اثْنَيْنِ إِلَّا عَنْ مَشُورَتِهِ وَمُشَارَكَةِ أَهْلِ السَّنِّ وَالْعَمَلِ مِنْ وَزَرَائِهِ ، وَأَنْزِلُ نَفْسِي لَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْإِبْنِ ، حَتَّى وَقَعَ ذَلِكَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَوْقِعًا ارْتَضَوْنِي بِهِ لِلْخَلَاةِ مِنْ بَعْدِهِ . وَاتَّفَقَ فِي ذَلِكَ رَأْيُهُمْ مَعَ رَأْيِ الْجَدِّ — رَحِمَهُ اللَّهُ .

وَلَمْ يَكُنْ مِنْهَا نَهَارٌ إِلَّا وَأُسْتَفِيدُ فِيهِ فَائِدَةً مِنْ تَجَرِبَةِ وَحُكْمَةِ .
وَمَا كُنْتُ أَجْهَلُ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، أَجِدُ لَهُ أَعْوَانًا مِنَ الْوُزَرَاءِ ، يَعْلَمُونَني بِالصَّوَابِ فِيهِ لِقَلَّةِ خِلَافِي عَلَيْهِمْ وَبِرَّيْ بِهِمْ .

كُلُّ ذَلِكَ [مِنْ] الْأَسْبَابِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ مِنْ أَجْلِهَا وَلَا يَتِي مِنْ بَعْدِهِ .
وَقَدْ كَانَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمَمْلُوكَةِ مَنْ يَصْلَحُ لَهَا قَبْلِي ، وَمَعِيَ مِنْ أَخْرَجِيهِمْ وَعَمَّ وَقَرَابَةِ أَتَوَقَّعُ اسْتِغْدَافَهُمْ إِلَيَّ وَتَغْلِبَهُمْ عَلَيَّ ، مَا لَوْ أَنْفَقْتُ مِلْءَ الْأَرْضِ عَلَى كِفَايَةِ شَرِّهِ ، مَا اسْتَطَعْتُ لَهُ . فَكَفَانِي اللَّهُ تَعَالَى مَا كُنْتُ * ه (ب)

أَتَوْقِعُ ، وأراني الخيرة في عاقبة كلِّ أمرٍ كنتُ فيه أكرهُه . فنحنُ
جُذُرَاءَ بِتَعْدَادِ رِيعِ اللَّهِ وَالْإِنْصَافِ فِي شُكْرِهِ ، كما حضَّ اللَّهُ عليه في
قوله ^(١) لَنَبِيِّهِ — عليه السلام — : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .
وقد كان أبونا سَيْفُ الدَّوْلَةِ — رحمه الله — مُرَشَّحًا لِلْمَلَكَةِ ، كثيرًا
حُبُّ أَيْبِهِ لَهُ ، وَجَمْعُهُ الْأَمْوَالِ مِنْ أَجْلِهِ ، وَتَدْرِيبُهُ عَلَيْهِ بِكُلِّ وَجْهِ .
وكان — رضى الله عنه — من العقول والكرام وحُسن الخلق والحلم مَشْهُورَ بِهِ
فِي الْبِلَادِ ، واجتمع عليه مَحَبَّةُ الْعِبَادِ . ولم يكن لِلْمُظَفَّرِ جَدًّا غَيْرُهُ ؛ فَتَوَفَّى
— رحمه الله — ابْنُ خَمْسَةٍ وَعَشْرِينَ عَامًا . وسنذكر من أحواله مع سائر
أُمُور الدَّوْلَةِ مَا يَرِدُ بَعْدَ هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

٦ — صعوبة الإنصاف التاريخي

وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي تَقْدِيمُهُ ذِكْرُ دُخُولِنَا الْأَنْدَلُسَ ، وَكَيْفِيَّةِ وَلايَتِنَا إِيَّاهَا ،
إِلَى هَلُمَّ جَرًّا .

فَإِنَّهُ ، مَتَى أَتَيْنَا عَلَى خَيْرِ طَيْبِ ذِكْرِهِ فِي هَذَا التَّأْلِيفِ ، لِلْمُعْتَرِضِ
أَنْ يَقُولَ : « هَذَا أَحْسَنُ لَوْ كَانَ عَلَى أَصْلِ مُحَمَّدٍ ، وَعَنْ وَلايَةِ تَرْتَفَعِي ! »
فَيَنْطِقَ هَذَرًا دُونَ اخْتِبَارِ وَلَا إِنْصَافِ ، عَلَى أَنَّ الثَّنَاءَ الْحَسَنَ لَا يَقَعُ عَلَى الدَّوْلَةِ
إِلَّا فِي مُدَّتِّهَا وَأَيَّامِ سَعَادَتِهَا ، وَلَوْ كَانَتْ ظَالِمَةً ؛ فَلَا يَقَعُ فِيهَا الذَّمُّ إِلَّا بَعْدَ
تَوَلَّيْهَا ، وَلَوْ كَانَتْ عَادِلَةً . وَالنَّاسُ مَعَ مَنْ سَبَقَ إِلَّا مَنْ نَظَرَ بِعَيْنِ الْعَدْلِ ،
لَا بِعَيْنِ الْهَوَى ؛ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ !

(١) سورة الضحى : ١١ .

ولتَرَى أن لاشيء في العالم يسعد وينحس إلا وكان أحد الأمرين لا يشوبه غيره . ولا يتعلّق بالسعادة إلا كلُّ مستحسن من غير تكدير ، كما أنه لا تشوب النحسة ما فيه أدنى مرور . وليس مع الإقبال إقبالٌ إلا تمام المدة .

- ٥ ولا يتفق الناسُ أجمع على مدح أحدٍ ولا على ذمّه : فإنّ رضى العامة أمرٌ لا يدرك ، ولا بدّ للوالى أن يقضى عند حكمه لأحد الخصمين على الآخر ضرورة ؛ فالتفضيُّ عليه انقلب سخطاً ، والتفضيُّ له انقلب راضياً ، وكلاهما يتكلّم على شهوة نفسه . فكيف يتفق إجماع العامة على خير واحد ؟
٦ أو مدحه ؟ وإن الله تعالى كان قادراً على أن يسوّى بين [أمور خلقه ،
١٠ وجديراً ، وإن] كيّفت ، أن يرفع بعضهم فوق بعض درجاتٍ .

٧ - المصادفة وأثرها في التاريخ

مثل المنصور

- وإذا اعتبرت أحوال هذا العالم على شيء من أمر الدنيا ، فإنما تجدّه كأننا بأرقّ سبب : فن بين جاهلٍ مسعودٍ أو حاذقٍ مُمخرقٍ . وإذا
١٥ بَعَثَتْ على ما هو فيه أعين استحقاقٍ تصيرُ إليه ، لم تختبر من فضاله ومقاله شيئاً يشذ عن العالم ، ولا يشفّ على رأى من تزدريه عينك ، ولأنّ الجهل في العامة أغلب ، والباطل إلى عقولها أسرع : استعظمت ما هو عند اللبيب حقير ، وتكلّمت على ما ظهر إليها ، ولم تفسر عليه بعقولها ؛ والله

ما بطن ، وللتاس مظهر . ولهذا ترى صاحب التاموس أرفع ذكراً وأطيب نساء ، وإن كان يُرأى .

وقد كان المنصور بن أبي عامر ، على دقة شأنه قبل ، ولأنه لم يكن من أهل بيت الملكة ، فيستحقها عن الآباء ، ولا كانت به قدرة على الدنيا ، قد حصل على عظام بدهائه ومخرفته على العامة ، مع ماهيات السعادة له (وكان أقوى الأسباب في سلطانه) . وقد ذكر بعض أهل العلم بالتنجيم أنه من كان طالعه من البروج الحوت والقوس كان أعظم الأسباب في سلطانه أو عقاره .

ولولا قيامه بدعوة الخليفة ، وإظهاره الانخضاع له [في جميع ما يأتي ويذّر إلى طاعته وإقامة أوده ، وتوليته الحجابة والوزارة ، وإخاله لأهل الدولة الحكيمة ^(١) ، وتقصيهم بالقتل ، متأولاً في ذلك أن دولته تصفو ^(٢) به ويقوى سلطانه ، وأن في بقائهم كثرة الخلاف وإيثار الفتن وهلاك المسلمين ، حتى أسق له ما أمل ، وبلغ من ذلك كله الغاية القصوى — ولو أن أحداً اشتهر ببعض ما أتى هو به دون تعلق بسبب أو إظهار طاعة ، [لكان قتل] من ساعته ، ولو كان من أهل بيت الخلافة — إلى أن ورث الأمر ابنه من [بعده ، فسار للنصور] * بأحسن سيرة وأحمد طريقة ؛ وكانت له في بلاد ^(ب) العدو فتكات ، نال الإسلام في أيامه عزاً ما كان بالأندلس [مثله] ، وأذل ما كان النصراني عليه .

(١) في الأصل : « الحاكية » .

(٢) أصل : « أن به تصفى دولته » .

لفصل الثاني

الأحداث الممهدة لقيام دولة بنى زيري
وأوليات هذه الدولة . أيام زاوي بن زيري
وحبوس بن ماكسن

٨ — الإصلاح العسكري الذي أدخله المنصور .

قدوم بنى زيري إلى الأندلس وقيام دول الطوائف

وتوقع [المنصور] من أجناده الاتفاق على بعض ما يخل بدولته ، إذ كانوا صنفًا واحدًا ، وتألّهم على معصية أمره ، متى أمر بما أحبوا أو كرهوا ؛ فنظر من ذلك بين اليقظة ، وسؤل له رأيه أن تكون أجناده قبائل مختلفة وأشتاتًا متفرقة : إن هم أحد الطوائف بخروج عن الطاعة ، غابها بسائر الفئات ، مع احتياجه إلى تقوية عسكره ، والزيادة فيه بمن يستطيع على تحلل بلاد العدو وتدوينها متى شاء . فاستجلب من رؤساء البربر وحماة وأبجاده من بلغه فروسيته وشدته . وتسامع الناس بالجهاد ؛ فبادر إليه من شرق المدوة من كان لهم من الآثار والمكارم والبأس على النصارى ١٠ ما لا خفاء به . وبهم كان يصول ابن أبي عامر على العدو ؛ وهم كانوا

العِدَّة في الجيش واللوثوق بهم عند اللقاء ومعتزك الوغاء . وكان من أذهام رأيًا وأبَعدهم همة زَاوَى بن زِيرَى عَمْنَا ، وبعده حَبُوسُ بن مَاكَسَن ابنُ أخيه — رضى الله عنهما — ؛ فإليهما كان الرأى والمشورة في الأمر ، والحكم على من دونهم من الأجناد .

فرتَّب ابنُ أبى عامر الرُّتَب ، وأظهر هيئة الخلافة ، وقمع الشُّرك ، وحضَّ المسلمين عامَّة على الغزو ؛ فعبز عن ذلك رعيَّة الأندلس ، وشكوا إليه ضعفهم عن المُلَاقاة وشغلهم بالفَرَوات عن عِمارة أرضهم ؛ ولم يكن القومُ أهلَ حَرْبٍ . فقاطَعهم على أن يشتغلوا بعمارة أرضهم ، ويمطوا من أموالهم كلَّ عام ما يقيم به من الأجناد مَنْ يكفيهم ذلك ، على اتفاق ورضى منهم . فضرب عليهم الأقطاع ، وحصل في الدواوين جميع أموال الناس ، وكسرها* عليهم^(١) [وفرض] بينهم ما لَّا [يرتزق] منه الجيش . فبقيت تلك ٧ (١) الأقطاع عليهم إلى [أن عمت الأندلس] عدَّة الثَّوَار و[اتبعوا] هم على تلك الآثار . [ودأبوا] في ذلك إثمًا كان على ما وصَّفهنا .

وكان الناس مؤتمنين على ما يعطونه من زكاة أموالهم في الناض والطعام واللواشي ، يقسمون ذلك على المساكين بكلِّ بلدة ؛ ولم يكن الوالى يقرب من ذلك إلَّا ما يقيم به الجيش والدولة التى هى قيام العالم ؛ ولولا حماية السلاطين للرعيَّة ، وعزُّ دُوكُلهم ، وذُبُّهم عنهم ، ما طاب لهم عيشٌ ولا عزٌّ بهم قرارٌ . فكان ذلك كله عن سداد وصلاح وتأوُّل الخير . ولم تزل الأندلس قديمًا وحديثًا [عامرة] بالعلماء والفقهاء وأهل الدين ، وإليهم كانت الأمور مصروفة ، إلَّا ما يلزم الملك من خاصَّته وعبيده وأجناده من الأخذ من واحدٍ

(١) وقع هنا وفيما يلى خرم وبعض محو فى الأصل . وأكلناه بما يتفق والمعنى .

وَدَفَعَهُ لآخر ، لينخل بذلك عسكره ويختير أفضله فيه للمسلمين
كفاية وعدة ، إذ كانت الأموال التي يعطونها من غير أصولهم ، ولا اكتسابهم ؛
إنما كان ذلك من وجه النظر للمسلمين . وأما ما كان بينهم من مظلمة
أو قضية وكل حكم يرجع للسنة ، فإنما كان لقاضي البلدة .
٥ فلما تمت الدولة العائرية ، وبقي الناس لا إمام لهم ، ثار كل قائد
بمدينته ، وتحصن في حصنه بعد تقدمه النظر لنفسه ، واتخاذ المسكر ،
واذخاره الأموال ؛ فتنافسوا على الدنيا ، وطمع كل واحد في الآخر .
وكذلك لا يصح أمر بين نفسين ؛ فكيف سلاطين كثيرة وأهواء
مختلفة ؟ إلا الله من كان ظالماً منهم يتعدى . . .
١٠ للقدر* الذي شاء ربنا لا شريك له .

٧

٩ — استقرار بني زيري في البيرة بناء على طلب أهلها

فلما رأى سلاطين صنهاجة وبنو زيري اقتطاع كل أمير في بلد نفسه ،
وذهاب ما كانوا عليه من عز وأثر ، عزموا بالرحيل عن الأندلس والجواز
إلى العدو ، ليرجعوا إلى مستقرهم . فانمقدوا على ذلك بعد أمور يطول
١٥ ذكرها ، وظهور فساد كثير أضربنا عن إيراد كله ، إذ كان مقصدنا
وصف دولتنا خاصة . ولا بد من ذكر لمع من غيرها عند الاحتياج إليه .
وكان أهل البيرة في بساط من الأرض ، وكان بهم من الفس بضعهم
لبعض ما إن الرجل منهم ليتخذ بإزاء داره مسجداً وحماماً فراراً من جاره ،
ولا يرجون إلى طاعة ولا حكم والي . وكانوا مع هذا من أجبن الناس

وأخوفهم على مدينتهم ، لا يستطيعون على قتال أحد ، ولو كان الذئباب ،
إلا بمن يحميهم ويذب عنهم . فلما بصروا باختلاف سلاطين الأندلس ،
وأنها أضمرت ناراً ، وتوقعوا أن يتخطقهم الناس ، وجَّهوا إلى زاوى المذكور ،
ساكنين مما هم فيه ، ويقولون : « إن كنتم جاهدتم قبل اليوم ، فهذا
الجهاد آكد عليكم : أنفسكم تحيونها ، ودياركم تمونها ، وعزة تأرون إليها !
ونحن شاركوكم بأموالنا وأنفسنا : لكم من الأموال والسكنى ، ولنا
منكم الحاية والذب عنا ! » .

قبل القوم قوتهم . واغبطوا بمكانهم ، واستبشروا باستفتاح البلدة
لغيرها ، و . . . أنفسهم من الغدر لتشتتهم ورجوع أمرهم كله إليهم دون
فتنة [تحميمهم] ، ولا جماعة يتوقع غضبها . فأتوهم مُحْتَشِدِينَ منالِّين ،
قد انقطع إليهم كل من انتهى من البربر وتعلق بهم . ونزلوا ساحتهم ،
وحبَّوهم بالتحف والأموال ، وشاركوهم أحسن مشاركة ، راضين بهم
لا ساخطين . واستجابت لهم عند ذلك معاقلة كثيرة ، منها جيان وأنظارها ،
وحصن آشر* من الغرب .

(١)٨

فلما طاعت لهم البلاد ، اجتمع رأيهم على أن يتقارعوا عليها ؛ وكانت
عادة في البربر ، كنى لا يأنف أحدُهم مما يصير إلى أخيه . فرجعت
إليبرة في قرعة زاوى ، وحصن آشر مع جيان في قرعة حبوس ابن أخيه
جدنا — رحمة الله عليهم — . وتعاقد جميعهم على أنه ، إن طرق العدو
جهة صاحبه ، يكون الآخر يحميها بنفسه ورجاله .

١٥

١٠ — ردّ الفعل الذى أحدثه فى الأندلس قيام دولة بنى زيري

اختطاط غرناطة

فلما بصر بفعلهم ثوار الأندلس ، جزعوا منهم ، وحذروا أن تقوى شوكتهم ، فيطرقهم ويحصلوا على بلادهم ، لما اختبروا من شدّتهم ورأيهم .
 ٥ فاجتمعوا على منازلهم وقصدتهم إليهم بأحشادهم ، كراهية توطيدهم بذلك المكان ونبضهم لأنفسهم . وقدموا على أنفسهم إنساناً سموه بالمرتضى ، زعموا أنه قرشي ، كنى يستهلوا بخلافته عامة الناس ، وليرجع أمرهم إليه . ونزل الجمع على مقربة منهم .

وكان قبل ذلك ، لما بلغهم احتشادهم وتآلبهم ، جمعوا أهل البيرة المذكورة وقالوا لهم : « نحن لم نأت لفساد دياركم ، ولا قهرناكم على استيطانها ؛ وإنما كان ذلك على اختياركم لنا . وهذه الفئات مقيمة لطلبنا : فإن استوثقنا منكم ، دافعنا عنكم ؛ وإن كانت الأخرى ، فأعلمونا : نمض عنكم على أجل وجّه . فلن نعلم الخير بسيوفنا ! » فأجابهم القوم : « اثبتوا فى قتال عدوكم والدفاع عنا وعن أنفسكم ! فنحن رعييتكم الطائفة وأسيافكم القاطعة ! » فقال لهم زاوى بن زيري : « إذا كان هذا رأيكم ، فأرى من الصواب أن نرحل عن هذه المدينة ، ونختار لأنفسنا فيما يقرب منها مقللاً نأوى إليه بأهالينا وأموالنا * والحرب ٨ (ب) سجال . . . (١) يصيب عندها ولا يصاب ؛ فقد يظن عجزاً ! وقد أمر

(١) حرم فى الأصل .

النبيؑ — عليه السلام — عند احتشاد المُشْرِكِينَ على المدينة أن يُحْنَدَقَ حَوَالَيْهَا ، وسنَّ الحَزْمَ ، مع مَدِّ الوَحْيِ له ؛ فكيف نَحْنُ ؟ »

وقالوا لأهل البيرة : « لَسْنَا نَكْلِفُكُمْ^(١) من الأموال ما نَسْرَعُغَمَ به ، إِلَّا أن تنفقوها فيما يخصُّكم من تقوية مدينتكم بحشود رجالة منكم ، تنفقون عليهم ليكونوا بها لكم أعواناً : تصرّفونهم حَرَساً وجواسبَ وما أشبه ذلك ، وتحملون من تعرفون أنه يستطيع على الجُنْدِيَّةِ ، أو تبنون لأنفسكم سوراً يتوقَّع بتركه ثلثة تدخل بها الداخلة عليكم . وأما سِوَى ذلك مما يخصُّنا نحن ، فاعلموا أنه لم نأتِ الأندلسَ إِلَّا وأجلبنا مع أنفسنا من الأموال ما لا نحتاج فيه إلى أحدٍ ، بانين على الإقامة إن اضطررنا إليها ؛ ولم نأتها من فاقة ولا معاية ؛ إِنَّمَا جئناها رغبةً في الجهاد ، وأن تكون كفايتنا التي شهرنا بها على العدوِّ دون سائرهم ، وأن نبقى أعمارنا في طاعة الله ، إلى أن دفعتنا الأقدار إلى ما تَرَوْنَ . ونَحْنُ لم نطلب أحداً ، ولا تعددنا على بشر ! وهؤلاء باغون متطاولون . وَمَنْ ﴿ مُبْنَى عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللهُ ﴾^(٢) ؛ ومن قُتِلَ دون ماله وأهله ، فهو شهيدٌ ! »

فرضى القوم من قولهم ، وزاد ذلك فيهم رغبةً . واتفق رأيُ الجميع أن يَخِيرُوا لأنفسهم جَبَلًا مُنِيفًا وَمَعْقِلًا شَاخِحًا ، يبنون فيه ديارهم ، ويرحلون إليه بقلتهم وكثرتهم ، ويعملونه القاعدة ، ويخربون له البيرة المذكورة فوقعت أَعْيُنُهُمْ على بسيطٍ جميل ، قد جمع الأنهار والأشجار ؛ (١) ٩ وجميع ما يليه من البلد كله ينسقى من وادى^(٣) شَنِيلِي المنحدر من جَبَل

(١) أصل : « نكلفوكم » . (٢) سورة الحج : ٦٠ . (٣) خرم نحو

سطين في الأصل . (٤) أصل : « واد » .

شَلْتَر . وبصروا بالجليل الذي فيه الآن مدينةُ غَرْنَاطَة مَوْسُطَة لِلْبَلَدِ كُلِّهِ :
 الْفَحْصَ أَمَامَهُ ، وَجِهَتَيْ الزَّائِيَةِ وَالسَّطْحِ بِجَنْبَيْهِ ، وَنَظَرَ الْجَبَلَ وَرَاءَهُ .
 فَأَفْتَنَهُمُ الْمَكَانُ ، وَعَمَلُوا عَلَيْهِ كُلَّ حَسَابٍ ، وَرَأَوْا أَنَّهُ فِي وَسْطِ النَّعْمِ وَجُوهٍ
 الرِّعَايَا ، وَأَنَّ الْعَدُوَّ ، مَتَى نَازَلَهُ ، لَمْ يُطَقْ لَهُ إِحْصَارًا ، وَلَا مَنَعَهُ دَاخِلًا
 ٥ وَلَا خَارِجًا الْبَتَّةَ ، فِي كُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنَ الْمُرَافِقِ . فَشَرَعُوا فِي
 بُنْيَانِهِ . وَتَوَلَّى كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ إِقَامَةَ دَارِهِ مِنْ أُنْدَلُسٍ وَبَرْبَرٍ . وَخَرَبَتْ
 عِنْدَ ذَلِكَ الْبَيْرَةَ .

١١ - خروج المرتضى لحرب بني زيري وهزيمته

فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا مَدَّةً يَسِيرَةً قَبْلَ أَنْ يَسْتَكِلَ الثُّبَيَّانَ ، فَإِذَا بِالطَّوَائِفِ
 ١٠ الْبَاغِيَةِ قَدْ أَقْبَلَتْ طَامِعَةً مُتَأَلِّفَةً ، يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ ، عِنْدَ وَصُولِهِمْ ، لَا تَرْتَدُّ
 لَهُمْ سَاعَةٌ . وَقَدَّمُوا كِتَابًا إِلَى زَاوِيٍ لِلذِّكْرِ ، يَأْمُرُونَهُمْ - بِزَعْمِهِمْ -
 بِالْخُرُوجِ أَمَامَهُمْ عَلَى الْأَمَانِ ، وَأَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْبَقَاءِ ، وَلَا يَتْرَكُونَهُمْ بِذَلِكَ
 الْمَوْضِعَ : يُتَبَلَّغُونَ بِذَلِكَ الْعُذْرَ عِنْدَهُمْ ، إِذَا ظَفَرُوا بَعْدَ هَذَا ، أَنْ لَا يَقِيلُوا
 لَهُمْ عَثْرَةً .

١٥ فَلَمَّا قُرِئَ عَلَى زَاوِيٍ كِتَابُ الْمُرْتَضَى الْمَقَامَ لِهَذَا النَّاسُوسِ ، جَمَعَ
 رِجَالَهُ ، وَخَاطَبَ ابْنَ أَخِيهِ حَبُوسًا ، يَأْمُرُهُ بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ ؛ فَأَتَى فِي جَمِيعِ
 عَسْكَرِهِ ، وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى أَهْلِهَا ، غَيْرَ مُجَانِبٍ لَهُمْ ، وَلَا مُتَكَاثِرٍ مِنْهُمْ .
 وَاجْتَمَعَ بِغَرْنَاطَةِ مِنْ صِنَاهَا دُونَ الْأَلْفِ مِنْ خَيْرَةِ الْخِيَرَةِ ؛ وَكَانَتْ الطَّوَائِفُ
 الْبَاغِيَةُ فِي نَحْوِ مِنْ أَرْبَعَةِ أَلْفِ فَارِسٍ .

٢٠ فَأَمَرَ زَاوِيٍ لِلذِّكْرِ [بِكَتَبِ الْجَوَابِ مِنْ] إِمْلَائِهِ ، وَقَالَ لِلْكَاتِبِ :

« لَا تَزِدْ شَيْئًا عَلَى مَا أَمَرْتُ عَلَيْكَ ! * اكْتُبْ : ﴿ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ، حَتَّى ٩ (ب) زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ . كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) » .

فلما ورد الجواب عليهم ، عجبوا من دهائه ، وقالوا : « إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَمْ يَأْبَ الطَّاعَةَ لَنَا ، إِلَّا أَنَّهُ وَاثِقٌ بِنَجْدَتِهِ وَبِمَنْ مَعَهُ ، أَوْ مُوَطَّنٌ عَلَى الْمَوْتِ ، أَوْ مُعْجَبٌ بِحَيِّئٍ ! » فزحفوا إليه .

وهشَّ القومُ إلى مُلَاقَاتِهِمْ . فَأَمَرَهُمْ زَاوَى بِالثَّبُوتِ وَتَرَكَ الطَّلِيشَ ، حَتَّى يَبْدُو لَهُ مَا هُمْ فِيهِ . فَقَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ : « لَا خَيْرَ لَنَا فِي غَيْرِ مُلَاقَاتِهِمْ ، إِذْ قَدْ أَيقَنَّا بِأَنَّهُمْ لَا يَنْفَعُنَا مَعَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا الظُّفْرُ بِهِمْ أَوْ الْمَوْتُ عَلَى أَيْدِيهِمْ . وَلَا مَهْرَبَ لَنَا فِي الْأَرْضِ دُونَ قِتَالِهِمْ ! إِنْ بَقِينَا ، لَمْ يَبَارِحُونَا ، وَأَحْصَرُونَا ١٠ مَعَ رَعَايَانَا إِنْ لَمْ يَرَوْا مِنَّا دِفَاعًا عَنْهُمْ ! فَإِنَّمَا هَلَكٌ وَإِنَّمَا مُلْكٌ ! وَإِنْ مَوْتُنَا فِي مُلَاقَاتِهِمْ ، بَعْدَ إِبْلَاءِ الْعُذْرِ ، أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ تَطْلُبِهِمْ عَلَى مَدِينَتِنَا ! »

فَخَرَجُوا إِلَيْهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ جَرِيئَةً وَعَلَى الْمَوْتِ مُوَطَّنَةً ، وَقُلُوبٌ خَنِقَةٌ وَالْمَوْتُ طَالِبَةٌ . فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا كَصَفْقَةٍ بِالْكَفِّ عَلَى الْكَفِّ حَتَّى وَلَّوْهُمُ الْأَدْبَارَ ، وَانْهَزَمُوا أَمَامَهُمْ مَذْعُورِينَ ، يَطْلُبُونَ النِّجَاةَ بِحِشَاةِ أَنْفُسِهِمْ ، لَا يَلْوِي مِنْهُمْ أَحَدٌ عَلَى صَاحِبِهِ . وَاتَّبَعْتَهُمْ صِنْهَاجَةٌ ، وَانْبَسَطَتْ عَلَيْهِمْ أَيْدَى الْبَرَبْرِ ، ١٥ يَقْتُلُونَ مِنْهُمْ نَهْمَةً أَنْفُسَهُمْ ، وَيَأْخُذُونَ أَمْوَالَهُمْ وَمَا تَرَكَوهُ مِنْ أَسْلِحَتِهِمْ ، حَتَّى امْتَلَأَتْ مِنْ ذَلِكَ أَيْدِيهِمْ .

وَكَانَتْ تِلْكَ الْوَقْعَةُ أَوَّلَ ظَفَرِ ثَبْتُوا بِهِ فِي أَوْطَانِهِمْ . وَهَابَهُمُ النَّاسُ ، وَانْقَادَتْ لَهُمُ الرِّعَايَا . وَتَوَطَّدَ مُلْكُهُمْ بِفَرْنَاظَةٍ ، وَطَاعَتْ لَهُمْ أَكْثَرُ بِلَادِ ٢٠ أَعْدَائِهِمُ الْمَهْزُومِينَ .

١٢ — رحيل زاوي بن زيري إلى إفريقية وموته هناك مسموماً

وإنَّ زاوي بن زيري ، لما بصر بهذه الحال ، ورأى تألب أهل الأندلس عليهم وبُغضهم لهم ، عمل بذلك فِكْرته وقال : « قد علمتُ وأيقنتُ أن هذا يكون * دأبهم أبداً ، وإن كُنَّا قد مُتَحْنَا الظفر في أول صفة ، لم نَأْتِهِمْ على أنفسنا وديارنا كلَّ حين ! وهُمْ ، إن قُتِلَ منهم واحدٌ ، خَلَفَهُ أَلْفٌ ، مع مِثْل جنسِيَّتهم من الرعايا إليهم ؛ فَتَكُون الزيادة فيهم والنقصانُ مِنَّا ! ولا يموت لنا نَحْنُ أَحَدٌ ونُخْلَفُهُ أَبداً ! » فنظر من المكان بعين الحقيقة ، وزَهَدَ فيه ، مع ما عَلِمَهُ من وفاة باديس بن المنصور ، والِدِ المِعْزِ ، مَلِكِ القَيْرَوَانِ ، وأنَّ ابنه وَلِيَّ طِفْلاً صغيراً ؛ فشرعت نفسه إلى تلك الولاية ، وعزم على النهوض إليها ، للقدَر الذي قَدَرَهُ اللهُ من إزالته عنها وولاية ابن أخيه مكانه .

وكان لزاوي بَنُونَ ، يعدل كل واحد منهم ببدنه مائة فارس في نجدة وقوة بأسه ورأيه : منهم بُلْقَيْن بن زاوي . فأعاب هذا الرأي على أبيه ، وقال له « بَنَيْتَ لَمِيرِكَ ، فَتَكُونُ لَهُ بِمَنْزِلَةِ الخادم أو الأجير ! لا تترك حاضراً لغائب ! واثبت بمكانك الذي لم تحصل عليه إلا بعد مشقة وإشراف من نفسك على الهلاك ! » فقال زاوي : « نستخلف على المدينة من شيوخ تلكاثة الموثوق بهم في المهمات مَنْ يثقُها ، وينوب منابى فيها ، حتى أباشِرَ بنفسى حال القَيْرَوَانِ وكيفية دَوْلَتِها . فإنما أن يتهيأ غرضنا ، وإلا انصرفنا إلى مرَّكَرنا » .

٢٠ فتهيأ للسير على سبيل المشاركة للمِعْزِ ، وأن يكون له بالأندلس عُدَّة

وعَبْدًا ، وما أشبه ذلك مما يُسْتَعْمَلُ فِي الْمَشَارَكَاتِ وَاتِّصَالِ الْأَيْدِي عَلَى الْمُهَيَّمَاتِ . وَاسْتَحْلَفَ مِنْ اسْتَحْلَفِهِ مِنَ الشُّيُوخِ إِلَّا يَدْخُلُوا^(١) عَلَيْهِ دَاخِلَةً وَلَا يُسْلَمُوا^(٢) مِنْ أَحْوَالِهِ شَيْئًا لِابْنِ أَخِيهِ وَلِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ، * يُرِيهِمْ^(٣) ١٠ (ب) فِي مَسِيرِهِ^(٤) النَّظَرَ لَهُمُ وَالسَّعَى فِيمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ مَوْطِنِهِمْ ذَلِكَ .

٥ ثُمَّ خَرَجَ عَنِ الْبَلَدَةِ كَأَنَّهُ يُقَادُ قَوْدًا ؛ فَلَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا بِمَرْحَلَةٍ إِلَّا وَكُتِبَ مُسْتَحْلَفِيهِ سَائِرَةً إِلَى حَبُوسِ بْنِ مَأْكَسَنَ ، يَسْفَهُونَ رَأْيَ زَاوَى وَيَقُولُونَ لَهُ أَنْ يُجَبَّلَ بِالْقُدُومِ إِلَى الْبَلَدِ ، وَأَنَّهُ أَحَقُّ بِوَلَايَتِهِ مِنْ غَيْرِهِ ، قِيلَ أَنْ يَطْمَعَ فِيهِ مَنْ لَا يَرْضُونَهُ ، أَوْ يَشْرَةَ إِلَيْهِ مِنْ فَفَرَةٍ فَاهُ إِلَيْهِ بِزَوَالِ زَاوَى عَنْهُ . فَلَمْ يَتَأَخَّرْ عَنْهُ إِقْبَالُ حَبُوسِ . وَتَلَقَّاهُ^(٥) صِنْهَاجَةً بِالطَّاعَةِ وَالْإِقْبَادِ لِمُلْكِهِ . ١٠ وَسَمِعَ بِخَبَرِهِ زَاوَى ، وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ عَلَى مَقَرَّةٍ مِنْ غُرْنَاطَةِ ؛ وَنَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ . وَلَا مَهْ وَلَدَهُ عَلَى ذَلِكَ .

وَيَذْكُرُ أَنَّهُ ، لَمَّا وَصَلَ إِلَى الْقَيْرُوانِ ، وَأَحْسَنَ بِمَذْهَبِهِ بَعْضُ وَزَرَاءِ الْمُعِزِّ تَكَرَّرَ وَخَافُوا دَوَاخِلَهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْ يَكْدُرَ مَا صَفَا . وَرَأَوْا أَنَّ وَلَايَةَ الْمُعِزِّ عَلَى طُغُولِيَّتِهِ ، وَعَيْشَتِهِمْ مَعَهُ ، وَتَحْكُمَتِهِمْ عَلَيْهِ ، أَخَفُّ عَلَيْهِمْ مِنْ تَوَلِّيَةِ دَاهِيَةٍ ١٥ مِثْلَ زَاوَى ، لَا يَمْلِكُونَ مَعَهُ مِنْ قِطْمِيرٍ . فَدُسَّ إِلَيْهِ مَنْ سَقَاهُ الشَّمَّ . وَمَاتَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ .

١٣ — إِمَارَةُ حَبُوسِ بْنِ مَأْكَسَنَ

وَصَفَا الْأَمْرُ لِحَبُوسِ بْنِ مَأْكَسَنَ ، وَسَارَ بِأَجْمَلِ سِيرَةٍ وَأَعْدَلَ طَرِيقَةٍ . وَصَرَفَ أَحْكَامَهُ أَجْمَعَ إِلَى قُضَاةِ الْبِلَادِ ، وَتَعَقَّفَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ وَجَعَلَتْ

(١) أصل : « يَدْخُلُونَ » . (٢) أصل : « يَسْلَمُونَ » . (٣) أصل : « يَرِيهِمْ » .

(٤) أصل : « وَتَلَقَّاهُ » .

يَدُّهُ عَلَى الْحَرَامِ وَالْأَمْوَالِ . فَأَحْبَبَهُ النَّاسُ ، وَأَمِنَتْ مَعَهُ السُّبُلُ ، وَقَلَّ
الْقِسَادُ ، وَارْتَفَعَ الْجَوْرُ .

وكان الرجلُ مُحِبًّا فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ ، لَمْ يَسْتَأْثِرْ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ .
وَقَسَمَ عَلَيْهِمُ الْبِلَادَ . وَأَمَرَ كُلَّ قَائِدٍ أَنْ يَنْتَخِبَ مِنَ الرِّجَالِ عِدَدًا يَلِيقُ بِهِ
وَمَا يَكُونُ عَلَى قَدْرِ مَا أُعْطَاهُ مِنَ الْجِهَاتِ ، وَأَنْهَى إِلَيْهِمْ : « إِلَّا قَائِدَةٌ
تَفِيدُونِي بِهَا تُنْفَقَ عِنْدِي مِنْ مَالٍ أَوْ تَحْفَظَ غَيْرَ الْاسْتِكْنَانِ مِنَ الْأَجْنَادِ ؛ فَمَتَى
دَعَوْتُ * أَحَدَكُمْ لِمِهْمَةٍ ، وَبَصُرْتُ عَسْكَرَهُ أَكْثَرَ عِدَدًا وَأَجُودَ خَبِيرَةً ، ١١ (١)
فَذَلِكَ الْأَثِيرُ عِنْدَنَا ، وَالْحَظِيُّ لَدَيْنَا ! » فَسَارَعَ الْأَجْنَادُ إِلَى الْإِثْقَةِ ، وَزَادَ
الْجَيْشُ فِي أَيْتَامِهِ ؛ وَقَامَتْ هِمَمُ الرِّجَالِ عَلَى سَاقٍ ، وَتَنَافَسُوا عَلَى خِصَالِ
الْحُرُوبِ وَمَقَاطِعِ الشُّجْعَانِ .

وكان بنو عَمِّهِ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ سُلْطَانًا فِي نَاحِيَّتِهِ ، قَدْ حَازَ جِهَتَهُ
وَانْفَرَدَ بِعَسْكَرِهِ . وَكَانَ حَبُوسٌ — رَحِمَهُ اللَّهُ — لَا يَنْفَرِدُ بِرَأْيٍ دُونَهُمْ ،
وَلَا يَقْطَعُ مَقْطَعًا إِلَّا بِمَشُورَتِهِمْ ، حَتَّى إِنْهُمْ لِيَجْتَمِعُونَ مَعَهُ لِلْحُكْمِ فِي مَوْضِعٍ
خَارِجٍ قَصْرَهُ دُونَ السَّيْرِ إِلَيْهِ ؛ وَذَلِكَ اسْتِحْسَانًا مِنْهُ ، كَيْ لَا يَحْصُلَ عَلَيْهِمْ
مَا يَفِيقُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْهُ ذِلَّةٌ وَلَا مَا يَنْقُمُونَ عَلَيْهِ . وَكَانَ رَفِيقًا بِهِمْ ، مُحْسِنًا
إِلَيْهِمْ ، مُؤَلِّفًا لِكَلِمَتِهِمْ . وَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ : « إِنْ صُنِّهَاجَةٌ عِنْدِي مِثْلَ
الْأَسْنَانِ فِي الْفَمِ : إِنْ عَدِمْتُ مِنْهُمْ وَاحِدًا ، لَا نَخْلُفُهُ أَبَدًا ! » فَكَانَتْ
لَهُ بِهِمُ الصُّوْلَةُ عَلَى النَّاسِ وَالْإِسْطَالَةُ عَلَى الْعَدُوِّ . وَمَا كَانَ كُلُّ أَحَدٍ يَرَى
تَرْكَهُ غَنِيمَةً وَالسَّلَامَةَ مِنْهُ مِنْ أَعْظَمِ الْفَائِدَةِ ، فَضْلًا أَنْ يَطْمَعَ فِي شَيْءٍ
٢٠ مِنْ جِهَاتِهِ ، أَوْ تُحْدِثَهُ نَفْسُهُ بِغَزْوِ بَعْضِ بِلَادِهِ .

١٤ - المؤامرات التى دُبِّرَت لإسناد الإمارة

إلى يَدَيَّر بن حُبَّاسة .

موت حُبُّوس

وكان لِحُبُّوس بن مائِسن - رحمه الله - ابنٌ أُخْرُ يُعْرَفُ يَدَيَّر
 ٥ ابن حُبَّاسة . وكان عنده آثَرٌ من وَلَدِهِ ، لِذَلِكَ كان يَرى من نباهته ،
 وإقباله على قراءة الكُتُب ومُجالسة الفُقهَاء ؛ وهو الذى كان يلقى به
 الرُّسُل ، ويصرفه فى المُهمَّات . وكان باراً بِحُبُّوس وبجميع أهل المملكة .
 وكان من أَحَبِّ الناس فيه كاتبُ حُبُّوس المعروف بأبى العباس ، لِأَنَّهُ يَرى
 من تواضعه وحُسن مُشاركته فيما عَنَّهُ له من سَبَب . وطار له بذلك نامُوسٌ
 ١٠ كبيرٌ عند* صِنْهاجة حتَّى أَكْثَرُوهُ على غيره .

١١ (ب)

وكان باديس بن حُبُّوس جَدُّنا - رحمه الله - كبير النفس ، عالى الهمة ،
 حادِّ اللزاج ، لا يستطيع أَحَدٌ [أَنْ] يَمْخَرُقَ عليه فى أمر من الأمور ، ولا يَنْكسر
 لأَحَدٍ من بنى عَمِّهِ ، رِقَّةً منه بسعادته ؛ وإنَّ الانخضاع والتريض فى القول
 لا يَفْعِيهِ ذلك ولا يزيد فى أَيْامِهِ . وكان ذلك كُلُّهُ منه فى حزم وروية ،
 ١٥ لا يفسد جانباً حتَّى يصلح آخَرَ ، ويضرب بعضهم ببعض . فوجست أَنفُسُ
 البعض منه ، وأُشْرِبُوا هَيْبَتَهُ وخافته ، وتوقَّعُوا ، إن صار الأمر إليه ، أَنْ
 يَجْرِبَهُمْ على خلاف ما عهدوه من أَيْهِ . فَأَضْمَرَ أَكْثَرُهُمُ لَهُ التَّوَائِلَ ، وآثَرُوا
 عليه يَدَيَّرَ المذكور ، وتمنَّوْا بولايته : كُلُّ ذلك لَشَقَائِهِمْ وتَمَامِ أَيْامِ سعادتهم !
 وَصِمَّتْ الْمُظْفَرُ باديس - رحمه الله - يَصِفُ بعض ذلك فى مجلسه

ويقول : « كنتُ واقفاً بين يدي حَبُوس أبي — رحمه الله — حتى انتدبَ إليه من شيوخ صِنْهَاجَة من قال له : « إنَّ من آكَدِ ما تنظر فيه أن تولَّى على أمرِكَ مَنْ يَخْلُفُكَ مَنْ تُرْجَى بَرَكَتُهُ للمسلمين ولبنى عمِّكَ ! فَإِنَّ الموت يندو ويروح ! » فقال أبو العباس كَاتِبُهُ : « ليس يصلح لهذا الأمر إِلَّا يَدَّيْر ، لطهارته ، وعفافه ، ومحَبَّتِه في الناس ! » وكان في الجُمْلَة من شيوخهم صديقٌ لى اسمُهُ فِرْقَان ، قد اصْطَنَعْتُهُ واستمَلْتُهُ ؛ فسمعتُ رَدَّهُ على أبي العباس ، وهو يقول له : « ما ينبغي لك أن تتكلَّم بهذا ! كيف يُقَدِّم للأمر غَيْرُ ابنه ، وهو مستطلعٌ بجميع الأمور ؛ وقولُكَ أَنْتَ وقولُ غَيْرِكَ باطلٌ أكْثَى ، والله ، أَرَى موتَ حَبُوس وولايةَ باديس من بعده ، وَإِنَّ يَدَّيْرَ سيتحاطق على باديس ، ويظفر به ، ويقتله ! » قال باديس : « فسرَّني * كلامه ، وأعطيتُهُ عليها ألف دينار . »

وكان الأمر بعد ذلك على ما وصف فِرْقَان . ثُمَّ إِنَّهُ اطَّيَّبَ من وجوه صِنْهَاجَة أقواماً ، ووعدهم بالإحسان ، وسعى بجهدِهِ على حلِّ تلك الصَّفَقَة ، إلى أن كلَّموا أباه في توليته . فرضى ذلك ، وأمر الناس بانصياعهم له . ١٥ وزجر يَدَّيْرَ في ملاٍّ من الناس ، وقال له : « لا تشره ما ليس لك ، يا ابن حُباسة ! » يُخاطِبُهُ بهذا اللفظ .

فوقع من ذلك في نفس يَدَّيْرَ عدواةٌ مجددة لباديس ؛ وعمل من ذلك الوقت على خلافه ومُكابرتِهِ وإِجْماعِ الجماعات عليه ، وشَتَّتْ أقواماً من صِنْهَاجَة ، حتى صاروا معه . وَوَالَى بُلْقَيْنَ شقيقَ باديس — رحمه الله — ؛ وكان من أهل البأس والنجلة ، غير أَنَّهُ لم يكن له معرفةٌ بسياسة الملك . ٢٠ ولما رأى بعضُ أصحابه موالاته لِبُلْقَيْنَ وسعْيَهُ له في ظاهر الأمر ، لامَهُ على

ذلك ، وقال له : « إن كنتَ لا تسعَى لنفسك ، ويكون من سَعْيِكَ لغيرك ما نرى »^(١) ؛ فباديسُ أحقُّ بذلك ، الذى هو الأكبر والأسعد ، وله الرياسة ! « فكان جوابه لقائل ذلك : « ليس سَعْيِي لِبُلُقَيْنٍ إِيثاراً مِنِّي له على نفسى ، غَيْرَ أَنَّهُ صَحِيحُ النِّيَّةِ ، غَيْرُ حَازِقٍ بِمَكَايِدِ الْمُلْكَةِ ؛ وهو شقيقُ الذى أَطْلُبُ ، ولن أَجِدَ لَطْلَبِهِ أَقْدَرَ على ضرِّه من أخيه ! فَإِنَّمَا أَنَا أَصِيدُهُ به ! فلو اتَّسَقَت لى الأمور ، ونَهَيْتُ قَتْلُ بَادِيسٍ على يَدَى أَخِيهِ ، كان أَمْرُ بُلُقَيْنٍ من بَعْدِهِ هَيْئًا ، وَخَلَعُهُ مُمَكِّنًا ! »

فكان أَبَدًا يَحْضُهُ على قَتْلِ أَخِيهِ ، وَيُرِيهِ السَّعْيَ له . وكان الأَخُ فى ذلك مُتَشَبِّهًا فى أَمْرِهِ مُشْفِقًا على أَخِيهِ ، إِلَى أَنْ تُوُفِيَ حَبُوسَ بن ١٠ مَا كَسَنَ - رَحِمَهُ اللَّهُ .

(١) أصل : « نرى » .

الفصل الثالث

إمارة باديس بن حبوس

(١) من أوَّلَيْتِهَا إِلَى مَوْتِ ابْنِ نَعْرَالَةَ

١٥ — أوَّلِيَّةُ إِمَارَةِ باديس بن حَبُوس
وتعاظُمُ الوزير اليهودي أبي إبراهيم

وولى الأمر من بعده جدُّنا باديس — نَصَّرَ اللهُ وَجْهَهُ — فُحَاوَلَ
أُمُوراً كِبَاراً ، وَشَقِيَ* مَعَ كُلِّ أُمَّةٍ : صِنْهَاجَةٌ يَطْلُبُونَ مَكَانَهُ مَعَ يَدَّيْرَ ، ١٢ (ب) :
وَسُلَاطِينُ الْأَنْدَلُسِ يَرْمُونَ بِلَادَهُ ؛ وَهُوَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ حَسَنُ السِّيَاسَةِ ، صَبُورٌ
عَلَى الْأَذْيَةِ .

وَكَانَ أَبُو إِبْرَاهِيمَ الْيَهُودِيُّ كَاتِبًا بَيْنَ يَدَيِ أَبِي الْعَبَّاسِ كَاتِبَ حَبُوسَ .
وَلَمَّا تَوَفَّى أَبُو الْعَبَّاسِ الْمَذْكُورَ ، وَتَرَكَ بَيْنَيْنَ ، أَقَامَ حَبُوسُ — رَحِمَهُ اللهُ —
أَكْبَرَهُمْ عِوَضًا مِنْ أَبِيهِ ، وَاسْتَعْمَلَهُ مَكَانَهُ . وَكَانَ فِي الْإِبْنِ صَبُورٌ لَا يَرْتَبِطُ
مَعَهَا إِلَى خِدْمَةِ الرِّيَاسَةِ ؛ فَفَكَّرَ بِهِ أَبُو إِبْرَاهِيمَ الْيَهُودِيُّ ، وَلَزِمَ خِدْمَةَ الرَّئِيسِ ،
وَصَارَ ، مَتَى عَابَ وَلَدُ أَبِي الْعَبَّاسِ ، يُحْضِرُ أَبُو إِبْرَاهِيمَ ؛ فَيَسْأَلُ عَنْهُ حَبُوسُ ؛
فَيَقُولُ ، مُعْتَذِرًا فِي الظَّاهِرِ وَمُطَالِبًا لَهُ فِي مَخْنَى الْقَوْلِ : « وَلَدُ أَبِي الْعَبَّاسِ ،

كما ترى ، صبيٌّ يؤثِّر الراحة ؛ وأنت جديرٌ بالإغضاء عليه وإقامةِ
عنده . وأنا عبْدُه ، أنوبُ منابَه ؛ فمرّني بما شئتُ : يَتَهِياً ذلك ! »
فلم يزل على هذا أبداً حتّى تمكَّن ، وظهرت خدمته وسعيه في
ضمِّ الأموال .

٥ وكان مع هذا قد ميّز عن باديس سعادته ودهاءه ؛ فافترض السَّعيَ
له والتَّخْدُمَ لإرادته ما دَامَ أُنْكِنَهُ ذلك ، في وقت اللّوايِنَ له والقائمين
عليه ، للذي قدَّر من أيتامه معه .

فلما اتَّفَقَ أعداؤه مع يَدَّير عليه ، شاركوا في ذلك أبا إبراهيم ،
واجتمعوا في منزله ، يرومون قتلَ باديس وإقامة يَدَّير ، وَعَدَمَ على الاجتماع
عنده . ١٠ وتقدَّم إلى باديس ، وأخبره الخبر ، وأتى معه إلى المنزل ، وقال
له : « ليس الخبر كالبيان ! اسمع بأذنك وَعِ بقلبك ! » وهو بموضع مرتفع
على البيت الذي يرومون فيه عملهم ؛ وأبو إبراهيم في ذلك كَلَّه يقول عند
محاورتهم كالمُخاطِبِ للباري : « يا مَنْ يَرَى ولا يَرَى ! » وهو يعنى بذلك
باديس جدًّا الذي يَرَاهُم ولا يَرَوْنَه . فشكر ذلك باديس* لأبي إبراهيم ، ١٣ (١)
وأيقن بثِقته وأمانته . وصار له خادماً من ذلك النّهار ؛ وشاورَه في أكثر
رأيه مع بني عمِّه .

وكان في اليهوديِّ من الكيس والمُدَاراة للناس ما طابَقَ الزمانَ الذي
كانوا فيه والقوم الذين يرومونهم . فاستعمله لذلك استيحاءاً من غيره ، ولمّا
كان يَرَى من طَلَبِ بني عمِّه له ، ولأنَّ هذا يهوديٌّ ذِمِّيٌّ ، لا تشرُه
٢٠ نفسه إلى ولاية ، ولا هو أُنْدَلُسِيٌّ ، فيَتَّقِي منه إدخالَ داخلٍ مع غير جنسه
من السلاطين ، ولاحتياجه إلى الأموال التي يطَّي بها بني عمِّه ، ويحاول بها

أَمَرَ الْمَلِكُ ، لم يكن له بُدٌّ من مثله أن يجمع له من الأموال ما يُدرك معها الآمال . ولم يكن له تَسَلُّطٌ على مُسْلِمٍ في حقٍّ ولا باطلٍ ، ولأنَّ الرعايا أَكْثَرُهُمْ بتلك البلدة ، والعَمَالُ إِنَّمَا كانوا يَهُوداً ؛ فكان يجبي منهم الأموال ويعطيه ؛ فيلقى ظالماً منهم إلى ظلمةٍ ، يأخذ منهم ما [يملأُ به] بيت المال ؛ وإقامة أود الملكة أَوْلَى به منهم .

١٦ - فشل المؤامرة التي دبرها يَدَّيرُ بن حُبَّاسة

ضدَّ باديس

فلما ولي باديس ، كَثُرَ عليه الخِلافُ والهِرجُ ، واتفقَ رأيهم على ما قدَّمنا على قتله وتولية يَدَّيرَ . وأعطى على ذلك أقواماً الثاقيل والصكوك بالإنزالات القويَّة .

- ١٠ وكانت عادة السلطان أن يخرج إلى موضعٍ يُعرف بالرملة ، ويلازيها مُنِيَّةٌ كان يحكم بها حُبُوس أبوه ؛ وكان لها بابان ، [فاتفقوا] على أن يقيموا الملقب ، ويقتلوه عند خروجه من تلك المُنِيَّة ، وهم قد تسلَّحوا بالدروع من تحت الثياب ، عازمين على الشرِّ .
- ١٥ وكان ممن ارتشَى على ذلك شيخٌ من صِنهاجة يُعرف بِفِرْقَان ، أُعْطِيَ خِصْمَانَةً مثقال وصَكًّا بقريةٍ قُولَجَر من عَمَل السَّطَح . فقال في نفسه : « لم أَجِدْ فُرْصَةً نَحْطِي بها عند باديس أُمْكِنٌ* من هذه ا » ٣ فجعل أن الفَرَسَ زَادَ به في جَرِيدِهِ ، كأنه جمع ، حتى دخل المُنِيَّة ، وألقى باديس على الخروج من ذلك الباب ؛ فقال له مختليساً : « أنتج بنفسك وأخرج من الباب الآخر ا فإنَّ المَلَأَ يَأْتَمرون بك ليقتلوك ا » وأراه الدنانيرَ ٢٠

التي أعطى على ذلك . فخرج باديس من الباب الآخر ، يحد في السير إلى قَصَبَتِهِ ؛ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، يَنْتَظِرُونَهُ .

فبينما هُمْ عَلَى ذَلِكَ ، إِذَا بِعَلِيِّ بْنِ الْقَرَوِيِّ وَأَصْحَابِهِ مِنْ وَزَرَاءِ بَادِيسِ وَثِقَاتِهِ قَدْ أَقْبَلُوا إِلَيْهِمْ ؛ قَالُوا لَهُمْ : « إِنَّ السُّلْطَانَ وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ أَنْظَارِهِ خَبْرٌ مُفْلِقٌ وَجِبَ الْإِنْصِرَافُ لَهُ ؛ فَأَعِزُّوهُ فِي تَخْلُفِهِ عَنْكُمْ أَوْ مَعَ هَذَا ، فَإِنَّهُ لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ شَيْءٌ » . فَلَمَّا سَمِعَ الْقَوْمُ بِذَلِكَ ، فَكَلُّوا مَنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ خَبْرٌ هَرَبَ عَلَى الْمَقَامِ ، وَهَرَبَ يَذِيرُ بْنُ حُبَّاسَةَ ، لَا يَلْتَفِتُونَ عَلَى شَيْءٍ ، يَطْلُبُونَ النِّجَاةَ بِمَهْجِهِمْ .

ثُمَّ انْتَضَحَتْ الْقَضَايَا كُلُّهَا لِبَادِيسٍ مِنْ بَعْدِ هُرُوبِهِ ؛ وَمَشَى إِلَيْهِ بِالنَّصَاحِ كَثِيرٌ مِنْ بَنِيهِ قَبْلَ ذَلِكَ . وَطَلَعَ إِلَيْهِ أَخُوهُ بُلْقَيْنُ ، وَبَكَى بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَسَأَلَهُ التَّغْوَى عَمَّا أَدْخَلَهُ فِيهِ الْفَاسِقُ ابْنُ عَمِّهِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ بِهِ أَبَدًا يَوْمَ ذَلِكَ مِنْهُ لَوْلَا تَلَبُّهُ وَشَفَقَتُهُ عَلَيْهِ . وَإِنْ يَذِيرُ خَرَجَ عَنِ الْبَلَدَةِ ، وَصَارَ فِي حَيْزِ الْأَعْدَاءِ ؛ وَكُلُّ رَئِيسٍ قَدْ انْتَدَبَ إِلَى رِفْتِنَةِ جَدُّنَا — رَحِمَهُ اللَّهُ — يَنْحَازُ هُوَ إِلَيْهِ ، وَيَصِيرُ مِنْ أَعْوَانِهِ وَعَلَى أَعْنَادِهِ ، يَدُلُّ بِهِمُ الْبَلَدَ ، وَيُزِيلُهُمُ ١٠ الْمَخَادِيعَ ، وَيَكْشِفُ لَهُمْ مِنْ عَوْرَاتِ الْجِهَةِ مَا خَفِيَ عَنْهُمْ ، لَا يَفْتَرُ بِالضَرْبِ عَلَيْهِ وَتَهْتِكُ بِلَادَهُ ؛ وَجَدُّنَا فِي هَذَا لَا يَأْوِي مَعَهُ إِلَى رَاحَةٍ ، وَلَا يَقْرُءُ بِهِ قَرَارًا .

وَصِنْهَاجَةٌ مَعَ هَذَا يَخَاطِبُونَهُ ، حَتَّى إِذَا وَقَعَتْ يَدُ السُّلْطَانِ بَادِيسَ — رَحِمَهُ اللَّهُ — كُتِبَ كَثِيرَةٌ مِنْ عِنْدِ صِنْهَاجَةٍ إِلَى يَذِيرُ ، تَضَمَّتْ أَزِيدَ مِنْ

٢٠ مَائَتِي رَجُلٍ* مِنَ الْأَكْبَرِ . فَغَضِبَ لَذَلِكَ ، وَهُمْ يَقْتُلُهُمْ . وَشَاوَرَ أَبَا إِبْرَاهِيمَ ١٤ (١) فِي الْأَمْرِ ؛ فَقَالَ لَهُ : « أَرَى مِنَ الرَّأْيِ إِلَّا تَوَنَّبَ أَحَدًا عَلَى هَذِهِ

الكتب ، ولا تعلمهم أنها صارت إليك ، وأن تأمر الآن بنار تحرقها بها وتطفى أثرها ؛ ورأس العقل مُدارةُ الناس . فإن عاقبت ، كم عسى [أن] تُعاقب ، وهم أجنادك وأجنحتك ! فاحتلّ للأمر بغير هذا الوجه ! « فقبل نصيحته ، واستعان ببعضهم على بعض ، وأفشى فيهم العطايا ؛ وضرب الابن بأبيه والأخ بأخيه .

فكان دأبُ يذير هكذا أبداً ، لا يقرُّ عن الضرب على بلاده ومعاودة ذلك بلا سامة ولا فترة ، إلى أن أظفره الله به وصار في ثقافته . ودكر أنه مات مقروعا حتف أنفه . وتأتت الأمور لباديس من بعده ، وصفا له الجوّ .

١٧ - انتصار باديس على زهير صاحب المرية

وأول فتح أفاء الله عليه هزيمته لزهير الخصي والى المرية . وكان له كاتب ، يُعرف بولد عباس ، من أشدّ الناس حاقةً واستخفافاً ، مُبشراً للشر ، مؤرّشاً بين الملوك ؛ وكان الغالب على أمر زهير ، إذ لم يكن زهير يصلح لشئ لعباوته وجَهْلُه . وكان قد جمع كلّ خصي بالأندلس واحتفل ؛ فبالغ . وأدركه الطمع في غرناطة ، لِمَا بلغه من موت حبّوس بن ماكنس . فأتى حتى نزل على مقربة منها ، بموضع يُعرف بالقنوت ، محترقاً لمن ولي غرناطة ، يزعم أنهم أصاغروا وأمرهم بخنث بعد حبّوس ، لِمَا أراد الله من هلاكه وهلاك جنسيّيه الخصيان .

وكان جدُّنا باديس — رحمه الله — قد رأى عند ذلك رؤيا أن الحوَر بغرناطة قد سقط إلى الأرض جميعه ؛ فهالهُ ذلك ، وخشى أن تكون الواقعة عليه ؛ فأرسل في المُعَبَّر وقصَّ عليه . فقال له المُعَبَّر : « أبشّر بهذه

الرُّؤْيَا ! إِنَّ الْحَوْرَ شَبِيهٌ بِالْخَصِيَانِ ، الَّذِي * لَا طَعْمَ لَهُ ، وَلَا أَصْلَ يَتَوَرَّكُ ١٤ (ب)
عليه ؛ وَهُمْ بِهِنَا الْمَرْتَبَةِ . وَلَا شَكَّ فِي سَقُوطِهِمْ وَبَوَارِهِمْ عَلَى يَدَيْكَ !
فَكَانَ ذَلِكَ .

وَقَدَّمَ عَلَى السَّاكِرِ أَخَاهُ بُلْقَيْنَ ؛ وَكَانَ مِنْ أَشْجَعِ النَّاسِ ؛ وَكَانَ
٥ باديس ، عِنْدَ مَوْتِ أَبِيهِ ، قَدْ اخْتَصَّهُ بِكُلِّ مَا شَاءَ وَفَضَّلَهُ فِي الْمِيرَاثِ عَلَى
نَفْسِهِ إِلَّا النَّاصَ الَّذِي تَحْتَاجُهُ الْمَمْلُوكَةُ . فَلَقِيَ الْعَسْكَرَ لِلرَّدُولِ ؛ فَلَمْ تَكُنْ
إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ حَتَّى انْهَزَمَ وَقُتِلَ جَمِيعُ مَنْ كَانَ فِيهِ مِنَ الْخَصِيَانِ ،
وَنَحَى زُهَيْرٌ عَنِ الْعَسْكَرِ ؛ فَلَمْ يَوْجَدْ حَيًّا وَلَا مَيِّتًا . وَكَانَتْ تِلْكَ أَوَّلَ
سَعَادَةِ بَادِيسَ ، كَمَا كَانَتْ هَزِيمَةُ الْمُرْتَضَى أَوَّلَ سَعَادَةِ أَبِيهِ ، ثُمَّ افْتَتَحَ
١٠ الْبِلَادَ ، وَصَارَتْ إِلَيْهِ الْأَنْظَارُ الَّتِي تَلِي الْمَرِيَّةَ . وَظَفَرَ بَعْدُوهُ كَاتِبَ زُهَيْرَ ،
وَأَمَرَ بِقَتْلِهِ مَتَأَوَّلًا لِإِثَارَتِهِ الْفِتْنَةَ ، وَنَهَمَ عَلَيْهِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً قَبْلَ ذَلِكَ ، مِنْ
أَقَاوِيلَ خَشْنَةٍ وَمُعَامَلَاتٍ قَبِيحَةٍ عَرَفَهُ بِهَا .

وَقَرَّ مُلْكُ بَادِيسَ جَدًّا قَرَارَهُ ، وَطَارَ لَهُ الذِّكْرُ . وَكَانَتْ لَهُ مِنَ الْهَيْبَةِ
فِي النَّاسِ أَنْ لَمْ يَجْتَرِئْ عَلَيْهِ أَحَدٌ بَعْدَ تِلْكَ الْقَضِيَّةِ .

١٥ ثُمَّ إِنَّ بُلْقَيْنَ أَخَاهُ لَمْ يَلْبَثْ بَعْدَ تِلْكَ الْوَقِيعَةِ إِلَّا بَسِيرًا حَتَّى مَاتَ
— رَحِمَهُ اللَّهُ — . وَكَبُرَتْ سَنُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ فِي حَالِ الْخِدَاثَةِ ، وَهُوَ أَبُوْنَا .
وَتَرَكَ عَمَّهُ بُلْقَيْنَ ابْنًا كَانَ يَنَافِئُهُ وَيَخْشَى مِنْهُ ضَرًّا كَثِيرًا ، وَيَتَوَقَّعُ عَلَى نَفْسِهِ
مِنَ الْمَطَالِبَاتِ بِنَاكَ الْأَخْبَارِ ؛ فَخَرَجَ عَنِ الْبِلَادِ بِجَمِيعِ مَالِهِ وَتَرَكَ أَبِيهِ ،
لَمْ يَعْتَرِضْ لَهُ شَيْءٌ .

١٨ - شخصية الأمير بُلقين سيف الدولة والد المؤلف

ولم يكن للمظفر جدًّا غير بُلقين أبينا - رحمهم الله - . وكان رفيقًا به ، مشفقًا عليه ، حذرًا من أعدائه وبنى عمه أن يُبلغوه من بعده بما بُولغَ هو به بعد وفاة أبيه ؛ فكان لا يحسُّ من أحدٍ داخلَةً ولا نفاقًا إلا ونظر فيه بما يوافق أمره من إخالٍ أو نقيٍّ أو أخذٍ مالٍ ، ثلثًا يبقى لابنه من يَناوئِهِ ويَذِلُّهُ .

وكان سيف الدولة حليماً* رفيقًا ، ضدَّ أبيه في كلِّ حال ؛ فإنَّه لم يجربْ ١٥ من الأمر ، ولا ابتليَ بما ابتليَ هو به . وكان يعدُّ الناسَ بالجيل ، ويقول لهم : « أنا أنسيكم طريقة أبي ا » ومن استوجب من أبيه القتل أو أذنى ضررٍ ، كان هو الذي يعنى بأمره ، ويتشفع فيه عند الأب ، حتَّى يتخلَّصه . ١٠ فأجمع الناس على محبَّته خاصَّةً وعامَّةً للذي يرون من مكارمِهِ ، مع تمكين أبيه له ويسطِرَّ يده على الأموال .

١٩ - نشاط يوسف بن نَعْرَالَةَ اليهوديِّ ومؤامراته

وكان في زمانه للمظفر أبيه وَزيرانِ ابنا القروى : أَحَدُهُما على* ، والآخر عبد الله ، ممَّنْ نشأ معه ؛ وكانا حَضِيرِيَّةً في المكتب ؛ وكانا قائدَي المسكر؛ ١٥ واليهما كان يرجع الرأى في أمور القن^(١) . وكان أبو إبراهيم الشيخ مؤذِنًا لهما ، مستعينًا بهما .

(١) أصل : « الفتن » .

- فلما توفي أبو إبراهيم، وترك ابنه وزيراً جدُّنا، ورث لأبيه أموالاً كثيرة، ووصاهُ بأن يسعى في طلب الوزراء عند استقامة الدولة للرئيس، وعرض عليه الأبواب التي منها يكون حَتَفٌ كل واحد منهم، لِمَا كان بأيديهم من البلاد واستثثارهم بالجابيات. فجعل الخنزير نفسه لذلك. وكان المُظَفَّر — رحمه الله — لا يقبل منه مُطالِبَةٌ لمُسْلِمٍ، ولا عَرْضُهُ لذلك، غير أَنَّهُ كَانَ يَتَلَطَّفُ بِالْأَمْوَالِ، ويعطى لِقَاتِهِ وَعِيْدِهِ مَا يَجْعَلُهُمْ فِي الْمُطالِبَةِ عَلَى هَوَاهُ، وهو ساكتٌ، لا يَتَكَلَّمُ بِشَيْءٍ مِثْلَ أَنْ يَكْدُسَ فِي طَلَبِ أَحَدٍ عَلَى يَدَيْ مُوَقِّقِ الْخَصِيِّ صَاحِبِ الدِّينَةِ مِنْ ثِقَاتِ بَادِيسٍ؛ وَكَانَ مُتَنَصِّباً لِهَذِهِ الْمَشَايِخِ؛ فَيَأْتِي مُوَقِّقُ الذِّكْرِ بِنَصِيحَةٍ إِلَى السُّلْطَانِ مِمَّنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ؛ فَيُرْسَلُ فِي الْيَهُودِيَّةِ وَيُقَالُ لَهُ: «بَلِّغْنِي أَمْرًا كَذَا وَكَذَا». فَيُرِيهِ الْيَهُودِيَّةَ التَّبَرُّؤَ^(١) مِنْ ذَلِكَ بِأَنْ يَقُولَ لَهُ: «كُلُّ مَا قُلْتُ إِلَيْكَ كَذِبٌ» فَتَثْبُتُ^(٢) أَوْ يَقُولُ لَهُ الرَّئِيسُ: ١٥ (ب) «أَخْبَرَنِي مَنْ لَا شَكَّ عِنْدِي فِي نَصِيحَتِهِ أَوْ فَكَانَ آخِرُ مَا يَقُولُ لَهُ: «مَا قَطَعُ الشَّرَّ إِلَّا سِيَاسَةً أَوْ كَانَ لِمُبَاهَاتِهِ وَمَخَرَجِهِ، يُرَى النَّاسُ أَنَّهُ يَقْدِرُ؛ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْهُ، إِلَّا عَنْ تَحِيُّلٍ وَمَكْرِ.
- فلما توفي أبو إبراهيم الشيخ، وكان ابنه في سنِّ الصَّبَا، كَرِهَ تَوَلِيَّتَهُ ١٥ جَدُّنا، وَقَالَ لِعَلَى الْمَذْكُورِ: «الْتَزِمْ خِدْمَةَ الْمَمْلُوكَةِ؛ فَأَنْتَ أَحَقُّ بِهَا أَوْ فَأَبَى ذَلِكَ عَلَى. وَاطْبَاهُ وَلَدُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ بِالْأَمْوَالِ الْجَسِيَةِ، وَقَالَ: «لَيْسَ أَرْغَبُ إِلَّا أَنْ أَكُونَ عَبْدَكَ وَتَرْيِّتَكَ؛ وَلَكِ الْأَمْرُ؛ وَأَنَا كَاتِبٌ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَأَقُومُ بِتَقَاتِكَ كُلِّهَا، وَلَوْ كَانَ أَهْلُكَ عَدَدَ الْخَصِيِّ أَوْ فَطَمَحَ ٢٠ عَلَى فِي قَوْلِهِ، وَكَلَّمَ السُّلْطَانِ فِي ذَلِكَ، وَقَالَ لَهُ: «إِنْ أَقْبَيْتَ عَلَيَّ وَلَدَ

(١) أصل: «التبرؤ».

أبى إبراهيم ناصحك ، فأنا أرجو ذلك لو لَدَى من بعدى ؛ وأنا المُشْرِفُ عليه . « ففعل السلطان ما قال ، وقَدَّمه على العُمَال والجبايات . وكان يعطى لعلّ صدرًا من دولته إلى أن كَبُرَتْ سنُهُ .

وأظهر [ولَدَ أبى إبراهيم] للسلطان نصائحَ كثيرةَ حِطَى بها عنده ؛ وَتَبَرَّمَكَ على علىّ وغيره ، واستوثق من جانب الرئيس ما لم يَسْأَلْ به عن علىّ ولا عن أحدٍ من خلق الله . وكان فيما قال له : « إنَّ الذى يأخذ علىّ أَنْتَ أُوْتِىَ به ؛ والرجلُ كثيرُ الأولاد والضنَف ، ويذهب مَالُكَ إن لم تَحْمِنِ وتمضنى . وهو متى تَمَلَّأ ، طَمِعَ فى مُلْكِكَ ! وأنا رجلٌ ذِمِّىْ لا هَمَّةَ لى إلَّا خِدْمَتُكَ وَجَمْعُ الدِراهِم لبيت مالِكَ ! » فوَتَّقَ الرئيس بقوله ، وقاس عليه بقله ، ومنع منه عليًّا وجميعَ الناس . ولما رأى علىّ تأخُّرَهُ وتَقَدُّمَ اليهودى ، ندم على ما كان منه أوَّلًا ، وفاتَهُ من الأمر ما لم يقدر معه على حيلة عند السلطان ؛ وعَاظَهُ ذلك وأَكْرَبَهُ .

وكانت مَدِينَةُ وادى آش* بِيَدِهِ ، قد قَدَّمَ عليها أخاه عبدَ الله ؛ وكان (١) ١٦
يأْكُلُهَا طَعْمَةً ، ولا يعطى منها فوق خمسة عشر ألف دينار دَرَاهِم ، وهى ١٥
تُسَاوِى أزيدَ من مائة ألف دينار ثُلُثِيَّة . فدخل عليه اليهودى بهذه المَطالِبَة وقال للسلطان : « اقْبِضْ وادى آش من عنده ، ولك مَنى فيها أزيد من مائة ألف ! » فقال له : « لستُ أقدر على أخذها منه بهذا الوجه ؛ فتكون مفاَسدةً ، وهم متصرفون فى خِدْمَتِهَا . فوجد اليهودى السبيلَ إلى حيلة فى نزعها باسمِ سيف الدولة أَيْنَا ، وقال : « لَأَخْذَنَّ البلدة من يد عدوِّ ، فأضَعُهَا فى يد سلطان يشكرنى عليها ، ويرى لى ذلك عن تَخْذُم ونصيحة ! » ٢٠
فقال لأبى : « إِنْهُ يَلْزِمُنِي طَاعَتُكَ وَنَصِيحَتُكَ لَأَكُونَ لك كالنِّى أَنَا لَأَبِيكَ ؛

وأراك كثير الذرية ، تلزمك نفقات وتجمل الرئاسة ؛ ومن الغبن أن يكون وزيره والدك أغنى منك ! وهذه وادي آش ، بنت غرناطة ، لا تجمل إلا لك ، وأنا أثمرها وأجعلك تأخذ فيها مائة ألف ا » ففرح لقوله والدي — رحمه الله — ، وشكر له رأيه ، ووعده بالزيادة في مرتبته إن صار الأمر إليه .

٥ ثم مضى إلى الولد ؛ فأخبره الخبر ، وقص عليه أمر ابنه ؛ فقال له المظفر : « الآن وجب أخذها من أولاد القروى . » فأرسل على القلم في علي وقال له : « إن ابني محتاج إلى المال ، وطلب مني وادي آش . ولو كنت آخذها منك ومعطيتها لقرينك ، لعز عليك ا ولكن يجب لك أن تتسرع بها لابني . » فلم يكن جواب علي إلا أن قال له : « ما صلح للقوى على العبد حرام ا » فضمها اليهودي خادماً لأبي فيها ، وشرط عليه أن يعطيه رتمها في أنجم العام ؛ واتفقا على ذلك * . وصارت اللوذة متمكنة بين الابن ١٦ (ب) والوزير مدة طويلة .

٢٠ — موت الأمير بلقين مسموماً

فلما رأى وزراء الدولة وعلي وأخوه تمكن اليهودي عند السلطان وعند الابن ، أغاظهم ذلك وأقلقهم ، وبلغ منهم كل مبلغ . وأجمع رأيهم على الدخول بينه وبين أينا . وكان أولاد علي وعبد الله وزراء لسيف الدولة ونُدماء ، لا يفارقونه . فعلموا عليه من كل وجه بأنفسهم ومع بنهم ، وقالوا لسيف الدولة : « إن الأموال التي ينعم اليهودي ويستأثر بها ، أنت أحق بها وأولى . وقد أهلك وأخل الدولة أجمع ! ولو أنك قتلتها ، لم يقل لك أبوك في ذلك شيئاً ا وما عسى أن يصنع بابنه ؟ » أرادوا — الفسفة —

٢٠

- قَتَلَ عَدُوَّهُمْ عَلَى يَدَى ابْنِ الرَّئِيسِ ، لِيُخْرِجُوا أَيْدِيَهُمْ مِنَ الْمَسْأَلَةِ : فَإِنْ عَاقَبَ ، عَاقَبَ ابْنَهُ ، إِنْ شَاءَ ، وَحَصَّلُوا عَلَى الدَّوْلَةِ دُونَ مَلَامَةِ مِنَ السُّلْطَانِ . فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ أَبَدًا ، يَنْمُونُ بِالْيَهُودِيِّ ، وَيَكْذِبُونَ عَلَيْهِ ، وَيَعْمُضُونَ^(١) إِلَى الْيَهُودِيِّ بِالْكَذْبِ عَلَى لِسَانِهِ ، حَتَّى تَغَيَّرَ أُبُونَا عَلَيْهِ وَتَغَيَّرَتْ لَهُ نَفْسُ الْيَهُودِيِّ ، مَعَ قَلَّةِ تِجَارِبِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ لِمُكَايِدِ النَّاسِ . فَعَمِلَ عَلَى قَتْلِهِ ؛ وَكَانَ يَتَحَدَّثُ بِذَلِكَ ، وَيَفْشِي سِرَّهُ إِلَى الْوُزَرَاءِ الرَّافِضِينَ إِلَيْهِ ؛ فَلَا هُوَ يَزِمُ عَلَى قَتْلِهِ ، وَلَا هُوَ يَتَكَبَّرُ بِالْأَمْرِ ، إِلَى أَنْ صَحَّ ذَلِكَ عِنْدَ الْيَهُودِيِّ ، وَاعْتَزَمَ رَأْيَهُ عَلَى أَنْ يَسْبِقَهُ بِالْأَمْرِ ، وَرَأَى عَيَانًا تَغْيِيرَهُ عَلَيْهِ . وَكَانَ أُبُونَا ، لَمَّا هُمْ بِقَتْلِهِ ، وَأَعَدَّ لَذَلِكَ عَيْدَهُ ، فَكَّرَ فِي سَطْوَةِ أَبِيهِ ؛ فَكَفَّ .
- ١٠ وَكَانَ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ أَخٌ صَغِيرٌ اِسْمُهُ مَا كَسَنَ ، عُثْنَا الشَّهِيدُ فِي وَاقِعَةِ بَطْلَيْوُسَ . فَعَمِلَ الْخَنْزِيرُ رَأْيَهُ مَعَ مَشِيخَةِ الْيَهُودِ ، * وَأَخْبَرَهُمْ بِتَغْيِيرِ سَيْفِ ١٧ الدَّوْلَةِ عَلَيْهِ ؛ فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ وَأَدَهَاهُمْ رَأْيًا : « لَا تَطْمَعُ فِي الْفَلَاحِ بَعْدَ الشَّيْخِ ، وَلَا فِي سَيْفِ الدَّوْلَةِ ! وَلَكِنْ انْظُرْ لِنَفْسِكَ فِيمَنْ يُقِيمُ إِنْ مَاتَ رَئِيسُكَ : أَوْجَدْتَهُ ؟ وَتَحْيَلْ فِي سَقَى سَيْفِ الدَّوْلَةِ . وَهَذَا مَا كَسَنَ أَخُوهُ ١٥ مَخُولٌ : فَإِنْ قَتَلْتَ أَنْتَ هَذَا ، وَوَلَّيْتَ هَذَا ، قَدَّمْتَ عِنْدَهُ يَدًا لَا يَنْسَاكَ عَلَيْهَا . »
- فَسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ سَعْيَهُ . وَكَانَ مَتَمَكِّنًا بِذَلِكَ ، لِأَنَّ أَبَانَا كَانَ كَثِيرَ الشَّرْبِ مَعَهُ وَالتَّكْرَارِ عَلَيْهِ فِي مَنْزِلِهِ . فَشَرِبَ يَوْمًا عِنْدَهُ عَلَى عَادَتِهِ ؛ فَلَمْ يَخْرُجْ عَنْهُ حَتَّى قَذَفَ مَا كَانَ فِي جَوْفِهِ ، وَاسْتَلْقَى عَلَى الْأَرْضِ ؛ فَلَمْ يَسْتَطِعْ الْمَشْيَ إِلَى مَنْزِلِهِ إِلَّا عَنْ مَشَقَّةٍ ؛ وَلَبِثَ يَوْمَيْنِ يَجُودُ بِنَفْسِهِ ، حَتَّى مَاتَ — رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ . ٢٠

(١) أَصْلُ : « وَيَعْمُضُوا » .

ولقد سمعتُ كبيراً من خِصيان باديس يقول : « أُرْسِلَ في سَيْفِ الدولة يوماً وقال لي : « انهضْ إلى أُمَّهَاتِي وَقُلْ لَهُنَّ^(١) إِنِّي اعْتَزَمْتُ عَلَى قَتْلِ الْيَهُودِيِّ . » يقول الْخَصِيُّ : « قُلْتُ لَهُ : « أَنَا لَا أَمْضِي بِهَذِهِ الرِّسَالَةَ ! فَإِنَّ الْخَبَرَ لَا تَحَالَةَ عِنْدَهُ ! لَوْ أَنَّكَ تَرِيدُ قَتْلَهُ ، مَا كَانَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تُسَمِّعَنِي ذَلِكَ وَلَا أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ! » فَعَلْتُ أَنْ حَالَهُ تَوَلَّى إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ . »

ومما أَطَانَ عَلَى الْفَسَادِ قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّ أَبَاكَ كَانَ مَعَ أُمَّهَاتِهِ ، اللَّائِي رَبَّيْنِ وَلَدَهُ الْمُعِزَّ أَخَانَا ، عَلَى ضِدِّهِ مِنَ الْأَمْنِ ، لِإِفْرَاقِهِنَّ لِلْمَالِ عَلَى ابْنِهِ طِفْلاً صَغِيراً وَمُنْعِدٍ هُوَ مِنْهُ . فَاحْتِاجَ إِلَى الْيَهُودِيِّ عَنِ الْمَالِ . وَكَانَ أُمَّهَاتُهُ يُطَالِبْنَهُ وَيَمْنَعْنَهُ عَنْ حَبَّةِ الْيَهُودِيِّ ، حَتَّى شَعَرَا بِذَلِكَ ؛ وَاتَّفَقَ رَأْيُهُمَا عَلَى مُطَالَبَةِ النِّسَاءِ عِنْدَ الرَّئِيسِ ، وَتَجَرِيحِهِنَّ بِسَرَقَةِ الْمَالِ وَإِرْسَالِهِ إِلَى الْبِلَادِ . فَلَمَّا وَقَفَ جَدُّنَا عَلَى الْمَقَالَةِ ، وَقَدْ وَقَعَتِ الْمَفَاسِدَةُ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ ابْنِهِنَّ ، صَارَ مَكْلُومًا* مِنَ الْأَبِّ وَالنِّسَاءِ . وَتَحَيَّلَ النِّسَاءُ عَلَى أَنْ يَرَّأْنَ^(٢) أَنْفُسَهُنَّ مَتَّاقِدِينَ^{١٧} (ب) بِهِ ؛ وَدَعَتِ الضَّرُورَةُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ أَنْ يَتَصَالَحَ مَعَ النِّسَاءِ لِرَجُوعِ أَبِيهِ مَعَهُنَّ ؛ وَرُدَّتِ الْقِصَّةُ فِي رَأْسِ الْيَهُودِيِّ . فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا زَادَهُ غَائِلَةً وَفُورًا ، وَجَرَى عَلَى يَدَيْهِ مَا قَدَّرَ اللَّهُ بِهِ لِنِهَاةِ الْمُدَّةِ .

وَكَانَ فِي أَوَّلِ الْمَفَاسِدَةِ قَدْ احْتَبَسَ لَهُ بِكَثِيرٍ مِنْ جَبَايَةِ وَادِي آش ؛ وَشَكَاهُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ لِأَبِيهِ . فَتَحَيَّلَ الْخَزِيرُ عَلَى أَنْ دَعَا أَبَاكَ إِلَى مَنْزِلِهِ لِشَرَابٍ ، حَتَّى سَكَرَ ؛ وَأَمَرَ بِخُرُوجِ بَنِيهِ وَعِيَالِهِ فِي ثِيَابِ الْحَزَنِ . فَهَلَالَ^{٢٠} ذَلِكَ أَبَاكَ لِمَا رَأَى مِنْ حَالِهِمْ وَبِكَاؤِهِمْ ، إِلَى أَنْ قَالَ لَهُ : « هَلْ مَاتَ عِنْدَكَ

(١) أصل : « لم » . (٢) أصل : « برين » .

أَحَدُهُ ؟ » فقال له : « مات عندى مالٌ كبيرٌ لا يمتسك عنك إلا بمَظْلَرِ
الرعيّة ! وهذا يومٌ طيّبٌ : فَأَنْسُ أَهْلِي بِكُتُبِ بَرَاءَةٍ تَبَرِّتُنِي بِهَا إِلَى أَنْ
يَرِدَكَ مَالُكَ ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ وَجَسَتْ نَفُوسُهُمْ وَفَزَعُوا . فَأَتَيْمُ إِحْسَانَكَ بِكُتُبِ
البراءة ! » فَأَفْتَرَصَهُ فِيهَا ، وَكَتَبَهَا ؛ ثُمَّ ذَهَبَ بِهَا إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ لَهُ :
« إِنَّمَا يَنْفِقُ مَالَهُ عَلَى الْوُزَرَاءِ وَالشَّرَابِ الْمُدْمِنِ ! وَهَذَا إِبْرَؤُهُ لِي :
فَأَيْنَ شَكْوَاهُ ؟ » فَرَجَعَ مُلُومًا مِنَ الْأَبِّ زَائِدًا ، وَصَارَ فِي خُسَارَةٍ مَعَ
الْوَزِيرِ وَالنِّسَاءِ ، لِمَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ تَمَامِ الْمُدَّةِ . وَاللَّهُ يَنْفَعُهُ بِجَمِيلِ نَيْتِهِ وَصَفَاةِ
مَذْهَبِهِ لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ !

٢١ — ما بلغ ابن نَعْرَالَةَ مِنَ الْمَكَانِ الْأَرْفَعِ

- ١٠ فلما تَوَفَّى أَبُونَا ، وَكَانَتْ مِنْ أَكْبَرِ الرِّزَايَا لِلنَّاسِ ، لِمَا كَانُوا يَرْجُونَهُ
مِنَ الْعَدْلِ عَلَى يَدَيْهِ ، هَاجَ النَّاسُ بِأَمْرِهِ ، وَهَمُّوا بِقَتْلِ الْيَهُودِيِّ . وَكَانَتْ
تِلْكَ مَقْدَمَاتٌ لِهَلَاكِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَقَّعُونَ مَعَاذَةَ الرَّئِيسِ . وَزَادَ فِي
طَلْبِهِ لِأَوْلَادِ الْقَرَوِيِّ ، وَصَوَّرَ عِنْدَ الْمُظَلَّمِ أَنَّ بَنِيهِ زَيْنُوا لِابْنِهِ الْإِمَامَانَ
عَلَى الْخُرِّ حَتَّى هَلَكَ . وَأَدْرَكَتْ لِتِلْكَ أَوْلَادَ الْقَرَوِيِّ مَنَحَةُ عَظِيمَةٌ مِنْ
١٥ نَفْسِهِمْ عَنْ أَوْطَانِهِمْ ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ ، وَقَتَلَ بَعْضَ الْوُزَرَاءِ* الَّذِينَ كَانُوا ١٨ (١) .
حَوَالِي أَيْنَا لِمَا أَتَاهُمَا بِهِ ؛ وَجَانِيَ الْقَضِيَّةَ لَا يُوبَهُ لَهُ . وَتَبَرَّمَكَ الْيَهُودِيُّ
بَعْدَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، وَسَعَى فِي إِقَامَةِ مَا كَسَنَ عَمَّنَا .
وَكَبُرَتْ عِنْدَ ذَلِكَ سَنٌ جَدُّنَا ، وَأَخْلَدَ إِلَى الرَّاحَةِ ، وَزَهَدَ فِي طَلَبِ
الْبِلَادِ لِكِبَرِ سَنِهِ وَمَوْتِ ابْنِهِ ، وَأَلْقَى بِمَقَالِيدِهِ إِلَى الْيَهُودِيِّ فِي الْخِدْمَةِ عَنْهُ ؛
٢٠ فَتَمَكَّنَ بِمَا شَاءَ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّفْيِ .

٢٢ - استيلاء باديس على مالقة

وإِذَا كَانَ طَلَبُ جَدِّنَا أَكْثَرَهُ وَسَعْيُهُ عَلَى اخْتِذِ مَالِقَةَ ؛ فَإِنَّهُ ، مَتَى كَانَ يَأْخُذُ شَيْئًا مِنْ مَعَاوِلِ الْأَنْدَلُسِ ، يَبْلُغُهُ مِنَ الْمُعِزِّ بْنِ بَادِيسٍ أَنَّهُ يَقُولُ : « يَخَاطِبُنِي صَاحِبُ غِرْنَاطَةَ بِأَخْذِ الْكُورِ وَالْقُرَى ! أَمَا أَنَّهُ لَوْ أَخَذَ مِثْلَ قُرْطُبَةَ وَمَالِقَةَ وَمَا أَشْبَهَهُمَا مِنَ الْقَوَاعِدِ ، كُنَّا نَبَايِعُ لَهُ فِي ذَلِكَ ! »^٥ فَعَمَلُهُ كَلَامُهُ يَجِدُّ فِي خَيْرِ مَالِقَةَ ، وَلِلَّذِي كَانَ يَرَى مِنْ انْدِبَارِ سُلَاطِينِهَا ، وَتَوَقُّعِهِ عَلَى أَنْ يَأْخُذَ الْبَلَدَ مَنْ يُدْخِلُ عَلَيْهِ الْخَاطِلَةَ مِنْهَا . فَلَمْ يَزَلْ يَمَاقِدُهَا سِنِينَ^(١) بِلَا سَامَةِ وَلَا فِتْرَةٍ ، حَتَّى حَصَلَ عَلَيْهَا .

وَبَنَى قَصَبَتَهَا بِنْيَانًا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مِثْلِهِ أَحَدٌ فِي زَمَانِهِ ، وَأَعَدَّهَا عُدَّةً لِلْمُهَيِّمَاتِ ، وَجَعَلَ فِيهَا جَمِيعَ مَا وَرِثَ لَابَنُهُ ، وَزَادَ عَلَيْهِ ؛ وَكَانَ الَّذِي يَتَوَقَّعُ مِنْ كَلْبِ سُلَاطِينِ الْأَنْدَلُسِ وَاتِّفَاقِهِمْ عَلَيْهِ لِنَاكِ أَنْ يَتَحَصَّنَ فِيهَا مَا اسْتَطَاعَ ، وَإِلَّا ، فَيَجُوزُ مِنْهَا إِلَى عِدُوِّهِ بَنَى عَمَّهُ بِأَهْلِهِ وَذَخَائِرِهِ وَمُذْ أَخَذَهَا ، حَلَّ عَنْ نَفْسِهِ .

وَنَازَعَهُ عَلَيْهَا ابْنُ عَبَّادٍ ، وَأَطَاعَهُ أَهْلُهَا دُونَ الْقَصَبَةِ ؛ فَوَجَّهَ إِلَيْهَا عَسَاكِرَهُ ، وَهَزَمَهُ عَلَيْهَا . وَرَجَعَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ الْيَأْسِ مِنْهَا . وَلَمْ يُبْلَقِ سُلْطَانُ عَلَى مَدِينَةِ مَالَاقِي هُوَ عَلَى مَالِقَةَ مِنْ طُولِ الْفِتَنِ وَنَفَقَةِ الْأَمْوَالِ . فَلَمَّا بَلَغَ مِنْهَا الْغَايَةَ مِنْ آمَالِهِ ، حَلَّ عَلَى نَفْسِهِ ، وَتَمَتَّعَ بِمُلْكِهِ . وَمِنْ ذَلِكَ دَخَلَتْ عَلَيْهِ الدَّوَاخِلُ بِاسْتِنَامَتِهِ إِلَى الْوُزَرَاءِ وَوِلَاةِ الْبِلَادِ ، عَلَى حَسَبِ مَا قُصِّصَتْ بَعْدَ هَذَا .

(١) أصل : « سِنِيًا » .

ولولا ما كان غَرَضُنَا وَصَفَ دولتنا خاصَّةً ، لَدَكَّرْنَا لَمَّا من دُولِ بَنِي
 كَمُود في مَالَقَةٍ ، واختلالِ أَمْرِهِ* وإِحْدَا بعد واحد ، حتى تَصَيَّرَ الأَمْرُ إلى جَدُّنَا ١٨ (ب)
 — رحمه الله — ؛ لكن تقتصر على ذِكْرِ ما نحتاج إلى إِرَادِهِ إن شاء الله .
 قَهْدَنْتُ الحَال ، وتَأَتَتْ السَّعَادَات ، وامتَلَأَتْ بيوتُ الأَمْوَالِ سِنِينَ^(١)
 ٥ لا يُسْمَعُ فيها بَغْتَةً ، ولا يُرَى معها تَشْيِيبٌ ، إلى أن اخْتَلَّتْ الأحوال
 بعد ذلك بما كان من نفاق اليهوديِّ — لعنه الله — ، وَتَصَيَّرَ وادى آسٍ
 وجميع أنظارها لابن صُمَادِح ، واستنَّسَادِ الرُّؤَسَاءِ على البلاد ، حتَّى إنَّهُ
 لم يَبْقَ لنا أَكْثَرُ من غِرْنَاظَةٍ وَالْمَنْكَبِ وبَاغُهُ وَقَبْرَةٍ . ولما شاع عند
 الرعايا خبر موت الرئيس الأَجَلِّ — فَإِنَّهُ كان مُتَحَبِّبًا أَبَدًا — خَلَّتِ المَعَالِلُ
 ١٠ من الرجال ، وافترَصَتْهَا الرعايا بِأَسْبَابٍ نَحْنُ نَذْكُرُهَا^(٢) إن شاء الله بعد هذا .

٣٣ — علاقات باديس ببنى صُمَادِحِ أَصْحَابِ المَرِيَّةِ

والأَوَّلَى أن تقدِّمَ وَصَفَ ولايةِ ابنِ صُمَادِحِ المَرِيَّةِ ، وعَضَدَ جَدُّنَا —
 رحمه الله — لِرِيَاسَتِهِ ، وإِثْبَاتَهُ لَهُ في مُلْكِهِ عند قيام ابن أبي عامر عليه ،
 طالبًا لَهُ خِلاَفَتِهِ عَلَيْهِ ، وَأَيَادِي كَرِيمَةٍ سَلَفَتْ من المَظْفَرِ قَبْلَهُ ، لم يَسْبِقْهُ
 ١٥ إِلَيْهَا أَحَدٌ من جنسه ، ولم تكن مكافأَتُهُ على ذلك إِلَّا أن افترَصَ بِلَادَهُ
 وَقَبِلَ دَوَاخِلَ إلى الإِفْرَنْجِ ، يَمْدُمُ بِالمال الكثير . وَأَجَابَهُ مُجَاهِدٌ لِمَا
 أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِ ؛ وَعَمِلَتِ الكَلِمَةُ في نَفْسِهِ ؛ فَلَمَّا هَمَّ ابن أبي عامر بالرجوع
 عن لُرُقَةٍ يُرِيدُ المَرِيَّةَ ، تَأَخَّرَ عَنْهُ مُجَاهِدٌ ، وَتَيَّنَ لِلنَّصُورِ قَعُودَهُ عَنْهُ
 وَخِذْلَانَهُ إِيَّاهُ ؛ وَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ . فَقَالَ مُجَاهِدٌ مُخَاطِبًا لَهُ ولأَعْلَامِ قَوَّادِهِ :

(٢) أصل : « ذَاكِرُهَا » .

(١) أصل : « سِنِيَّات » .

« يا قوم ، إن كنتم لا تعرفون البرّير ، ولا جرّبتُم حروبهم ، فأنا ، والله ، أعلمُ بها أفلياً كم أن يكون بوارُكم على أيديهم . وأنتم [ستعلمون] أنّ فِتنة عشرين سنة خيرٌ من مُلافاة ساعةٍ واحدةٍ ؛ فإنّ فيها تلتف الثّول ، وينقل المُلك ، ويستأصل الجمع . فليكنم بالتأني ! » قال له ابن أبي عامر : « جَبُنْتَ ! ارجِعْ إلى دانيّة ولا تفسد على الجيش ! » فأقلع على القيام مفضباً من قذفه .

وجزع الناس بزوال مُجاهِدٍ عنهم ؛ وأدرك* الإفرنج الطمع ، وطلبوا ١٩ (١) منه ما لا قدرة له به . وانصرف خاسئاً .

وجمع المُظفرُ رجاله وقال لهم : « كيف تَرَوْنَ هزيمة هذا السّكر من غير قتال ؟ » فأجابوه أن : « قد وُقِّت ! وأنتم ، مَشَرَّ للملك ، لم تُعْطُوا الولاية على الناس حتى اختاركم الله لها ، وجعل عقولكم أجَلَّ وأقْسَ من عقول الناس ؛ وبذلك فضّلتم من دونكم ! » ورجع المُظفرُ غالباً منصوراً . وصار أبو الأخوص [بن صُمّاح] طاعة له ؛ لا يروم شيئاً من كلِّ ما بالمرية إلّا وصار إليه ، ولا يأمر فيها بأمرٍ إلّا وكان مِلْكٌ يَدِيهِ . وبقي الأمرُ على ذلك سنين . ١٥

وكانت قُرْطُبة في ذلك الزمان بمنزلة المَريّة ، إذ كان فيها ابنُ السّقاء ، لا يتمتع على المُظفر من رغباته فيها شيء ؛ إلى أن توفّي أبو الأخوص ، وترك ابنه هذا التّوفّي بالمرية — رحمه الله — عند ظهور الرابطين عليها ، وهو إذ ذاك صغير السن . فأرسل إلى المُظفر يرغب إليه أن يكون له في المضد والحماية بالمنزلة التي كان عليها لأبيه ، وأنه أحسن طاعة وأشدّ اهتِاداً من أبيه ؛ وسأله تجديد العهد معه والاجتماع به . فأجابه المُظفر إلى كلِّ

ما سأل ، ووعدَه بالذهب عنه على أتمِّ ما كان عليه لأبيه ، واجتمع به .
وجدد معه عقدًا . وثبتتْ رياسته ، وقرَّ حاله قراره ، ودأبًا على ذلك
دَهْرًا طويلاً ، لا يُسمع فيها بفتنة ، ولا يكابد معها تشغيبٌ .

- وكان في ذلك [الوقت] خدامٌ دَوْلَتنا مُتَّفِقين مع اليهوديُّ ، إذ
- كان وزيرَ السلطان وصاحبَ سرِّه : فَنَهِم صَنِيعَةً له قد استغنى معه ،
ومنهم عدوُّ له ، مُؤازِرٌ في الظاهر استدفاعاً لشرِّه . فَاتَّسَقَتِ الأمور بذلك ،
وأعان بعضهم بعضًا على خدمة السلطان ، وأنشؤا إلى تَقَتِّه بهم وعَضِدِ
بعضهم لبعض . ولما تَهَيَّأت له الأمور ، وتوطَّدت الدولة ، بعد كلِّ ما ذكرنا
من تلك الفتن ^(١) وغيرها ، وحصل على مدينة مالقة بعد المكابدة واليأس * ١٩ ()
١٠ منها ، حلَّ عن نفسه ، ومال إلى الراحة التي يستريح إليها للوك ،
وفوض أمرَه إلى الوزير والخَلِمة .

٢٤ — وصول النَّبَاة إلى غرناطة .

حظوته ومنافسته لليهودي

- وفي أَمَكَنٍ ما كانت الدولة وأبْهَجِها ، قصده النَّبَاة ، عبدٌ كان للمُعْتَصِدِ
- ١٥ ابن عباد — رحمه الله — ؛ وكان من جُمَلَةٍ من اتَّفَقَ على غلده مع ابنه
للشهور خَبَرُهُ ؛ فَأَتَى الْقَدَرُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ عَنْهُ مَحِصٌ . واعتنى به جماعةٌ
من كبار العبيد ، وطلبوا له من السلطان التَّعْطَايا ؛ فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ تَعَمُّنًا
لسرورهم ^(٢) ، كَتَبَ يَزِيدُوا فِي خِدْمَتِهِ وَنَصِيحَتِهِ ؛ وَقَالُوا لَهُ : « قَصْدَكَ هَذَا
الإنسان عن مفاستدٍ لَنَيْتِكَ وتحويلٍ عليك ؛ وقد أَمْلَكَ ؛ فما تصنع فيه

(١) أصل : « العتيد » . (٢) أصل : « لسارم » .

إِنَّمَا تُسَدِّيه إِلَيْنَا . » ودخل غرناطة في أَمْعَدٍ وقت له ، وأَشْغِيهِ عَلَى الدَّوْلَةِ .
وسار في أوَّل أمره مع الخِدْمَةِ بِأَجَلٍ سِيرَةٍ وَتَوَاضَعُ لَهُمْ ، حَتَّى حُدُّوا
طَرِيقَتَهُ ، وَنَعَمُوا عِنْدَ السُّلْطَانِ ، إِلَى أَنْ اسْتَعْمَلَهُ فِي بَعْضِ خِدْمَتِهِ وَصَرَفَهُ فِي
وَلَايَةِ بَعْضِ عَسْكَرِهِ . وَكَانَ لَطَّلَبِيهِ الثَّارُ مِنْ بَنِي عَبَّادَ ، قَدْ اكْتَفَى فِي فِتْنَةِ
مَالِقَةَ وَاسْتَهَالَ أَقْوَامًا مِنَ الْجُنْدِ ؛ وَكَانَ فِيهَا مُتَصَرِّفًا بَيْنَ يَدَيْ مُقَاتِلِ بْنِ
يُحْيَى قَائِدِهَا . وَلَمْ يَزَلْ مُقَاتِلُ الْمَذْكُورُ ، مَتَى خَرَجَتْ مُغِيرَةٌ إِلَى بَلَدِ ابْنِ
عَبَّادَ ، يُعَلِّمُ الْمُظْفَرَ بِكَفَايَةِ النَّايَةِ الْمَذْكُورِ فِيهَا ، حَتَّى كَادَ يَحْمِلُ لَهُ الْحَسَّ
كُلَّهُ ، إِلَى أَنْ وَرَدَهُ كِتَابُ السُّلْطَانِ مُشْتَرَكًا بَيْنَهُمَا ، وَصَارَ قَائِدًا مَعَهُ فِي
الْبَلَدَةِ . وَزَادَ جِدُّهُ ، وَنَمَا خَبَرُهُ ، وَتَضَاعَفَ إِحْسَانُ الْمُظْفَرِ إِلَيْهِ . وَكَانَ ،
مَتَى مَا أَتَى مَالِقَةَ ، نَزَلَ السُّلْطَانُ فِي دَارِهِ ، وَشَرِبَ مَعَهُ ، مَعَ تَنْوِيهِهِ بِهِ
وَالزَّيْدُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ مَعَ الْيَّامِ .

- وَكَانَ ، مَعَ تَقَرُّبِ السُّلْطَانِ لَهُ مَتَى انْفَرَدَ بِهِ أَوْ افْتَرَصَهُ عَلَى الْخَمْرِ ،
يَجْرُحُ عِنْدَهُ الْيَهُودِيَّ ، وَيَقُولُ لَهُ : « قَدْ أَكَلْتُ مَالَكَ ، وَتَمَلَّكَ بِأَعْظَمِ
مِنْ مَالِكَ ، وَبَنَى خَيْرًا مِنْ قَصْرِكَ ! فَاللهُ اللهُ فِي إِزَاحَتِهِ وَالتَّجَبُّبِ إِلَى
الْمُسْلِمِينَ بِقُدْرِهِ ! » وَالْمُظْفَرُ فِي هَذَا كُلِّهِ يَعِدُهُ وَيَقُولُ لَهُ : « لَا بُدَّ لِي
مِنْ ذَلِكَ ؛ وَأَوْكُلُكَ * عَلَى قَتْلِهِ ! » فَرُبَّمَا لَفَظَ بِذَلِكَ بِمَسْمَعٍ مِنْ لَا يُؤْبَهُ (١) ٢٠
لَهُ مِنْ صَبِيهِهِ وَالْمُتَصَرِّفِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ فَيَتَقَلَّبُونَ ذَلِكَ عَلَى الْمَقَامِ إِلَى الْيَهُودِيِّ
لِيَصِلَهُمْ عَلَيْهَا . فَلَا تَزْدَادُ نَفْسُ الْخَنْزِيرِ إِلَّا حِمَاقَةً وَمُنَافَرَةً ، وَيَكَادُ أَنْ
يَمُوتَ هُمَا وَحَقًّا ، مَعَ حَسَدِهِ لَهُ عَلَى الْمَنْزِلَةِ الَّتِي خُصَّ بِهَا دُونَهُ ؛ وَرَامَ
مَطَالِبَتَهُ عِنْدَ السُّلْطَانِ بِكُلِّ مَرَامٍ ؛ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ . فَلَمَّا رَأَى أَنَّ مَنْزِلَتَهُ
لَا تَزْدَادُ إِلَّا تَرْفِيعًا ، وَخَافَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَحْمِلَ السُّلْطَانُ عَلَى هَلَكَتِهِ ،

انقطع رجاؤه من كلِّ وجهٍ وقال : « إِنَّمَا اسْتَهْزَأُونَا بِالنَّاسِ مِنْ أَجْلِ عِزِّ
السلطان ! وَأَمِنَّاهُمْ عَلَى أَنْفُسِنَا بِحِمَايَتِهِ وَعِنَايَتِهِ . وَأَمَّا الْآنَ ، فَقَدْ انقطع
الرجاء : لَا سُلْطَانَ نَأْمُنُهُ ^(١) ، وَفَرِينَ سُوءِ يَطْلُبُنَا عِنْدَهُ ، وَعَامَّةٌ تَرِيدُ
هَلَاكَنَا ، وَنَحْنُ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ! »

٢٥ - إجلاء الأمير ماكسن بن باديس

وكان [اليهوديُّ] قد ألقى يَدَهُ فِي عَمَّا مَّاكْسَنَ ، رَجَاءً مِنْهُ أَنْ
يُسَدِّدَهُ وَيَأْمُرَهُ بِالْمُدَارَاةِ ، إِلَى أَنْ قَالَ لَهُ مُوَاجَهَةً : « أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا
قَتَلْتَ أَخِي ؟ » فَعَمَلَتْ فِي نَفْسِ الْيَهُودِيِّ . وَكَانَ مَّاكْسَنُ مَعَ هَذَا كُفَّةً
سَيِّئِ الطَّرِيقَةِ ، قَلِيلَ الْبِرِّ ، خَشِنَ الْكَلَامِ ، يَبْغِي النَّاسَ بِالشَّرِّ ، حَتَّى
كَرِهَهُ أَهْلُ دَوْلَةِ أَبِيهِ وَأَبْغَضُوهُ . وَكَثُرَ عَلَيْهِ الطَّلَبُ عِنْدَ أَبِيهِ .
وَكَانَتْ أُمُّهُ تَتْرَكَ مَعَامَلَةَ الْوَزِيرِ الَّذِي أَلْقَى يَدَهُ فِيهِ ، وَتَمِيلُ إِلَى خَالِهِ :
يَهُودِيٍّ يُعْرَفُ بِأَبِي الرِّيعِ بْنِ الْمَاطُوفِ ، وَكَانَ قَابِضَ الْوَجِيهَةِ ؛ فَتَخَاطَبُهُ
أَبَدًا ، وَتَطْلُبُ مِنْهُ مَالًا بِاسْمِ السَّلَفِ . فَتَارَ الْوَزِيرُ لِنَظَرِهَا ، وَعَمِلَ عَلَى طَلْبِهِ
وَطَلْبِ أُمِّهِ وَحَاشِيَتِهِ ، وَافْتَرَى عَلَيْهِمْ عِنْدَ السُّلْطَانِ . وَشَهِدَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ
جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ ، فَمَنْ نَقَمُوا عَلَى مَّاكْسَنَ قَبْلَ ذَلِكَ مَا قَدْ مَنَّا
ذِكْرَهُ . وَأَغْرَى بِهِمْ حَتَّى جَعَلَتْهُ الْأَثَنَةُ مِنْ مَكْرِهِ مَا نُقِلَ إِلَيْهِ أَنْ يَأْمُرَ
بِقَتْلِ أُمِّهِ وَدَايَاتِهِ وَبَعْضٍ مِنْ ائِمَّتِهِ . وَقَتَلَ الْوَزِيرُ خَالَهُ غَدْرًا* فِي مَنْزِلِهِ ٢٠ (د)
عَلَى الشَّرَابِ خِلَافِهِ عَلَيْهِ فِي هَذَا وَغَيْرِهِ ؛ وَاتَّقَى مِنْهُ نَصِيحَةَ السُّلْطَانِ ،

(١) أصل : « نَأْمِنُوهُ » .

- وأعطاه على ذلك مالا جسيما ، لئلا يثرب عليه قتله . فقبل السلطان ذلك منه ، وودَّ أن لو قتلَ كلَّ يومٍ يهوديًا ، فيُغَرِّمَ عليه مالا .
- ثمَّ أمر بعد ذلك بنفَى وَلَدِهِ . وكان من آكِدِ الأسباب في تَفْيِهِ أن خرج السلطان يوما لمرَضِ الأجناد ، وقتَ الفِتْنَةِ مع ابن صُدارح ؛ فالتدب إليه من شيوخهم من قال له : « ما ينبغي لك أن تُقدِّمَ علينا العبيد وغيرهم ، وتتركَ مثل هذا الابنِ ! أرسله معنا ، وتبَّعه في كلِّ مُدِينَةٍ ! » يعني ما كُنْ . فمَرَّ ذلك على أبيه ، مع سَخَطِهِ عليه لِمَا كان يَرَى منه وقُلِّ إليه عنه ، وخاف أن يكون وراء هذا الكلام فعلٌ بأن يخلوه ويقدموا ابنه . وجزع اليهودىُّ لذلك جزعا شديداً وقال : « ما حسبتُ نفسى في ذلك اليوم إلا مقتولا ! » فأَعْلَمَ السلطان بهذه الوجوه ؛ وأمر على المقام بنفْيِهِ عن البلدِ ، ووجهَ معه من عبيده من يُخْرِجُه عن نظَرِهِ كُلِّهِ . ووصَّى اليهودىُّ — لعنه الله — ذلك ^(١) العبد أن يَصِلَ معه إلى موضع سمَّاهُ بِمَيْثُ يخفى أمرُهُ ، فيضرب فيه عنقه .
- وكان أخونا المَعِزُّ قد ربَّاه جدُّه ، ونال معه الكرامات ، وأحبُّوه في حرمة أبيه . واتفق رأىُ الجميع مع اليهودىُّ على قتل ما كُنْ وتولية المَعِزِّ ، حذرا على أنفسهم من ما كُنْ أن يثور عليهم ويماقبهم بمَحَبَّتِهِمْ في [ابن] أخيه وتربيتهم له . فكان من ذلك ما أَمْلَوْهُ .
- وخرج عَمَّنَا على أسوأ حال ، مذعورا ، خائفا ، بَقَضُهُمْ يُشير بقتله ، وبَقَضُهُمْ يَأبَى إلا إزاحته عن النظر كُلِّهِ ، حتَّى صار بيعض الطريق .
٢٠. وانحلَّ عن عُموه بهلاك اليهودىُّ ، على ما نذكرُه بعد هذا .

(١) أصل : « لذلك » .

الفصل الرابع

إمارة باديس بن حبوس

(٢) من موت ابن نغالة إلى نهايتها

٣٦ — مؤامرة الوزير اليهودي ابن نغالة

ثورة صنهاجة عليه وقتله

وإنَّ الحَنَزِيرَ — لعنه الله — لما رأى طغيان النساء ، وكلَّ فرقة منهنَّ
تُريد ولاية مَنْ تُريُّهُ من أبناء السلطان ، ورأى تغير مولا* عليه وإيمان ١٢١
الناية في مطالبة والازدياد في جاهه ، لم يجد في الأرض مهزباً ، ولا
وجد إلى التخلص سبيلاً ، وشاور في ذلك مشيخته من ذوى الرأي ؛ فقال
بعضهم : « انج بنفسك ، وقدمْ جُلَّ مالك إلى أى البلاد أحببت ،
تستوطنها غنياً أميناً » فقال : « ذلك مُمكنٌ لولا أن الرئيس الأجل ، إن
أرسل فيَّ إلى صاحب تلك الجهة ، يقول : « ذهب وزيرى بأموالى : إما أن
تصرفه على ، وإما أن أفاتنك ! » أترى أنه يبيع الرئيس عني ؟ هذا
١٠ ما لا يجوز إلا أن أصير إليه من البلاد بحيث تقع الفتنة بينهما ، ونأمن
على نفسى عند الذى نصير إليه ولا يمكنه إسلامى . وأنا قد وضعتُ في

يده بلادًا ومجدًا كبيرًا ! » فأتق رأيتهم على مخاطبة ابن صمادح ، وأنه الأولى لجيرته وقربه من كل أمر يحتاج إليه فيه .

وأخبرني رسول ابن صمادح ابن أرقم ، وكان قد فخيروه للرسالة ^(١) حينئذ ، قال : حضرت يوماً مع المظفر — رحمه الله — وقد خرج إلى بعض منزلهاته والناية معه ، واليهودي وراءه ، حتى بصر الناية بحكيم كان للوزير ، يهودي ؛

فأمر ياهاته وإرجاله عن دابته بحضرة الرئيس ، وتوقع في ذلك ، وأبلغ في شتم اليهودي ؛ فاستعظم اليهودي ذلك وقال لابن أرقم : « حسبك هذه الإهانة ، ولا صبر عليها ! فإن كنتم تستطيعون لي على شيء ، وإلا فلا بد من الترامي على غيركم ! » فقال له ابن أرقم : « أنت جدير بالتثبت في هذا الأمر ! وأنى ضرورة دفعتك إلينا وببديك الرعايا ، وإليك تُجبي الأموال ؟

والسلطان لم يغير عليك شيئاً أكثر من همزات هذا المطالب ! فاحتل بأن تُصاير الأمور إلى أن يموت الشيخ ، لاسيما أنه قد أسن ؛ وتلقى يدك في حفيده المميز ، وتبقى حالك معه حسب ما كانت مع جدّه ؛ وهو أقرب إلى السلامة ! » فقال له اليهودي : « كنتُ أفعل ذلك لولا أن المميز صغير السن * ، وله أمهات وطبقات جمّة من النساء والحاشية . فكيف نرجو منهم

١٥ السن * ، وله أمهات وطبقات جمّة من النساء والحاشية . فكيف نرجو منهم (ب) ٢١

الفلاح ؟ والحال إذ ذاك تكون على أشدّ لاختلاف أهوائهم . وقد صحّ عندي أن الصبي يحقد على ما قاله الناس من سقي أبيه . وقد أدّرت هذه الوجوه ؛ فلم يتجه لي منها أمثل من الترامي على المعتصم ! » فقال ابن أرقم : « دخلت على المظفر ، وألقيت إليه من الكلام رُموزاً ، وقلت له : « أيدك الله !

٢٠ تيقظ ! فإنك لم تطعن في السن ، ولا بلغت فيه مبلغاً يولد عليك الغفلة

عن دَوْلَتِكَ ! » رجاء مَتَّى أَنْ يَسْتَفْهِمَتِي عَنْ الْكَلَامِ وَأَقْصَ عَلَيْهِ بَعْضَهُ .
 فَعَدَا الْيَهُودِيَّ وَقَالَ لَهُ : « انْهَضْ إِلَى ابْنِ أَرْقَمَ وَقُلْ لَهُ : « لَأَيُّ وَجْهِ
 قَالَ لِي الْآنَ : تَبْقَظْ ! » وَاسْتَفْهِمَتْ عَنْ ذَلِكَ ! » فَجَاءَنِي الْيَهُودِيُّ وَأَخْبَرَنِي
 بِالْقَضِيَّةِ . فَدَهَشْتُ لَهَا وَمَتُّ ، وَلَمْ أَجِدْ جَوَابًا . فَاتَّهَمَنِي الْخِزْيَرُ ، وَخَاطَبَ
 ٥ بِأَمْرِي الْمُعْتَصِمَ وَأَشَارَ عَلَيْهِ أَنْ يُقْعِدَنِي عَنْ الرِّسَالَةِ وَيُوجِّهَ فِيهَا مِنْ يَتَقَهُ ؛ فَسَفَرُ
 فِيهَا رَضِيْعَةً وَأَمَرَهُ بِنَسْجِ الْأَمْرِ مَعَهُ ، وَكَيْفِ الْحِيلَةِ فِي تَصْيُرِ الدَّوْلَةِ إِلَيْهِ ،
 وَغَرْنَاظَةِ مَعْدَنِ الْجَيْشِ ، وَفِيهَا مِنْ صِنَاهَاةٍ مِنْ لَا يَجُوزُ هَذَا الْأَمْرُ عَلَيْهِمْ ؟ وَقَالَ
 لَهُ : « لَا تُدْخِلْ نَفْسَكَ وَالْمُعْتَصِمَ فِيمَا لَا يَتِمُّ وَتَفْتَضِحُ فِيهِ مَعَ الْمَظْهَرِ ،
 وَهُوَ صَاحِبُ الْأَمْوَالِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى الْفِتْنَةِ ! وَتُخْزَى مَعَهُ ، وَتَكُونُ سَبِيًّا إِلَى
 ١٠ هَلَاكِ نَفْسِكَ وَالْفَسَادِ عَلَيْهِ ! » فَرَأَى الْخِزْيَرُ مِنْ رَأْيِهِ أَنْ يُخْرِجَ مِنَ الْبِلَادِ
 كُلَّ مَنْ يَتَوَقَّعُ قِيَامَهُ .

وَتَخَيَّرَ مِنْ كِبَارِ صِنَاهَاةٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعَبِيدِ ، الَّذِينَ يَخْشَى مَعْرِفَتَهُمْ ،
 أَقْوَامًا ، وَأَشَارَ عَلَى السُّلْطَانِ بِإِرْسَالِهِمْ إِلَى الْمَعَاوِلِ الْأَهْمِيَّةِ ، وَصَلَّكَ لَهُمْ بِهَا ،
 وَقَالَ لَهُمْ فِي سِرِّ الْأَمْرِ : « أَنْتُمْ إِخْوَتِي ، وَقَدْ أُخْلِئْتُمْ مَعِيَ ، وَرَأَيْتُمُونِي !
 ١٥ وَأَرَى مِنْ دَوْلَةِ هَذَا السُّلْطَانِ مَا يَنْبَغِي لَكُمْ لِإِنْكَارِهِ بِأَنْ يَقْدُمَ عَلَيْكُمْ مِنْ
 لَيْسَ مِنْكُمْ وَلَا شَأْنُهُ شَأْنُكُمْ ، وَتَبْقَى وَلَايَتُهُ عَارًا عَلَيْكُمْ وَشَنَارًا مَا بَقِيَ الدَّهْرُ ؛
 وَقَدْ* نَصَحْتُ السُّلْطَانَ فِي أَمْرِهِ ؛ فَلَمْ يَقْبَلْ مَتَّى ، وَلَا يُقَدَّرُ عَلَى مُضَادَّتِهِ ؛ ٢٢)
 وَالْآنَ أَتَوَقَّعُ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ الشَّرِيفَةِ وَالْمَعَاوِلِ الْقَاهِرَةِ أَنْ يَلِيَهَا مِنْ قَبْلِ النَّايَةِ
 مَنْ يَشْقَى بِهِ الْجَمِيعُ ، وَلَا تَقْدِرُ مَعَهُمْ عَلَى إِسْكَاتِ الدَّوْلَةِ ، وَتَكُونُ لَهُمُ الصُّوْلَةُ
 ٢٠ عَلَيْنَا ، ثُمَّ لَا مَهْرَبَ إِلَّا إِلَى يَدَيْهِ ، فَإِذَا أَمْسَكْنَا مَعَاوِلَنَا وَكَانَ بَنُو عَمِّكُمْ
 بِالْحَضَرَةِ ، يَتَجَسَّرُ عَلَى تَبْدِيدِكُمْ ، وَكَانَ أَمْرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ هَيْئًا ، مَتَّى أَرَادَ التَّغْيِيرَ ،

قتلناه ، ومتى ما سخط السلطانُ على أحدنا وأمر بتنفيذِهِ على يديه ، لَجَأُ
إلى مَعْقِلِ صاحِبِهِ .

فقبل القومُ قَوْلَهُ ، مع شَرِهِم إلى ولاية البلاد ، وبادروا إلى ذلك .
فأخرج يحيى بن يفران إلى مدينة المُنكَب ، ومُسكَن بن حَبُوس المَفْرَأَى
إلى جَبَّان ، وَمَنْ سِوَاهُم إلى غيرها من القواعد . وزَيَّن للسلطان أن ذلك من
وَجْهِ النَظَرِ له ، وأنه لا يحى القواعد إِلَّا كبار الرجال ، وأن للمزولين قد
صَحَّ عنده غفلَتُهُم وتَضْييعُهُم ، إذ كان لا يسمع من أحد إلا قوله في هذه
المَشَايِ ، لِثِقَتِهِ بِهِ .

وكتب [اليهوديُّ] إلى ابن صُمَادِح يُخبرُهُ بِخروج القومِ الفَوْغَاءِ من
١٠ المدينة ، وأنه لم يَبْقَ فيها إِلَّا من لا يُؤْبَهُ لَهُ ، ويحصدُهم سَيْفُهُ إذا دَخَلَهَا ،
وأنه مَهَيَّيٌّ لِفَتْحِ أبوابها متى جسر وطرقها ؛ وَضِيْعُ النَّظَرِ في سائر
الحصون غير القواعد ، وأَهْمَل ما يَرْتَقِبُونَ بِهِ من الرجال والمُدَد على وجه
الغفلة ، حتى خَلَّتْ .

والمُظَفَّر ، في هذا كُلِّهِ ، لا خَبَرَ عنده إِلَّا الإقبال على الشرب والدَّعة .
١٥ فلما خَلَّتِ المعاقِل ، وصَحَّ عند أهلها ، بِإِهْلَامِ واحتِجَابِ السلطان عنهم ،
أنه قد مات لا حَالَةَ ، تصايَحَتْ بِعُضْها لِبَعْض ، وَخَلَّتْ بِأَقْطَارِها ؛
وافْتَرَصَها رجالُ ابن صُمَادِح ، وصاروا فيها حتى لم يَبْقَ منها إِلَّا حِصْن
قَبْرِيَّة ، على مقربة من غرناطة في طريق وادي آش .

وأرسل اليهوديُّ على المقام لابن صُمَادِح ، يُلحُّ* عليه في الإقبال إلى ٢٢(ب)

٢٠ المدينة ، وأن لا مانِعَ يَمْنَعُهُ . فالتوى عن ذلك ابن صُمَادِح ، وجزع من
الجسر على مثل غرناطة ، إلى أن اتَّسَعَ اتَّخَرَقُ وتَمَادَى التفاق ؛ وصار

اليهوديُّ مُتَنَقِّلًا من داره إلى القَصَبَةِ حِذْرًا من العَامَّةِ ، حتى يَتِمَّ ما أُمِّلَ ؛
فَأَنكَرَ ذَلِكَ النَّاسُ ، مع بُنْيَانِهِ لِحِصْنِ الْخَمْرَاءِ عَلَى أَنَّهُ ، إِذَا دَخَلَ ابْنُ
صُمَادِحِ الْبَلَدِ ، صَارَ هُوَ بِأَهْلِهِ إِلَيْهَا ، إِلَى أَنْ تَتَوَطَّدَ الْحَالُ . فَأَنفَتِ الْعَامَّةُ
وَالْخَاصَّةُ لِمَكْرِ الْيَهُودِ وَمَا اشْتَهَرُوا بِهِ مِنْ تَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ ، وَرَأَوْا مِنَ الرُّتَبِ
خِلَافَ مَا عَهَدُوا .

وَالَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْ هَلَاكِهِمْ فِي يَوْمِ السَّبْتِ لَعِشْرَ خَلَوْنٍ مِنْ صَفَرٍ
[مِنْ سَنَةِ ٤٥٩] ، اسْتَعْمَلَ الْيَهُودِيُّ الشَّرَابَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ أَقْوَامٍ مِنْ
عَبِيدِ الْمُظَفَّرِ ، كَانُوا قَدْ عَاقَدُوهُ وَاتَّفَقُوا مَعَهُ ، وَبَعْضُهُمْ فِي السَّرِّ يَشْنَأُهُ ؛
فَأَغْلَقَهُمْ بِأَمْرِ ابْنِ صُمَادِحِ ، وَأَنَّهُ وَارِدٌ عَلَيْهِمْ وَمَسْوَغٌ لَهُمْ مِنَ الْقُرَى فَلَانَةَ
وَلَانَةَ مِنْ فَخْصِ غِرْنَاطَةِ ؛ فَاتَّجَبَ إِلَيْهِ أَحَدُهُمْ مِمَّنْ كَانَ يَكْمُنُ بِغَضِهِ ،
وَقَالَ لَهُ : « قَدْ عَلِمْنَا هَذَا ! فَأَخْبِرْنَا عَنْ تَسْوِيْكَ هَذِهِ الْإِنِّزَالَاتِ ،
أَهْوَى مَوْلَانَا حَيْثُ أَوْ مَيَّتْ ؟ » فَرَدَّ عَلَيْهِ بَعْضُ حَاشِيَةِ الْيَهُودِيِّ ، وَوَجَّهَهُ عَلَى
قَوْلِهِ ؛ فَأَنفَ ذَلِكَ الْعَبْدُ وَخَرَجَ فَارًّا عَلَى وَجْهِهِ [وَهُوَ] سَكْرَانٌ ، يَصِيحُ بِالنَّاسِ
وَيَقُولُ : « يَا مَعْشَرَ مَنْ سَمِعَ بِالْمُظَفَّرِ قَدْ غَدَرَهُ الْيَهُودِيُّ ! وَهَذَا ابْنُ صُمَادِحِ
دَاخِلٌ فِي الْبَلَدَةِ ! » فَتَسَامَعَ لَذَلِكَ النَّاسُ أَجْمَعُ خَاصَّتُهُمْ وَعَامَّتُهُمْ ، وَأَتَوْا
عَازِمِينَ عَلَى قَتْلِ الْيَهُودِيِّ . فَتَحِيلَ عَلَى الْمُظَفَّرِ حَتَّى أَخْرَجَهُ إِلَيْهِمْ ، وَقَالَ :
« هَذَا سُلْطَانُكُمْ حَيْثُ ! » وَرَامَ الرَّئِيسُ تَسْكِينَهُمْ ؛ فَلَمْ يَقْدِرْ ؛ وَاتَّسَعَ اتَّخَرَقُ
عَلَى الرَّاقِعِ . وَهَرَبَ الْيَهُودِيُّ بِنَفْسِهِ إِلَى دَاخِلِ الْقَصْرِ ، وَاتَّبَعَتْهُ الْعَامَّةُ حَتَّى
ظَفَرُوا بِهِ وَقَتَلُوهُ . وَأَحَالُوا السِّيفَ عَلَى كُلِّ يَهُودِيٍّ بِالْبَلَدَةِ ، وَحَصَلُوا عَلَى
عِظَامِهِمْ مِنْ أُمُومِهِمْ .

وَاسْتَأْصَدَتْ إِذْ ذَلِكَ صِنْفَهَا جَاءَ ، وَطَفَرُوا بِمَا صَنَعُوهُ عَلَى الرَّئِيسِ ، مَعَ الْفِتْنَةِ

المُضْطَكَّة* عليه من كل قطر . وكانوا هم الوزراء ومُدَبِّرِي^(١) الدولة ؛ ٢٣ (١)
والمُظْفَرُ من هذا كله تحت خوفٍ وذلٍّ ، قد حقد عليهم ما صنعوه
بوزيره ، من غير أن يَعْلَمَ بشيء من دواخله ، ولا صدق قولهم عليه ،
وسائر أمره معهم بالمداراة والصبر ، إلى أن تفتحت له البلاد ، ورجعت
طاعته إليه بما نَحْنُ نذكره^(٢) بعد هذا إن شاء الله .

ولما مضى مُسْكِنٌ إلى جَبَّان ، على ما قدَّمنا ذِكْرَه ، أَلْقَى في طريقه
عَمْنًا ما كُنْ ، يحمله الصَّقْلَى ؛ فاستنقذه ، ومشى به إلى جَبَّان ، وقال :
« لا فائدة أكبر من هذا : ابن الرئيس يكون معي حُجَّةً على ما أريدُه
من مُلْكِ جَبَّان أو غيرها ؟ وسينقاد إليه الناس ، ونحصل على عظامهم ! »
١٠ كاللئى كان . فَوَلَّى جَبَّان باسمه ، وصار حاكمها مع بنى عمه . وحصل
إذذاك من أموال اليهود فيها على ما لا يتحصَّل . وبقي نائراً على أفضل حال .

٢٧ — الحركة الموقفة التي قام بها باديس لانتزاع وادى آش

من أيدي ابن صُمَادِح

وإنَّ المُظْفَر ، لما رأى ما نزل به من كَلْبِ العدو وطَمَعِ الناس فيه ،
وما حلَّ به من كلِّ وَجْهٍ ، جمع الناس وقال لهم : « ما تَرَوْنَ في أمرِ
١٥ وادى آش ، وتصيرها إلى ابن صُمَادِح ، واستحواذِه على أنظارنا ؟ »
فأجابه قواده وجملة رجاله أن : « لا دواء لهذا ، إلَّا أن تبذل الأموال ،
وتترك الدَّعة ، وتبشير الأمر بنفسك ! » فقال لهم : « مثلى ومثلُ ابن
صُمَادِح كمثلِ القُبعة التي كان يلزأها عشُّ إوزة ؛ فأعجبها بيضها ، فقالت :

(١) أصل : « مدبرين » . (٢) أصل : « ذاكره » .

« لأحضنّ هذا البيض ، يكون خيراً من متاعى ! » فلما رامت ذلك ، هَجَزَتْ وقصُرَتْ جَنَاحَها عن التحضين ؛ فلما رجعت إلى متاعها ، وَجَدَتْها قد فسَدَتْ . وكذلك ابن صُمَاح : تَمَدَّى على بلدى ، وسيخرج عنه وعن كثير مما كان قديماً بيده ! « قَعَوَيْتُ نفوسُ الناس ، وأدّرع الحزْمُ والعزمُ ؛ وتَأَهَّبَ للمسير ، واجتمعت إليه الأجناد ، [وفرّق] فيهم العطايا . ونازَلَ وادى آش حتى حاصَرَهَا .

وكان في أوّل الفتنة ، للذى * رأى من قيام رعيته وخشى خلاف ٢٣ (ر) الجميع ، قد وجّه لابن ذى النون ، صاحب طَلَيْطَلَة ، يملّه بما دمه من الأمر ، ويسأله صِلَة يده به ، وأَنّه ما انصرف إليه من البلاد أعطاهُ منها ما أَحَبَّ واختار ؛ فسارَعَ ابن ذى النون إلى ذلك ، ولحق به ، وهو على وادى آش قد حاصَرَهَا وقَرُبَ مَرَامُها ؛ واجتمع معه إلى أَجَلٍ هيئة وأنتم رتبة . وفي قَصَبَة وادى آش ذلك الوقت وزراء صاحب التمرية وأكابر رجاله . فاشتدّ عليها الحرب ، وكثُرَ الإنفاقُ ، حتى إنّه انتهت النفقة عليها ، على ما رأيته مكتوباً بخط يد جدّى — رحمه الله — ستّة بيوت من اللال دَرَاهِمَ ثُلُثِيَّةً ، البيتُ منها ألفُ ألفِ دينارٍ ثُلُثِيَّةٍ . وصار ذلك مثلاً في الناس لصبره وكثرة إنفاقه .

فلما رأى مَنْ بالقَصَبَة من أكابر أهل التمرية ما دهمهم ، وأَنّه لا مَلْجَأَ لهم إلا الحرب أو السَّيف ، ولم يجدوا إلى ذلك سبيلاً ، تَحَيَّلُوا وأرسلوا إلى ابن ذى النون ، وهُمُّ على الملكة ، يملونه بما هم فيه وقطع رجائهم عن إمداد صاحبهم ، ويسألونه أن يتوسّط أمرهم مع الظفّر ، ويأخذ لهم القفوَ ، ويخرجون على سلامة ؛ ووعدوه على ذلك ، إن هو استغذهم ، أن يُصَيِّرُوا

العرية مُلكه . وكان ابن ذى النون من الطمع فى غايةٍ لم يفتحه إليها ملكٌ ؛ فطمع فى قولم ذلك ، وتراعى على جدنا ، ورغب إليه ؛ فأسمعه ، حتى خرجوا وأخلوا له القصة . وثقفها بحجة رجاله .

واستنجز ابن ذى النون وعده ، وقال : « إنَّ الذى أريد من هذه البلاد بسطة . » فلم يكن بُدَّ للمظفر من إنجاز وعده ، وأمر بإخلاصها له . وتفتحت للحاجب بلادٌ كثيرةٌ أربت على التى انصرفت إليه .

وأرسل إليه ابن صُادرٍ بعد ذلك ، يسأله القفوَ والإغصاء على ما كان منه ، وأنه لا يتعرض من ذلك شىءٍ لولا اليهودى ، وخوفاً ، إنَّ أهل (٢٤) (١) البلد ، أن يتعدى عليه من يخشى داخلته . وتراعى على جدنا وأتاه بنفسه ليجتمع معه على ذلك ، ويمدّد عقدًا . ففعل وقبل اعتذاره . ويحكى أنه ، عند اجتماعه به ، كان أولُ ما خاطبه به : ﴿ يَا أَبَانَا ! اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ! إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ (٢) فأجابه المظفر على البديه : ﴿ لَا تَتْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ! يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (٣) ! .

٢٨ — الحركة الموقفة التى قام بها باديس لانتزاع مالقة

من يد ابن عبّاد

١٥

ولما صار إلى المظفر جميعُ بلاده ، وتوطدت له الدولة ، وكان قبل أخذه لوادى آش قد أخذ مالقة ، وقدمها قبل شتله كله ؛ وكان قائدُ عسكره إليها تلك السفرة يحيى بن يفران ؛ وكان الرجلُ من أكابر تلكلكة

(١) سورة يوسف : ٩٧ .

(٢) سورة يوسف : ٩٢ .

وكان مُطاعاً في قومه ، قد شقى جدُّنا به طول مُدَّة الفتنة . ولما استأسدَ صِنْهاجَة ، على ما قدَّمنا ذكره بعد قتل اليهوديِّ ، ترأسَ فيهم يحيى المذكور ، ونال من الرئيس كثيراً في ماله وعرضه ؛ ففقد ذلك عليه ؛ وكان عازماً على آتِه ، إذا انصرف من فتح مالقة ، أن ينظر في خلمه ، ويشور عليه مع بني عمِّه . وكان الخبر قد طرأ إلى جدِّنا . قضى الله تعالى أن مات يحيى المذكور في تلك السفرة مقتولاً في الواقعة . قال عند ذلك المظفرُّ : « أتتُّنا في يوم واحد فرحان : أولهما موتُ يحيى ، والأخرى فَتَحُ مَالَقَة ! » ثمَّ نهض على اللقَام إلى وادي آس ؛ فعمل عليها ما وصَفناه . وكان ابن عَبَّاد قد دخل مدينة مالقة المذكورة قبل هذا الفتح ، وامتنعت له القَصَبَة لِمَا كان فيها من كفاة المَغَارِبَة ، وقائدها ذلك الوقت مَخْلُوفُ ابن مَلُول ، شيخٌ كبيرٌ من ثِقَاتِه ؛ وانتظروا قوَّةَ الرئيس صَبْرًا منهم ، وكثرةً بَقِيًا ، وأثْفَة من كشفٍ لحرمة الذين كانوا بالقَصَبَة المذكورة ، إلى أن ورد العسكرُ . وخرج إلى مُلَاقَتِهِم من فيها من عسكر ابن عَبَّاد ؛ فَمَنَحُوا عليهم الظفر ، ودخلوها عَنوةً .

- ١٥ وكان حصول ابن عَبَّاد عليها لِدَاخِلَةٍ* أهلها ومَنِيْلِهِم إليه ، اختياراً له (٢٤) بـ علينا ، على إحسان المظفرِّ — رحمه الله — إليهم ، وأنه وجدَّهم على أسوأ حالَةٍ ؛ فأصلح من أحوالهم كثيراً ، وحلَّ قُضَّاءَها ومُقَرَّنِيَّها على المطايا ، وأنزلهم على أفضل التراتب ، ما كان مشهوراً عنه في الأقطار ، إذ كانوا قَبْلُ في حال قِلَّةٍ وعلى غير رتبة . ثمَّ كافأوه بما فعلوا . وسدَّ ظفره بهم ، عفا عن ذلك كُلِّه ، وزاد في مَرَاتِبِهِم . ولقد اختطَبَ لابن عَبَّاد مُدَّةً كونه فيها ؛ وحَكِيَّ أَنَّهُ قِيلَ في الخطبة : « اليومَ أَكَمَلْتُ
- ٢٠

لَكُمْ دِينَكُمْ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۖ
فَلَمْ تَطِعِ السِّيَاسَةَ مُعَاقِبَةً أَحَدٍ مِنْهُمْ، إِذْ كَانُوا فِيهِ سَوَاءً، وَلَا يَصْحَحُ إِسْكَ
بِلَدِّهِ إِلَّا بِأَهْلِهَا .

قَرَّرَ مُلْكُ جَدِّنَا قَرَارَهُ ، وَجَبَرَ الْأَمْوَالَ ، وَزَادَتْ الْحَبَايَاتُ .

٢٩ - الكشف عن أمر فنيانة وفتنتها

ولما انصرف من فنيانة^(١)، غزوته تلك الوادي أشيية^(٢)، دعا بقائديه [الناية
وعبد الله بن القروى^(٣)]، وكانا على المسكر مدة فتنة وادي آش؛ وامتنح
على أموالهم أين أنفقت: أكانت في واجب أم زيفت، ليما استعظم من
النفقة؛ وجمع القائدين والكتبة، وكشف على ذلك غاية الكشف.
وكان الناية من أهل التجربة والفكرة في المعاقبة، قد عمل هذا الحساب،
وأخرج منه نفسه: فمضى وردت أموال من غرناطة للقطاء، يتحرى عنها،
ولا يقبض منها شيئاً، ويقول للذي يأتي بها: «احملها إلى خياه الشيخ
عبد الله بن القروى؛ فهو أعلم بما يصنع، وهو أسن وأدرب» ۖ فاحتجج
الناية بهذا الفعل عند المظفر، وأتى على ذلك بالبزهان، وتبرأ منها.

١٥ وغضب الحاجب على عبد الله ساعثه، وأمر بنفيه.

وكان أكثر الجند يشنأ الناية على ما وصفناه، ويؤثر عبد الله لتربيته^(٤)
مهم؛ فشق ذلك عليهم، وأدركهم من الأثقة أن خرجوا كلهم حرمة
في عبد الله، وأخلوا* عليه للحلة. وزال عنهم أكابر صنهاجة أجمع؛ ٢٥ (١)

(١) أصل: «فتيانه»، وهو تصحيف.

(٢) أصل: «الوادشية».

(٣) أصل: «لترتيبه».

فلم يصبح الحاجب فَنِيَانَةَ منهم معه أَحَدٌ ؛ وَرَجَوْا أَنْ يَكُونَ يَرْغَبُ إِلَيْهِمْ ، وَيَفْرَعُونَهُ بِتِلْكَ الْفَعْلَةِ . فَأَتَى إِلَيْهِ النَّائِيَةُ يَرْعِدُ فَرَقًا ، وَأَخْبَرَهُ بِالْقِصَّةِ . قَالَ الْمُظْفَرُ فِي نَفْسِهِ : « لَا خَيْرَ لِي فِي رَدِّ هَؤُلَاءِ ! فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَزِيدُهُمْ طَغْيَانًا ، وَتَجَرُّهُمْ الْعَادَةَ ، مَتَى أَحْبَبُوا الْخِلَافَ ، عَلَى أَنْ يَمْتَثِلُوا هَذِهِ الطَّرِيقَةَ . وَلَا حَاجَةَ بِي إِلَى إِسْكَانِهِمْ ، وَفِي مُضِيِّهِمْ الْغَنِيمَةُ وَالرَّاحَةُ ! » فَسَكَتَ عَنْهُمْ وَتَرَكَهُمْ عَلَى أَهْوَائِهِمْ ؛ فَصَارُوا فَرَقًا وَأَشْتَاتًا ، مِنْهُمْ مَنْ مَضَى إِلَى جَيَّانَ يَرِيدُ مُسْكِنًا ابْنَ عَمِّهِمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ انْقَطَعَ إِلَى شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَجَعَ إِلَى غِرْنَاطَةَ عَلَى خِفَاءٍ ، يُرَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الْجَمْلَةِ .

وَأَقْلَعَ الْمُظْفَرُ عَنْ فَنِيَانَةَ وَأَتَى غِرْنَاطَةَ ، لَمْ يَنْقُصْهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ،

١٠ وَلَا عَدَمُ جُنْدًا . وَاسْتَوَزَرَ النَّائِيَةَ ، وَبَقِيَ عَلَى الدَّعَةِ وَالتَّمَكُّنِ دَهْرًا طَوِيلًا .

٣٠ — اسْتِيلَاءُ بَادِيسَ عَلَى مَدِينَةِ جَيَّانَ

وَلَمَّا تَمَكَّنَ مَاكْسَنُ مِنْ جَيَّانَ ، وَثَارَ مَعَهُ مُسْكِنٌ مَعَ بَنِي عَمِّهِ ، أَقْلَعَ ذَلِكَ جَدًّا ؛ وَخَافَ النَّائِيَةُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْهُمْ ، وَجَزَعَ مِنْ أَنْ يَتَّفِقَ مَنْ هُنَاكَ مِنْ بَنِي عَمِّهِمْ وَسَائِرِ الْبَرَبَرِ الَّذِينَ بِغِرْنَاطَةَ ، وَيَقْتُلُوهُ ، وَيَسْعُوا فِي وِلَايَةِ مَاكْسَنَ . وَلَمْ يَرَ الْمُظْفَرُ — رَحِمَهُ اللَّهُ — لُفَاتِنَتَهُ وَجْهًا ، وَإِنْ مُسَايَرَتَهُ وَمُدَارَاتِهِ أَوَّلَى ، وَإِنْ فِي فِتْنَتِهِ مِنَ الْعَارِ وَسُوءِ الْقَالَةِ أَنْ يُقَالَ : « رَجَعَ الْمُظْفَرُ يُكَابِدُ فِتْنَةَ ابْنِهِ ، وَإِنْ أَعْيَاهُ أُنْزِعَ عِزُّهُ ! » فَتَرَكَهُ عَلَى حَالِهِ ، وَرَأَى أَنَّ السُّعْيَ عَلَيْهِ بِالْمُدَاخَلَةِ أَوَّلَى . وَالنَّسَائِيَةُ ، فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، يَجِدُّ وَيَجْتَهِدُ ، خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَبْذُلُ الْأَمْوَالَ لِلْمَغَارِبَةِ ، وَيُرْسِلُ مِنْهُمْ إِلَى قَصَبَةِ جَيَّانَ مُتَخَيِّسِينَ مَنْ يَدْخُلُهُمْ .

٢٠

وكان مُسَكِّنٌ قد أَخْلَعَ عَمَّا مَأْكُسَن ، واستبدَّ بالرأى ، وجمع الأموال
 دونه ؛ وصار له مَأْكُسَنُ بمنزلة* البازي الذي يُصَيِّدُ به ، ومَأْكُسَنُ لا يقدر ٢٥ (ب)
 على أكثر من الصبر ، إذ لا فِتْنَةَ غيرهم ، وقع بتلك الحال لاستنقاذه له
 من الموت ، ورأى إقرارَ روحه في جسده غنيمةً ، فَضَلَّ عن طلب ما سوى
 ذلك . فلم يَزَلْ أبدًا يُدْخِلُ عليه بالأموال ، حتَّى استمال جميع مَعَارِبَةِ
 القَصَبَةِ . وكان ، مُدَّةَ كونه بجيَّان ، يُخاطِبُهُ أقوامٌ من صِنْهَاجَةٍ في حُبَّتِهِ ،
 ويقولون بذلك في المحافل والمجالس سرًّا وجهرًا ، ويروِّن ولايته خيرًا من
 تولية العبيد عليهم واليهود ومن أشبههم ؛ قد سئموا من ذلك ، وأُشْرِبُوا
 المُظْفَرُ من الشَّنَّانِ والبَغْضَاءِ ما لو استطاعوا ، لَخَلَعُوهُ . لكنَّ السَّعَادَةَ واللَّدَّةَ
 ١٠ لم يقطع عليها قاطِعٌ ! والرئيس من هذا كُلِّهِ تحت أمرٍ عظيم ، والناية
 متوقِّعٌ للقتل مساءً وصباحًا ، تكثرُ عليه الأراجيف مع الساعات ، إلى أن
 نجحت تلك المداخلة : فقام المَعَارِبَةُ بالقَصَبَةِ على مَأْكُسَن ، وخرج منها
 فارًّا بنفسه ، هو وجميع من معه ؛ وهرب مُسَكِّنٌ ، لا يُلَوِّى على شيء ،
 يطلبون النجاة بمحاشاة أنفسهم ؛ ووقع فيهم البهتُ ، إذ لم يدروا من حيث
 ١٥ أتوا لَمَّا سمعوا النداء بالليل : « لا طاعةَ إِلَّا لِلْمُظْفَرِ ! » وعجَّلَ الحاجبُ
 بثقاف جيَّان ، واستراح من تلك الفِتْنَةِ .

ولقد حُكِيَ عن المُظْفَرِ — رحمه الله — أنه لما تَهَيَّأتْ له هذه
 السَّعَادَةُ ، رأى النايةَ مهمومًا . فسأله^(١) في ذلك ؛ فقال : « اهتَمَمْتُ
 لخلاص هذه الشرذمة بأرواحهم . ولسنا نأمن شرَّهم في البلاد ! » ومن
 ٢٠ ثَوْرٍ حَتَّى لَا يُلبَسَ هَرَاكيس ! » واسمُ وَلَدِكَ كبيرٌ ! » فأجابه المُظْفَرُ أن

(١) أصل : « فقال له في ذلك » .

قال : « الذى حلّ بهم أشدّ من القتل ، لخلاصهم ^(١) عن أوطانهم وكشفهم في انتقامهم بأهاليهم إلى من يتولّى خدمتهم ويُرَكِّبهم ويُزِلُّهم . وللوت دون هذا راحة ! »

فقصد ما كُنَّ إلى طَلَيْطَلَة ، وصار بها عند ابن ذى النون * مُكْرَمًا ،
 ٥ على حال الجُنْدِيَّة . وتقلَّب مُسَكِّنٌ في البلاد ، يخدم الجُنْدِيَّة . وصاروا أبايد .

٣١ - استيلاء الناية على يَياسَة

/ وزاد جاهُ الناية بفرناطة ، وأخملَ صِنْهاجَة ، وأظهر لهم البغض لنفاقهم
 كان برزعه على اليهودى وعلى الحاجب فى ابنه ؛ واستخصَّ بنى برزال
 وأحسن إليهم ، وقرَّبهم من نفسه ، وهم كانوا أولياءه ^(٢) وأنصاره ، وبثَّ
 ١٠ فيهم الطايا . وأخذ السلطانُ إلى الراحة .

ثمَّ إنَّه ، لما فُوِّضَ له الأمر ، رأى أن يجعل لنفسه ذِكْرًا وثناءً يؤثّر
 عنه ، فى غزو البلاد ومُداخلة بعضها . فانتدب إلى مدينة يَياسَة ،
 وقال للمظفر : « إنَّ مُداخلةَ بعض أهلها عندى ا » وكانت إذ ذاك لولّد
 مجاهد . فقال له الحاجب : « لا تتعرّض إليها ، ونحن فى دَعَةٍ ! وكأنى
 ١٥ والله أرى تنفق عليها الأموال ، وتُهْلِك الرجال ، ولا تُحصِّل على فائدة ا »
 فألحَّ عليه وزيرُ له الأمر ، حتى أجابه إلى ما سأل ، وأمره بالسَّير ، وهبًا
 معه الجيش ، وأعطاه الأموال . فرآم من بيّاسة أمرًا عظيمًا : كلُّ ذلك
 يتعذّر من أمرها ما لا يُرجى به أخذها ، حتى سُمَّ السلطان النفقة ومنع
 منه اللال .

(٢) أصل : « أوليائه » .

(١) أصل : « خلاص » .

- وكان في المجلس ممن يطالبه بذلك رجلٌ كاتبٌ للمظفر يُعرف بابن أضْحَى ، ويقول للحاجب : « لم تَقِمْ بيّاسة وعشرة أمثالها ببعض هذه النفقات التي كُنْتَ عنها في غِنَى ! » وكلُّ ذلك يتَّصل بالناية ؛ فيُخرج المغايرَ ، ويغني الأغانمَ ، ويوجِّهُ بها إلى مولاه ليَجْبُرَ منها بعض نفقاته ؛ فكان ابن أضْحَى يبيعه ببيعٍ من الثمن ، ويحضر المال بين يديه ، ويقول له : « أين هذا بما أَفْقَتَ ؟ » فيخرج أخلاق المظفر عليه ؛ فيصبر عليها الناية ؛ واستسلف طعماً كثيراً من شيوخ جَيّان . وكان بانياً على أنّه ، إن لم يقدر فيها على شيء ، أن يكون ذلك طريقه فاراً ، لا ينصرف إلى غرناطة ، إلى أن استفتحها بكثرة المواظبة والملازمة ، وكانت عليه الصولة على مُطالبِيه بذلك . ودخل * المدينة في عزّة ورفعة وإكرام من السلطان جسيم ، مُهدِّداً ٢٦ (ب) لمن طالبه ، ومُستطيلاً بذلك مُعلناً .
- وقدم إلى المظفر يقول له : « لا أدخل البلدَ حتّى تأمرُ بنفي ابن أضْحَى أو أنصرف من مكاني هذا ! » فرأى الحاجب أن نفي ابن أضْحَى أوّل من فساد عسكره . فأمر بنفيه ، بعد تغريمه وإهانته . وخرج من ذلك الوقت ساعياً على الدولة ومُطالباً لها إلى زمان ولايتنا ، حتّى أظفرنا الله به ، على ما يأتى ذِكرُه بعد هذا .

٣٣ — مؤامرة ضدّ الناية ومقتله

- وإنّ وزراء الدولة وكثرة عبيدها ، لما بصروا بما فعل الناية ، والزيادة في أمره وجايمه ، وأنّه هو الحاكمُ دون السلطان ، حتّى قالوا إنّهُ طامعٌ ٢٠ بالرياسة والقيام مع بني برزّال ، وشنع ذلك عليه ، أدركتهم منه أنفةٌ

عظيمة وحسدٌ شنيعٌ . فاتفق رأيهم أجمع ، أعني ولاية البلاد : منهم ولدُ القاضي ، صاحبُ بَاغِهِ وابنُ يَعِيش ، صاحبُ قَبْرَةٍ ، وواصلٌ ، صاحبُ وادي آش ، والقاضي ابنُ الحسنِ النُّبَاهِي بمالقه ، أنه متى قدم إحدى هذه الجهات ، قُتِلَ فيها ، وأُرْسِلَ في ما كُنَّ — وقُدِّم — أراد والله أم لم يُرِدْ .

ثم إنَّ النفر المذكور عملوا رأيهم ، وفكروا في العاقبة ، ورأوا أن يقتله واصلٌ العليجُ بوادي آش ؛ [فيكون ذلك] أستر لقتله وأبعد للظنِّ بهم : فإن عاقبَ عاقبَ غلامه وتبرأوا من ذلك . فوعد واصلٌ المذكور على ذلك بالوزارة مكانه ، وضمنوا له توطيدهم للأمر عند السلطان ، حتى تهياً ذلك في دماغ العليج ، واستعدَّ لقتله ، إلى أن حدث بوادي آش أمرٌ لم يكن بُدًّا للسلطان أن يرسل وزيره فيه ، من تحصيل أموال والكشف على أحوال . فنهض في آنحس وقتٍ وأشرَّ قدر . وكان واصلٌ هذا المذكور من أكبر صنائع الناية ، وبمن أطباء بإحسانه ، وشرَّفه عند السلطان ، ورفضه من الخفيض . ففشا الأمرُ عند الناس قبل ذلك أن واصلًا عازمٌ على قتل الناية .

وحكى لي إنسانٌ من البربر ، قال : « نصحتُه بذلك وحذرتُه أن لا ينهض إليه ، وأنَّ مثله لا ينزل في داره ؛ فكان من جوابه : « تريدون أن تنزعوا الرِّيبَ من أنفسكم وتردُّوها على أصدق الناس إلى » ١ « فلما توجهَ إلى وادي آش ، ونزل في منزل واصل ، أظهر له إكرامًا وتبجُّلاً لم يكن عليه قَبْلَ ، حتى اطمأنَّ ، وانصرف عنه أعوانه . ولما دخل الليل في جنَّه ، أتاه واصلٌ برمح ، وهو سكران ؛ فضربه ضربةً أفقدته بها ، حتى أثَّرت الضربة في الحائط ؛ وقطع رأسه وطوَّفه صبيحة الليلة [بأزقة مدية وادي آش

- ومُنَادٍ ينادى [: « هذا جزاء من طلب ما لا يعنيه ! »
- فورد الخبر فجأةً بغرناطة ، وبُهِتَ له الناس ؛ ولم يَدْرِ أحدٌ من حيث أتى ، ففهم من يقول : « السلطان دسَّ إليه ، إذ لا يمكن لتلك العليج أن يتعدى ! » وبلغ ذلك من السلطان مبلغاً عظيماً ، وعلم أن هذا من اتفاق عليه ؛ ودخل منه في بحر طامس ، حتى أسهر ليله وامتنع من لذته . وأظهر للناس تجلداً ، وهدده الجند ، وأرسل إلى واصل بالأمان ، يأمره بالقدوم عليه ، ويشكره فيما فعل ، سياسةً منه وتوطيداً إلى أن يستبرى كيفية الحال ، وينظر لها على مهل . فزاد بذلك العليج حاقةً ، وقال مُعلنًا : « لم أَدْخِلْ يدي في هذه القضية وحدي ، حتى يساعدني عليها من لا يُنال بهم عن أحدٍ ! »
- ١٠ وأتى مُشترطاً للوزارة . وكَلَّمَ وَلَدُ القاضي المظفر في أمره وقال له : « إنَّ هذا العبد ، وإن جنى عليك في قتل وزيرك ، فإنما فعل حُباً منه فيك ورغبةً في قُرْبك ؛ وهو أحقُّ من ذاك إذ هو تربيتك ! » وجعل [أهل] الدولة يمتنون به ويسألون العفو له . فأحسَّ السلطانُ ذلك في نفسه ، وأيقنَ أنَّ هذه النصبة لم تكن إلاَّ عن اتفاقٍ عليه ، وحسب نفسه مخلوعاً لا محالة . فإنه ، ساعةً
- ١٥ ما قُتِلَ الناية ، أُرْسِلَ عن ما كُنَّ إلى طليطلة ، ووُجِّهَ* إليه بخاتم الناية ٢٧ (ب)
- كفى يتحقَّق قتله ، وقيل له : « ليس بغرناطة عليك مختلفٌ ولا من يصدُّك ! » إلا أنه لم يتجاسر حتى يرى إلى ما تؤول الأحوال . فكظم الحاجب هذا في نفسه ، واحترق له قلبه ؛ ودارى جميعهم ، وصوبَ فعلَ واصلٍ ، وقال : « هذه نارٌ موقدةٌ ليس ينتدني منها إلا إطفائها والنظر لها على سعةٍ ! »
- ٢٠ وأمرَ بتقديم واصلٍ على الخليل .

٣٣ - استدعاء الأمير باديس ولده ما كَسَنَ ورجوعه إلى الحضرة

واتفق رأيُ الجميع ، مع بعض أهل قصره من النساء ، أن يُدْخَلَ عليه ابْنُهُ ، ويُخْلَعَ من أجله على كلِّ حال . فلما رأى المظفر اتفاقهم عليه ، وأحسَّ بهذه المصايب ، ولم يَرِ لنفسه مع من يستريح ، أرسل في أبي الربيع النصرانيَّ ، وكان فيما مضى كاتبَ حَشَمٍ ، قد عرف خدمة اليهوديَّ وتصرَّف معه ؛ فأرسل عنه سرًّا ؛ وأتت كُتُبُهُ قبل ذلك ، فراجعَ عنها بخطِّ يده . فكان ذلك زيادةً في الشرِّ وخبالِ الدولة . فلما أحسَّ بهذا ولَّدُ القاضي صاحبُ باغِه ، شافَهَ المظفرَ في الأمر وقال له : « إن كنتَ تعزم على أبي الربيع ، فنحنُ لا نبقى معك ، ولا ياتوى أحدٌ حوالتِكَ ! » فأجابه : « ألا أتقَى اللهُ منكم أحدًا ! » وضيَّع الحزم في هذا ، لا سيَّما أنه قد عَلِمَ أن بيده مدينة لا يملك منها معه شيئًا ؛ فَعَمِلَتْ في نفس صاحب باغِه وأهل الدولة ، وتضَيَّرَت الأُنُسُ ، وكثُرَ الإرجاف . واتفق مع صاحب قَبْرَةِ ، وكان صديقه قديمًا ، إلى أن ورد أبو الربيع .

فاستراح إليه المظفر على المقام ، وأعلمه بما حلَّ به . وأتاه المذكورُ من دَانِيَةِ ، إذ كان بها من وقت قتل اليهودي . فقال له أبو الربيع : « قد أيقنتُ أنهم أرسلوا عن ابنك ، ولا يختلف عليه . ولا قدرة بك على مُكابرة العائمة والخاصة ! فالرأي في ذلك والحيلة أن تتلافى الأمر ، وتوجَّه في ابنك ، وتكتبَ إليه بخطِّ يدك بالغو عنه وإيثارك له على كلِّ والٍ لم يَصُلِحْ لك ، وأَنَّكَ مقدِّمُهُ* لولايتك ومورثُهُ مُلْكَكَ . فإنك ، إن فعلتَ ، هَدَّنتَ قلوبَ هذا العالم ٢٨) وتَقَمَّنْتَ مسرَّتهم^(١) . فإذا وصل ولدك بين يديك ، كنتَ في أمره بالخيار ،

(١) أصل : « سارم » .

وتخذمت قصته على سعة : فمكابدته ، وهو معك ، خيرٌ من مكابدة شره مع بعده ! ولست تأمن مكره حيث ما توجه ! »

فرضى المظفر ذلك من قوله ، وأرسل على المقام عنه قهياً كبيراً من قهائنه يؤمنه ويوطئه ، ويبشّره بمذهب أبيه واستخلافه له ، وأنه ليس في الدولة من بنيه من يُرجى لهذا الأمر سواء ، وكتب إلى ابن ذى النون يرغب في تسريحه إليه . فسرّ بذلك جميع الناس ، وانصرفت نفوسهم عما كانت عليه ، وطفئ العالم في محبة ما كُنن ، ورجّوا الخير معه ، إلى أن ورد في أنحنس طالع وأنكد جد .

فأنسه أبوه ، وبذل له الأموال ، وجعل يوصيه بوصايا لم تنفعه ، أراد بذلك ضره وانصراف نفوس الناس عنه . فأول ما أمره به بالشدة والفظاعة ، وبنّض إليه صنهاجة ، وقال له : « أنت تعلم ما شقيت أنا بهم بعد حبوس ! فصل عليهم ليهابوك ، وليس في الدولة غيرك إلّا بنى أخيك : فهم أطفال صغار ! » وكان ما كُنن من السفه وعجز الرأي وقلة الفطنة بحيث لم يخف على أحد . فزاد على ذلك أضعافاً مضاعفة . ووافق سوء طبعه مقالة أبيه : فتحكم الشر فيه ، ولم يقدم شيئاً على شتم الناس والاستهزاء بهم ؛ ومن العجب أنه كان أبغض العالم فيمن أحبه وسعى فيه ؛ فجعل يبلغ من أعراضهم وتكليفهم ما لا يطيقون وما انصرفت نفوس العالم فيه إلى البغضة ، وتبين لهم من قلة عقله ؛ وأجمع * الكل على ألا خير فيه يُرتجى .

٢٨ (ب)

وكانت بنت عمه أم الملو طامعة بزواجه ؛ وكانت مُطاعة في قومها : قد استمات أكثر نساء الجند ؛ فأول ما ابتدأ بتهجينها وشتيمها ، وأنها فيما يزعم لا تصلح له . فزاد ذلك في نحسه والسئى بكل وجه عليه . وكانت كريمة

المُظَفَّرُ الساعية في خبره بعد سعيها في قتل أمّه ، قد أغارت من أن يكون ما كَسَنَ يزوج بنت عمّه ، جذراً منها أن تجعل منها حاشيةً وتمنع حرمتّه . واتّقى من ذلك واصلَ وامرأته ؛ فقال^(١) لها : « أئى فائدة لك في زواج أمّ العُلُو؟ لكنّ الأولى بك أن تعطيه صبيّةً من تربيتك ، تكونين^(٢) من أجلها حاكمّةً على داره ! » ففعلت ذلك وأخرجتها إليه بأموال ، وصوّرت عند السلطان أنها تُوفّيَت ، لئلا يطلبها في قصره ، باسمِ أخرى ماتت عندها .

وشقّ على بنت عمّه ذلك كلّهُ ، ورجعت تسعى عليه مع نساء البربر ، وتدخل بين امرأة واصل للذكور ، وبين كريمة الحاجب ، وتقول لها : « إذا أردتِ الافراد بما كَسَنَ ، فما حل امرأة العِلج على السكنى معه ؟ » فمِنعت الدخول إلى داره ؛ فأفنت لذلك . وكان مع ذلك زوجها واصلٌ يُوَثِّرُ عليها صبيّةً كانت لها ، ويُوَثِّنُها من أجلها . فاجتمع على المرأة الغيرةُ والأنفةُ لما طُرِدَت عن دار ما كَسَنَ ؛ فلم تلبث أن مضت إلى أبي الربيع النصراني : وقالت له : « أنا أمةُ المُظَفَّرِ : فليَنظُرْ من نفسه ! فإنّ الاتفاق على وجه كذا وكذا ! » وبيّنت جميع ما راموا من غدره . فأبى أبو الربيع إلى الحاجب مسروراً ، وقال له : « أنظُرْ كيف تبتدى سعادتك في تشيت هؤلاء القوم ! أخبرتني امرأة واصل بكذا وكذا ! ألم أقل لك^(٣) ؟ »

(١) أصل « فقالوا » . (٢) أصل : « تكون » .

(٣) إلى هنا انتهى ما هو موجود في نسخة « مذكرات عبد الله » الوحيدة من تاريخ دولة باديس

ابن حبوس جد المؤلف .

الفصل الخامس

إمارة عبد الله بن بُلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب

(١) مشاكل الأندلس الخارجية وحال الجزيرة

عند ابتداء إمارة عبد الله .

٣٤ — رفض مطالب الفونش السادس واشترائه

مع ابن عمار

[..... وأما] * أَلْفُونشُ ، لَمَّا تَيَقَّنَ هَذِهِ الْفِتَنَ ، عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ ٢٩ (١)

من أَكْبَرَ سَعَادَتِهِ وَأَعْظَمَ فُرْصِهِ فِي طَلَبِ الْأَمْوَالِ . فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولَهُ :

أَوَّلَ مُدَاخَلَةٍ نَشَأَتْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ؛ فَأَتَى بَاطِرُ شَوْلَشْ يَطْلُبُ مِنَّا ضَرِيئَتَهُ .

فَأَبَيْنَا عَلَيْهِ ، وَاجْتَمَعَ رَأْيُنَا عَلَى أَنَّ لَا نَفْعَ ، وَأَنَّ ضَرَرَ أَلْفُونشُ لَا يُخْشَى

وغيرنا أَمَانَتَنَا ، نَعْنِي بِذَلِكَ ابْنَ ذِي الثَّنُونِ . وَلَمْ نَقِسْ أَنَّ أَحَدًا يُعَاقِدُهُ

عَلَى مُسْلِمٍ . فَانصَرَفَ عَنَّا دُونَ عَمَلٍ .

وإنَّ ابْنَ عَمَّارٍ انْتَهَزَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ ؛ وَكَانَ مُنْتَظِرًا لَهُ بِبَاغِهِ ، مُرْتَقِبًا

لِمَا يَصْنَعُ مَعَنَا . فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَمْ يَتِمَّ لَهُ عَمَلٌ ، أَلْقَى يَدَهُ فِيهِ عَلَى الْقَامِ ١٠

وَقَالَ لَهُ : « إِنْ كُنْتُمْ ^(١) مُنْقِصُونَ عَشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ (وَهِيَ الَّتِي سَأَلَ عَنْ

ضَرِيئَتِهِ) ، فَتَحْنُ نَعْطِيكُمْ خَمْسِينَ أَلْفًا ، عَلَى أَنْ تُعَاقِدَ كُمْ عَلَى غَرْنَاطَةِ :

(١) أصل : « إِنْ كَانَ مِنْكُمْ » .

نمطونا القاعِدة ، ولكم ما فيها من الأموال ! » فعاقدوه على ذلك . واتفق رأيهم على أن يبنوا على غرناطة مَقِيلًا يَضِيقُ عليها حتى تلقى يدها . وكان ابن أَصْحَى ، للذكور قبل هذا — هو المُنْخَرَجُ على يدي الناية — قد انحاش إليهم ، يدلُّ بهم على عَوَرات البلدة ، ويريههم أَشدَّ ما يكون عليها من المَوَاضِعِ إن بُنِيَ ، ويجعل فيه ندباً للضرب والتضييق . فأراهم حِصْنَ يَلِيلُش . ٥

وأكرى ابنُ عتار من عسكر أَلْفُونُش ما قوى به على البُنيان بأعداد من الأموال جسيمة ، يسوِّفهم فيها تارات ، ويمدُّهم ويُخادِعهم ، حتى تمَّ البُنيان . وجعل المُعْتَمِدُ يُحاول ذلك بنفسه ، ويبرز أبدأ على مقربة من غرناطة مدَّة كَوْنِهِ ، طمعاً في أن يقومَ معه أهلُ البلدة . فلما تمَّ بُنيانُهُ ، قواهُ بالندب ، وأتخذ فيه جميع الأوقات ، وأمرهم بالتضييق . وكانت الحالُ شديدةً ، ونَسِيَ به أثرُ القلعة . ١٠

وعند انصراف المُعْتَمِدِ عنه وعساكرِ الرُّوم ، عَظَّينا عسكراً كثيراً ، ونَهَضْنَا إليه ؛ فلم نقدر فيه على شيء . واقطع رجاء الناس من دولتنا ، لاجتماع المطالبين عليها مع الرومي . وتَدَمَّنَّا على التفريط أَوَّلًا في مُعاقَدته حَسَبَ ما سأل . وكان من أحسن شيء* على السلاطين أَخْذُ مَقِيلٍ بالسيف ؛ ٢٩ (ب) فَإِنَّهُ ، متى اعترض ، لم يَسْتَطِعْ على دخوله لمنعته وما عُدَّ فيه ، ولا على إحصاره ، حتى ينفد ما فيه لقوَّة تَأْتِيهِ ، فيُقلِّع عنه إلّا من كان أقوى . ولم نَكُنْ نَحْنُ إلّا مُتَكَافِئِينَ في ذلك : متى ما أُعْطِيَ أَحَدُنَا لعسكري ٢٠ مالا ، وأراد الآخرُ نَقْضَهُ ، أَرْبَى عليه وأراحَهُ منه .

فكانت يَلِيلُش قد أَفسدت ، وضِيقٌ على فَحْصِ غرناطة ؛ ولم يَكْفِ

ما حلَّ من أجلها حتى جعلنا القوتش أن نفرم ما فاتة منا ، تباعةً وتذنيباً لرفضنا إيَّاه ، واستدفاعاً لما يُتقى من تماديهِ على الطلب . وابنُ ذى النون فى هذا يتوسَّط له بالأمر ، ويسعى فى تصيير المال إليه ، يرضيه بذلك وينتظرُ فسادَ مملكتنا ، فيفتريها هو أو يأخذَ منها حصته .
 ٥ فكان — على ما قدّمنا ذكره — عدواً فى الباطن ، صديقاً فى الظاهر . وهو مع ذلك لا يزال يُدْخِلُ قُرْطُبةً ، ويسعى جهده فيها ، إلى أن قدَّر الله ، وافتَرَصها عُذْراً بِمُدْخَلَةٍ من بعض أهلها ممن لا خطرَ له . واستُشْهِدَ فيها ابنُه عَبَّاد [بن المُعْتَمِد] وقائده ابنُ مَرْتَبِين .

فلما انقضت بُقْرُطُبة هذه الدائرة ، وسمع بالخبر أهلُ بِلَيْلِش ، أخذوها على اللقاص ؛ ودخلها رجالنا ، وصارت فى مِلْكنا مُشِيدَةً مُبَيَّنَةً . فنظرنا منها بالذى نصنع بِقَصَبَةِ غُرناطة . وتروَّحُ نَحْنُفُها من حيث لم يُحْتَسَبُ .
 ١٠

٣٥ — المهادنة بين عبد الله وابن صُمَادِح صاحب التمرية

وكان قائداً مدينة بَسْطَةَ ابنُ مَلْحان ، رَجُلٌ معجبٌ ، قد شَرِهَتْ نفسه إلى رُتَبِ الملوك . وكان المُطَقَّر — رحمه الله — قد فَوَّضَ إليه أمرَ البلدة عِوَضاً من أبيه . فلما صارت لنا الدولة ، وكثر فيها آراءُ الوَزَرَاءِ ، جعل كلُّ واحدٍ منهم يطلبه ببال ، ويسأله مُتَاحِفَات : فمن لم يعطهِ ، طالبُهُ وأذاهُ ، مع صغر سنِّنا ؛ فلم يَجِدْ سبيلاً إلى الدفاع عن نفسه ، ولا شكوى لمن يذبُّ عنه ويحميه . فترامى على ابن صُمَادِح وقبه ؛ وصارت البلدةُ إليه ؛ وعَلِمَ أنَّه لا يُفانن طولَ مدَّة الغِنَّة مع ابن عَبَّاد .

٢٠ ثمَّ إنَّه غدر* حِصْنَ شَيْلِش ؛ ونحن ، فى ذلك كله ، لا نفتر عن مُحَاوَاة ٣٠ (١)

بالإضرار ببلده . وصار إلينا مع حصن شنت أفلج من معاقله ما وقعت
المعلوضة به من شيلش . وصالحناه مهادنة وانجراراً للحال ، حتى نرى
ما نصنع مع ابن عبّاد .

٣٣ — مهاجمة ألفونش السادس على غرناطة

واضطرار عبد الله إلى المهادنة معه .

٥

ويبقى ابن عمار مرتين كما جعل على نفسه للنصراني من كراء بليش
في تبعات كثيرة وجرايات جسيمة يُقَطِّعُها له ، ويَعِدُّه بها . وأدخل سلطانه
من ذلك في تشبيب ، لأنه كان لا يريد أن يجعله يخلد إلى راحة ليكن
يحتاج إليه في تلك الفتنة لا يقرُّ عن إدخال ضررٍ على المسلمين . ومتى
١٠ ما كان المَعْتَمِدُ يسعى في تهدين الأمر ، ونزوم معه الصلح ، أو تنشأ
مهادنة ، لا ينام في نقضها وإشعال نار الفتنة .

فعاد ثانية إلى النصراني ألفونش ، وزين له أمر غرناطة ، وصوّرنا
عنده في صورة من لا يقدر على شيء من أجل الضعف وسن الصبا ،
وأنه ضامن له أموال غرناطة لتصير إليه بأمرها ، على أن يُعاقده ،
١٥ إذ تمكن من البلدة ، أن يجعلها ملكه ، وله ما بقي من أموالنا . وألقي
بده في ألفونش ، عازماً عليه في الإقبال إليها ، وأعطى على ذلك أموالاً
جسيمة ، ووعد به خمسين ألف منقال إذا تمت القضية ، سيعطيها زائدة على
ما يجد ، لمساعدته على السير .

فأذرك الرومي من ذلك طمع كبير ، وقال : « هذه نصبة لست
٢٠ أخلو فيها من فائدة ، وإن لم تحصل البلدة ! وأى فائدة لي في إعطاء

بلقة من واحدٍ لآخرٍ إِلَّا تَقْوِيَّتُهُ عَلَى نَفْسِي ؟ وَكَلَّمَا أَكْثَرَ الثَّوَارُ ، وَوَقَعَ
 بَيْنَهُمُ التَّنَافُسُ ، كَانَ لِي أَفْعَدُ ! » فَأَتَى عَلَى نَبِيَّةٍ أَخَذَ مَالِ الْفَرِيقَيْنِ ،
 يَكْسِرُ رُؤُوسَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ . وَلَا كَانَ أَيْضًا فِي أَمَلِهِ أَنْ يَأْخُذَ الْبِلَادَ
 لِنَفْسِهِ ؛ فَإِنَّهُ عَمِلَ فِي ذَلِكَ حَسَابًا أَنْ قَالَ : « إِنَّا مِنْ غَيْرِ الْمَلَّةِ ؛ وَكُلُّ
 ٥ النَّاسِ يَشْتَأِي ؛ فَبِأَيِّ وَجْهِ أَطْمَعُ فِي أَخْذِهَا ؟ إِنْ كَانَ مِنْ بَابِ الطَّاعَةِ ،
 فَأَمْرٌ لَا يُمْكِنُ ؛ وَإِنْ كَانَ مِنْ وَجْهِ الْقِتَالِ ، فَيَهْلِكُ فِيهَا رِجَالِي * وَتَذْهَبُ ٣٠ (ب)
 أَمْوَالِي ، وَتَكُونُ الْخُسَارَةُ عَلَى أَكْثَرِ مِمَّا نَرْجُوهُ إِنْ صَارَتْ إِلَيَّ .
 وَلَوْ صَارَتْ ، لَمْ تَتَمَسَّكَ إِلَّا بِأَهْلِهَا ؛ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُونَ ! وَلَا مِنَ التَّمَكُّنِ
 أَنْ تَسْتَبِيحَ أَهْلَهَا وَتُعَمِّرَهَا بِأَهْلِ مِلَّتِي ! وَلَكِنْ الرَّأْيَ ، كُلَّ الرَّأْيِ ،
 ١٠ تَهْدِيدُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، وَأَخْذُ أَمْوَالِهِمْ أَبَدًا ، حَتَّى تَمُوتَ وَتَضَعُ ؛ ثُمَّ
 هِيَ تَلْقَى يَدَهَا إِذَا ضَعُفَتْ ، وَتَأْتِي عَفْوًا ، كَالَّذِي جَرَى بِطُلَيْطَلَةَ إِنَّمَا
 كَانَ مِنْ قَرَرِ أَهْلِهَا وَتَشْتَتِهِمْ ، مَعَ انْدِبَارِ سُلْطَانِهَا ، وَصَارَتْ إِلَى يَلَا
 مَشَقَّةً ! »

وَكُنَّا نَحْنُ نَعْلَمُ هَذَا مِنْ مَذْهَبِهِ ، عَلَى مَا كَانَ يُخْبِرُ بِهِ وَزَرَاؤُهُ . وَلَقَدْ
 ١٥ قَالَ ذَلِكَ شِشْلَانْدُ فِي حَالِ هَذِهِ السَّفَرَةِ ، وَشَافَهُنَا بِذَلِكَ ، وَقَالَ : « إِنَّمَا
 كَانَتْ الْأَنْدَلُسُ لِلرُّومِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ، حَتَّى غَلِبَهُمُ الْعَرَبُ ، وَالْحَقُّومُ
 بِأَنْحَسِ الْبِقَاعِ : جَلِيقِيَّةٌ ؛ فَهُمْ الْآنَ عِنْدَ التَّمَكُّنِ ، طَامِعِينَ بِأَخْذِ ظُلَامَاتِهِمْ !
 فَلَا يَصْحُحُ ذَلِكَ إِلَّا بِضَعْفِ الْحَالِ وَالْمُطَاوَلَةِ ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مَالٌ
 وَلَا رِجَالٌ ، أَخَذْنَاهَا بِلَا تَكَلُّفٍ ! »

٢٠ فَكَانَ الْجَمِيعُ يُسَايِرُ الْأُمُورَ ، وَيُدَافِعُ الْأَيَّامَ ، وَيَقُولُ : « مِنْ هُنَا
 إِلَى أَنْ تَمَّ الْأَمْوَالُ وَتَهْلِكَ الرِّعَايَا بِرَحْمِهِمْ ، يَأْتِي اللَّهُ بِالْفَرَجِ وَيَنْصُرُ الْمُسْلِمِينَ ! »

فورد علينا من إقبال ألفونش مع ابن عمار هَوْلٌ عظيمٌ ، وصحَّ
 عندنا أنه لم يأتِ إلَّا طالبًا لملكنا : قد استوثق من ألفونش على ماقدتنا
 ذِكْرَهُ . ثمَّ أرسل إلينا ينذرُ بإقباله ، ويأمرُنا بالخروج إليه ، يُرى أنه
 يذهب إلى تجديد العهد والاجتماع بنا ، على ما يفعله مع السلاطين . فلم نشكَّ
 أن ذلك للتبعض علينا وإنجاز ما عاقدَ عليهم . فاجتمع علينا أهلُ الرأي
 والمشورة ، وقالوا : « ما الذى تذهب إليه ؟ هذا عدوٌّ قد جاء لطابك ،
 ولا قدرة بك على مناواته ! وسواء عليك خَرَجْتَ أم بَقِيتَ ! فإن أنت
 بقيتَ ، حَلَّتْ بك الداهيةُ العظمى ، ووقعت المفسدة ، وأصاب مطاربك
 سيلاً إلى القتل ؛ وتكون هذه أشدَّ من الأولى ، وقت رَفَضْنَا بَطْرَهُ سُولِس
 ١٠ وألقى ابنُ عمار يَدَهُ* فيه حتى بَنَى علينا بِلِيلِش . والآن لم يَدْرُوحُ مُحْتَفَنًا ٣١(١)
 حتى نعود إلى ما هو أدهى وأمرُّ ؛ فلو رأت الرعايا بعض خلاف من هذا
 الجيش ، لم تُبْقَ ولا تَذَرُ لشعبة ما قد دَهَوْا به قَبْلَ ، وكان الرجاء ينقطع ،
 وي تلف الكلُّ حتى تُؤْخَذَ هُنَا باليدِ على غَيْرِ صَلَاحٍ ، فلا يرقب فينا
 إلَّا ولا ذِمَّةٌ ! فالخروجُ إليه أيسرُ لأمرين : فإن كانت سلامة ، شكرتَ
 ١٥ رأيك ، وثبت مُلكُك ؛ وإن كانت الأخرى ، كان خروجُك عن
 أمانٍ ، وصِرتَ حَبِيرًا فى العافية ! فاعزَم على لقائِهِ^(١) ، وقُلْ له قولًا
 لِيُنَا ؛ ولله أن يُنفذَ قضاءه .

فاستعدَدنا لذلك جهَدنا ، وأَجْمَعْنَا حَوَالَيْنَا مَنْ يَثِيقُ به من رجالنا ،
 وأَخَذْنَا أَهْبَةَ الْحَالِ ، ولقينا على مقربة من المدينة ، وبألَغْنَا بالضرورة فى
 ٢٠ إكرامه ؛ فأعرض علينا وَجْهاً يَسِيطًا وَخَلَقًا حَسَنًا ، ووَعَدَنَا أَنَّهُ يُجَامِي

(١) أصل : « لقاء » .

عنا كما يُجايى عن بَلَدِهِ .

ثمّ وقعت المُعاملة ، ومَشَتْ الرُّسُلُ مِنَّا إِلَيْهِ وَمِنْهُ إِلَيْنَا ، يُبَيِّنُ مَا عُوِّدَ عَلَيْهِ وَأَنَّهُ سَيَقَى سَوْقًا ، ويقول : « إِنِّي قَدْ تَشَبَّثْتُ فِي الْأَمْرِ ، وَلَمْ تُعْجَلْ حَتَّى نَسْمَعَ مَا عِنْدَكُمْ . فَإِنْ جَاءَلْتُمُونِي وَرَأَيْتُمْ لِقَصْدِي وَجْهًا ، انصرفتُ عَنْكُمْ عَلَى خَيْرٍ ، وَإِلَّا ، فَهَا أَنَا مَعَ مَنْ عَاقَدَنِي ! » وَطَلَبَ خَمْسِينَ أَلْفَ مَنَقَالٍ .

فَشَكَّوْنَا إِلَيْهِ قَلَّةَ الْبِلَادِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَقْدَرُ عَلَيْهِ ، وَفِيهِ مِنَ الْقَطْعِ لَنَا مَا يَقْتَرِصُنَا بِهِ ابْنُ عَبَّادٍ ؛ فَإِنَّهُ ، لَوْ أَخَذَ غِرْنَاطَةَ ، قَوَى عُنُصْرَهُ ، « وَلَمْ يَنْطَعْ إِلَيْكَ . فَخُذْ مَا تَقْدِرُ إِلَيْهِ ، وَاتْرُكْ رَمَقًا لَا نَسْتَأْصِلُ مِنْ أَجْلِهِ ! وَمَا تَرَكْتَ ، تَجِدْهُ عِنْدَنَا مَتَى مَا طَلَبْتَ ! » قَبْلَ الْعُذْرِ بِعَدِّ جُهْدٍ عَظِيمٍ ، وَفَاطَنَاهُ لِقَصْدِهِ بِخَمْسَةِ وَعَشْرِينَ أَلْفًا ، نِصْفَ الْعَدَدِ ؛ ثُمَّ أَعَدَدْنَا لَهُ مِنَ

الْفَرَسِ وَالثِيَابِ وَالْأَنِيَةِ كَثِيرًا ، اسْتِدْفَاعًا لَشُرِّهِ ؛ وَجَمَعْنَا ذَلِكَ كُلَّهُ فِي خِيَاءٍ كَبِيرٍ ، وَدَعَوْنَاهُ إِلَيْهِ . وَلَمَّا رَأَى الثِّيَابَ اسْتَحْقَرَهَا ؛ وَوَقَعَ الْإِتْفَاقُ مَعَهُ عَلَى زِيَادَةِ خَمْسَةِ آلَافٍ مِثْقَالٍ لِيَتِمَّ بِهَا ثَلَاثُونَ أَلْفًا ؛ فَأَكَلْنَاهَا لَهُ ثَلَاثًا يَنْفُسُ الْأَكْثَرُ عَنْ* الْأَقْلَى . فَشَكَرَ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَطَابَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ . ١١ (ب)

وَرَجَعَ إِلَى ابْنِ عَمَّارٍ يَقُولُ لَهُ : « كَذَّبْتَ لِي فِي قَوْلِكَ إِنَّ غِرْنَاطَةَ فِي ضَعْفٍ ، وَإِنَّ صَاحِبَهَا مِنْ صَغُرِ سَنَةٍ لَا يَعْقِلُ ! وَرَأَيْتُ مِنْ رَتْبَتِهَا وَأَحْوَالِهَا مَا خَالَفَ قَوْلَكَ ! »

فَرَجَعَ ابْنُ عَمَّارٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَنَا عَقْدًا يُوقِفُ عِنْدَهُ ، وَاسْتِمَالَهُ عَلَى أَخْذِ إِسْطَبَّةٍ مِنْ عِنْدِنَا ؛ وَكَانَتْ مَمْقُولًا عَظِيمًا مِمَّا يَلِي جِهَاتٍ إِشْبِيلِيَّةً ، فَكَانَ أَخْذَهُ قَائِدُنَا كِتَابُ فِي الْفِتْنَةِ . وَسَأَلْنَاهُ نَحْنُ خَبَرَ الْقَلْعَةِ ؛ فَوَقَعَ الْإِتْفَاقُ عَلَى أَنْ تَكُونَ قَلْعَةُ أُسْطَلِيرٍ عِيَوْضًا مِنْ إِسْطَبَّةٍ . ٢٠

وكانت قاشترة ومارتش المتعقلين اللذين على جيان . ومن أجلهما انقطع صاحبها عمنا [ما كسن] ولم تكن لجيان معنى إلا بهما . فترامى ابن عمار في أمرهما على الفونش ، ووعدته على مارتش بأمواله كأنه يشتريها منه . فعزّم علينا فيها للطمع في اللال ، ووعدنا نخن على قاشترة بالمطمر ، وكان ٥ أيضاً حصناً قد اشترك نظره مع نظرننا بيد ابن ذى النون ؛ فضمن خبره أنه يعطيه لنا عوضاً منها ؛ فدافعنا الأمر جهداً : فلم تقدر على أكثر فعل القوى مع الضعيف ،

ثم إنه عقد العقد بين يديه على ذلك ، وأن لا يتعدى منا أحد على صاحبه ، وذكر فيه ما نعطى كل عام من الضريبة : فجعل علينا عشرة آلاف مثقال في العام ، وطيب لنا الكلام بأن قال : « طمع ابن عمار أن نغدر بك ؛ ومعاذ الله من ذلك أن يشيع في الدنيا أن مثلي كبيراً في الرّوم يقصده ، وأنت كبير في جنسك ، ثم نغدر بك ! فابق على أمان ! لا أكلفك إلا الضريبة ، توجّه إلى بها في كل عام دون مغلٍ ؛ وإن تأخرت بها ، أهلك رسولاً عنها وتلزمك عليه نفقات ؛ فبادر بها ! » ١٥ فقبلنا قوله ، ورأينا إعطاء عشرة آلاف في العام ندفع بها مضرته خيراً من هلاك المسلمين وفساد البلاد ، إذ لم تكن بنا قدرة على ملاقاته ومكابرتة ، ولا وجدنا من سلاطين الأندلس عوناً عليه إلا من يسوقه إلينا لهلاكنا . فبقيت الأمور على مصالحة ومهادنة* ورفاهية ، لا يسمع فيها بفتنة . ٣٢ (١)

٣٧ — استيلاء الفونش السادس على طليطلة

٢٠ ومّا هبّاه الله أن فقدنا وسائط السوء بعد ذلك بفقد ابن عمار ، وشغلنا في مرسية ، وبزوال سماجة عنا وأشياعه . وتوفى قبل ذلك ابن

ذى النون عند بلوغه آماله بقرطبة ، وكانت الأندلس قد ارتجت له ، وخافه الرؤساء ؛ فلم يلبث بها يسيراً حتى مات : وكذلك الأشياء إذا تمت . وكان أهل العلم يخبرون بذلك أنه إذا حصل على قرطبة ، فقد تمت أيامه وإذا تم شيء ، دنا نقصه .

- ٥ ثم خلع من بعده حفيده ، وقام عليه أهل بلده ، ولجأ إلى ألفونس ؛ فصرفه إليها على قهرٍ وغلبة ، إلى أن جعل عليه أموالاً جسيمةً ، أشدها ما جعل على نفسه في شراء حصن من ألفونس على مقربة من طليطلة بمائة وخمسين ألف مثقال طيبة وخمسمائة مدي من طعام ضيافة لكل ليلة مدة مقامه عليه : أخذها من أهل بلده حتى ضعفوا . ولزمها ألفونس حتى صارت إليه .
- ١٠ وعوض صاحبها ببكسية ؛ ولم يعترض له مالا ولا أهلاً غير الذهب والفضة . وكان حفيد ابن ذي النون ، في أقل ولايته ، لم يقدم شيئاً على الصدر بوزير جدّه [ابن] الحديدى لسعاية البخاة أعدائه ؛ وسوّلت له نفسه أن قتله لا يصح إلا على يدي قوم قد سجنهم جدّه على بصيرة ؛ فأطلقهم وسلّطهم عليه ؛ ولما تمكنوا منه ، كان كلّهم عليه أشدّ ، وصاروا طالين للثار وكانوا أقوى الأسباب في فساد ملكه ، وهم بنو اللوارىكى ، وبنو مميث ، ومن انحاش إليهم . وكان قديراً على قتله دونهم ؛ لكن العجز وضعف الرأي عمياً عليه وجه الصواب .

٣٨ — استيلاء ابن هود على دانية . بعض أخبار بني هود

- وحصل أيضاً ابن هود على مدينة دانية بنفلة صاحبها عن الرجال وحجّه
- ٢٠ في الأموال ، مع مداخلات أوتى بها من قبل وزيره ابن الرئولة ، الخارج

عنه إلى سَرَقُطَلَة ؛ فحصل عليه مع ابن هود حتى أتاه على غفلة ، ودخل المدينة بلا مشقة ، وحصل منها على عظام من الأموال بوفرها . وكان * ٣٢ (ب) عنده وَلَدٌ مُجَاهِدٌ صَاحِبٌ دَارِيَّةٍ مَكْرَمًا حتى مات .

وإِنَّ ابْنَ هود ، لما حصل على دَارِيَّةٍ ، انفسد طبعه ، وأدركته الرَغْبَةُ ه في البلاد ، وزال عما كان عليه من جهاد الروم ، وطَمِعَ في بَلَنْسِيَّةٍ عند ذلك ، وأعطى عليها أموالاً جسيمة لَأَلْفُونشُ ؛ وَالْفُونشُ في هذا كَلَمَةً ، على ما قدَّمنا ذكره ، يأخذ الأموال ، ولا يحقق لأحد أن يهاوِده على أخذِ بلدٍ . فتوفَّى ابن هود في إثر أخذه لِدَارِيَّةٍ وبلوغه آماله منها . وقد كان ابن التلياط المُنْجَمُ ذكر ذلك كَلَمَةً ؛ ولقد قرأته في بعض كتبه قَبْلَ أن ينقضى ، حتى رَأَيْتُهُ عِيَانًا . ١٠

وكانت قَضِيَّتُهُ في دَارِيَّةٍ كقَضِيَّةِ ابن ذى النون بِقُرْطَبَةِ : فإنَّ ابن هود اهتزت له الأندلس عند حصوله على دَارِيَّةٍ ؛ وجزع جميعُ الرُؤَسَاءِ لَأَخْذِهِ لها دون قتال ولا زمان ، وأَعَدَّ كُلُّ أَحَدٍ عُدَدَهُ مُتَأَهِّبًا لَشَرِّهِ ، إلى أن أراح الله منه ، وقبضه على فِتْنَةٍ واقتبالِ أَمَلٍ .

ثمَّ قام من بعده ابْنُهُ المُوْتَمِنُ ؛ فلم يلبث إلَّا يسيراً حتى مات . وشعر ١٥ للمُوْتَمِنُ لابن الرُّيُولُ وزير أبيه بأعمال فاسِدةٍ مع أَلْفُونشُ ، ليتخدَّم له خدمة ابن عمار ، فبرأس لئلك عنده على أهل زمانه خِذْلَانًا وطغيانًا ؛ فأمر بقتله . وتوفَّى المُوْتَمِنُ ، وورثه المُسْتَعِينُ حَقِيْدُهُ هذا الوالى الآن .

وكان المُوْتَمِنُ رجلاً عالماً ، قد طالع الكُتُبَ ، مع ما كان عنده من الآثار ؛ فرأى مَوْتَهُ قريباً . فكان لا يسرُّ بالملكة ، ويزهد في كثير من الدنيا . ولقد أخبرني بعضُ من حضر بَجَلِسَةِ من أعلام جُنْدِهِ أَنَّهُ كان ٢٠

يُريهم ذخائره التي لم يجتمع مثلها عند ملكٍ ؛ فَيَهْتَنُونَهُ عَلَيْهَا ؛ فيقول لهم :
 « ما أصنعُ بها ، والدَّعةُ يسيرةٌ ، ولا أدخلُ منها قبري إلا بكفنٍ ! »
 فكان يكدر قوله ذلك عليهم ، حتى مات .
 . وكان مُنذِرُ أخوه بدائيةً ، إلا أنَّ أباهُ الشيخَ لم يُمكنهُ من مالٍ ،
 ٥ حذراً منه أن يخالف على أخيه لحدّته وشدّةِ بأسِهِ . فلما توفّي المُقتَدِرُ ،
 اضطربت الفِتنَةُ بينهما . وكان مُنذِرُ منهما* يتَضَعَّضُ لَهُ وَيَتَكَافَى بِهِ ، ٣٣ (١)
 لِمَا كَانَ مِنْ إِحْسَانِهِ لِلأَجْنَادِ وَمَوَاسَاتِهِ لَهُمْ ، إلى أن توفّي بعد أخيه ؛
 وقام ابنُ له صغيرٌ بعلمه ، يُدَبِّرُ مُلْكَهُ وَزِيرُهُ .

٣٩ — ثورة ابن عمار على المُعْتَمِدِ بِمُرْسِيَةِ

إلى أن أخرجه منها ابنُ رَشِيقِ .

١٠

أعماله بعد ذلك ومهلكهُ الشنيع

وصار ابن عمار في حَيِّزِ الخِلافِ على المُعْتَمِدِ ؛ وَجَّهَهُ يَطْلُبُ مُرْسِيَةَ ،
 واعتراه عليها مشقاتٌ ونفقاتُ أموال . وَجَرَى مِنْ أَمْرِ ابْنِ المُعْتَمِدِ عَلَيْهَا
 ما قد شهر . وطال مكثهُ على مُرْسِيَةِ ، يُحْزَبُ عَلَيْهَا الْأَحْزَابُ وَيَنفُقُ
 ١٥ الأموال ، يُرى سُلْطَانَهُ أَنَّ السَّعَى لَهُ ؛ وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ يَجِدُّ لِنَفْسِهِ ،
 لَكِنِّي يَتَّخِذُهَا مَعْقِلًا يَرَأْسُ فِيهِ ، كَالَّذِي صَنَعَ . ولقد كان يقول أهلُ
 الْعِلْمِ بِالْآثَارِ وَالتَّائِيهِ : « إِنَّ مُلْكَ بَنِي عَبَادٍ يَتَنَاهَى حَتَّى يَبْلُغُوا إِلَى تَدْمِيرِ ،
 وَمِنْ ثَمَّ يَتَمُّ هَلَاكُهُمْ . وَكَانَ النَّاسُ إِذْ ذَلِكَ يَتَوَقَّعُونَ عَلَيْهِ الْفَسَادَ عِنْدَ مُحَاوَلَةِ
 ابْنِ عَمَّارٍ لَأَمْرِهَا ؛ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا بَعْدَهُ بِجِينٍ ، عِنْدَ بُلُوغِ الْكِتَابِ أَجَلَهُ .
 ٢٠ وصار ابن عمار بِمُرْسِيَةِ بِأَقْبَحِ طَرِيقَةٍ مِنَ الْاسْتِخْفَافِ بِالنَّاسِ ، وَاسْتِعْمَالِ

للعاصي ، والإيمان على الخمر ، حتى أبغضه أهلها . وكان للمعتد طاعة في معصية ؛ واشتهر بأخذ عريضه وهجو به بما قد نزهه الله عنه ، فقل الأوغاد والأرذال .

وقدم إلى مرسية ابن رشيقي ؛ فكان يطويها وينشرها ؛ وشبك عليه المعادل بقرابته ، واتخذ لنفسه صنائع مدّة غفلة ابن عمار عنه وإقباله على راحته ، إلى أن خرج عن مرسية ، يريد لنفسه في رسالة النصراني ليعلم أمر الأنظار التي تجاوره في الشرق ، وعسى يصعّمها في يديه ، مثل شت مربة ، ويسعى في إصلاح ما أفسد عليه ابن رشيقي ؛ فإنه لم يجد إليه سبيلا لكتبه عليه . ولما نهض إلى القونش ، فأول ما سمى في تضيير طليطلة إليه بمدّخل أهلها ، ليكونوا حاكين أنفسهم ، ويؤثّروا الجزية للنصراني دون رئيس . وأتى طليطلة ، وابن ذى النون فيها باسم الرسالة ، ٣٣ (ب) ووافق على ذلك ، ونحّل القونش عليها ، في حين صرّف حاجيها إليها بعد خلع أهلها له ، لينفي له بوّعه ، ثمّ يعكس عليه القصة ، فيقتل . فسر لذلك ، وغلب حفيد ابن ذى النون الفئة القائمة عليه . فقرّ منهم ١٥ من خلص إلى القونش ؛ وفرّ ابن عمار .

ولما لم تم له خدمة القونش في ذلك ، نهض إلى صاحب سرقطة ، وتخدّم له خبر شقورة (وبها طفر به ، ووُجّه به إلى المعتد) . فلما ثبت أنه استقرّ عند ابن هود ، غدره فيها — أعنى مرسية — ابن رشيقي ، مع استمالته لأهل البلدة ؛ واستحسنوا ولايته . ولم تكن لابن عمار بعد ذلك رجعة إلى مرسية ، وصار خادما عند ابن هود صاحب سرقطة . ٢٠ ولما احتلّ بذلك القطر ، أضرمه نارا ، وأهاج فيه فتنة ؛ وصار سفيرا

لِلإِفْرَنْجِ . وَآثَرُهُ ابْنُ هُودَ ، وَقَرَّبَهُ ، رَجَاءَ مِنْهُ أَنْ يَنَالَ عَلَى يَدَيْهِ مَا نَالَ الْمُعْتَمِدُ ، لِذَلِكَ قَامَ لَهُ عِنْدَهُ مِنَ الطَّارُوسِ بِسَعَادَةِ صَاحِبِهِ ، لَا بِأَعْمَالِهِ . وَكَانَتِ الْعِدَاوَةُ الْوَاقِعَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُعْتَمِدِ عَلَى يَدَيِ الرَّشِيدِ ابْنِهِ ؛ فَإِنَّهُ ، بِفُسُوقِهِ ، كَانَ يَتَكَبَّرُ عَلَى أَوْلَادِهِ ، وَيَضَيِّقُ عَلَيْهِمْ ، وَيُسِيءُ الصَّنِيعَةَ ٥ مع من يجب عليه إكرامه من قرابة سلطانه ؛ وَالْمُعْتَمِدُ ، فِي هَذَا كَلَّهُ ، يَصْبِرُ لَهُ ، وَلَئِنَّهُ كَانَ قَدْ اسْتَمَالَ النَّصَارَى ، وَانْدَخَلَ مَعَهُمْ بِحِيلَةٍ : فَتَى مَا دَهَمَ أَمْرُهُ مِنْ قِبَلِهِمْ ، وَجَّهَ إِلَيْهِمْ ؛ فَيَنْجَلِي مِنْ أَمْرِهِمْ مَا يَضَيِّقُ الصَّدْرُ بِهِ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ بِأَمْوَالِ رَأْسِيهِ وَسَعَادَةِ أَيَّامِهِ ، وَهُوَ يَجْهَلُ يَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَتَهَيَّأُ إِلَّا بِسَبْيِهِ ، وَيَرُدُّ الْحَسَّ كَأَنَّهُ إِلَى نَفْسِهِ . وَكَانَتِ هَذِهِ الْمَعَانِي مِمَّا أَحْنَقَ عَلَيْهِ الْمُعْتَمِدُ ، حَتَّى عَقِبَ عَلَيْهِ بِمَا كَانَ جَدِيرًا بِهِ ، وَأَمَكْنَهُ اللَّهُ مِنْهُ ، ١٠ وَجَازَاهُ بِمَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهُ مُبْدًى ، وَلَا رَأَى لغيره أَهْلًا . وَكَانَتِ شَقُورَةُ قَدْ أَخْلَاهَا الْمُعْتَمِدُ ، وَبَنَى صَاحِبُهَا — عَيْدٌ مِنْ عَيْدِ سِرَاجِ الدَّوْلَةِ — أَنْ يَضَعَهَا فِي يَدَيْهِ ؛ فَلَمَّا صَارَ* ابْنُ عَمَّارٍ إِلَى سَرَقُوسْطَةِ ، نَهَضَ إِلَى الْعَبْدِ الْمَذْكُورِ ، ٣٤ (١) عَسَاةَ يَرْجِعُ إِلَى طَاعَةِ ابْنِ هُودَ ؛ فَتَفَقَّهَ وَأَرْسَلَ بِهِ إِلَى الْمُعْتَمِدِ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ قَتَلَهُ شَرًّا قَتَلَهُ . ١٥

وَلَمَّا ابْنُ رَشِيقٍ بَعْدَ ذَلِكَ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْخِلَافَ عَلَى الْمُعْتَمِدِ ، وَاحْتَجَّ بِأَنْ قَالَ : « لَمْ يُقَدِّمْنِي إِلَى مُرْسِيَّةٍ ! » وَزَعَمَ أَنَّ أَهْلَ الْبِلَادِ اخْتَارُوهُ ، وَأَنَّ مُقَدِّمَهُ إِنَّمَا كَانَ ابْنُ عَمَّارٍ مَتَى ذَهَبَ عَنْهَا . وَسَنَدَّ كُرُّهُ مِنْ أَمْرِهِ بَعْدَ هَذَا ، عِنْدَ ذِكْرِ أَحْوَالِ الرُّبَاطِينِ — أَغْرَمَ اللَّهُ — وَقَصَدِمَ ٢٠ إِلَى لَيْسَبُطِ ، مَا انْقَضَى مِنْ خَبَرِهِ عَلَيْهَا مِمَّا هُوَ مَشْهُورٌ .

٤٠ - عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد صاحب إشبيلية

لَيْسَ كُلُّ النَّاسِ عَلِمَ سِرَّ الْأَمْرِ كَالَّذِي نَصِفُهُ نَحْنُ . والدليلُ على ما قدَّمناه ذِكْرَهُ من ارتباطِ الْمُعْتَمِدِ إلى الْخَيْرِ وإيثاره للصلح بزوال هذا الفاسق ابن عمار عن دولته ، لم يُرَ بعده فِتْنَةٌ فيما بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ؛ وَحَقُّ معنا في كُلِّ أَمْرٍ ، كَالَّذِي صَلَّيْنَا نَحْنُ معه . وَجَدْنَا الْعَقْدَ على ما ارتضىناه من مُعَاوَضَاتٍ ، سِوَى ما كَانَ قَدِيمًا يَدُهُ ، ممَّا خَرَجَ عَنَّا في أَيَّامِ الْمُظَفَّرِ ، وَأَخَذَتِ الْفِتْنَةُ عَلَيْهِ حَقَّهَا ، ولم يوجَد في طَلَبِ ذَلِكَ خَيْرٌ ، ولا إلى غير الْمَصَالِحَةِ سَبِيلٌ ،

قَرَّرَتِ الْأَحْوَالُ قَرَارَهَا ، وَتَهَيَّأَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِمُلْكِهِ إِلَّا مَا كَانَ ١٠ من سَيْفِ بَرَانِيٍ يَعْتَرِضُ بِلَادَنَا من الرُّومِ؛ فَكَانَ الرُّزْءُ فِيهِ وَاحِدًا وَالْمُشَارَكَةُ سِوَاهُ؛ وَإِنْ كُنَّا لَا نَقْدِرُ على ذَلِكَ بِالْإِمْدَادِ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ لضعفِ الْحَالِ ، فَكُنَّا تَشَارِكُ بِالْمُدَاخَلَةِ وإِعْمَالِ الرَّأْيِ والتَّحْذِيرِ من أَمْرٍ عَسَى أَنْ يَكُونَ خَفِيَ عَنِ الْآخِرِ وما أَشْبَهَ ذَلِكَ .

٢١ - المؤلف يتحدث عن منهجه في كتابة مذكراته

١٥ وإذا أَتَيْنَا على ذِكْرِ جُمْلَةٍ من أحوالِ الْأَنْدَلُسِ الْحَادِثَةِ فِيهَا ، المشهور خَبَرُهَا حسبَ اسْتِغْضَا ، وَتَرَكْنَا وَصْفَ الْاِخْتِلَافَاتِ ، إذ يوجد الْحَقُّ في طَرَفٍ وَاحِدٍ ، ولم يكن منها ما طَوَّلَ بِالشَّاهِدَةِ ولا بِالْمَعَايِنَةِ أَكْثَرَ من إِشَاعَةِ خَبَرٍ ، ذَكَرْنَا منه ما يَنْقَاسُ في الْعَقْلِ ، وَحَدَفْنَا منه الْإِكْثَارَ وَالْمُشْتَبَهَاتِ . وإِنَّهُ ، متى أَتَيْنَا على ذِكْرِ خَبَرٍ حَادِثٍ في دَوْلَتِنَا ممَّا حَاوَلْنَاهُ

أو شاهدناه* أَطَنَّبْنَا فِي وَصْفِهِ ، وَقَتَلْنَاهُ عِلْمًا إِلَى آخِرِهِ ، وَأَخْبَرْنَا بِسَرِّهِ ٣٤ (ب)
 عَنْ جَهْرِهِ ، وَبَارَقَ الْأَسْبَابَ فِيهِ . وَالْإِطْنَابُ فِيمَا يَحَاوِلُ الْإِنْسَانُ أُبْلَغُ
 وَأُنْعَتُ مَنْ وَصَفَ لِلشَّاهِدَةِ لغير ما يُخَصُّهُ ، كَمَا أَنَّ وَصْفَ الشَّاهِدَةِ ، وَإِنْ
 كَانَ لَا نَعْنِيهِ ، أُبْلَغُ مِنْ ذِكْرِ الْمُسْتَفَاضِ الَّذِي لَمْ يُوقَفْ عَلَى حَقِيقَتِهِ ؛ فَإِنَّمَا
 يُذَكَّرُ مِنْهُ مَا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ ، ثُمَّ يَخْتَرِي وَاضِعُهُ عَلَى أَنْ يَضَعَ فِيهِ مِنْ عَقْلِهِ
 ٥ دُونَ الْأَغْلَبِ عَلَيْهِ عِنْدَ الْعَامَةِ ؛ فَيَصِيرُ مُكَذِّبًا .

ولهذا ما اختَصَرْنَا مِنَ الْكَائِنَاتِ لِلشُّهُورَةِ بِالْأُنْدَلُسِ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ
 عَنْهَا ، وَاقْتَصَرْنَا عَلَى الْإِطْنَابِ فِيمَا يَخْصُنَا مِنْهَا ، مِمَّا حَاوَلْنَاهُ أَوْ رَأَيْنَاهُ عَمَلًا .
 وَالْحَقِيقَةُ مِنَ الْخَبَرِ عَوْنٌ كَبِيرٌ عَلَى مَا يَرُومُ الْإِنْسَانُ مِنْ صِفَةٍ فِي مَنْظُومٍ
 ١٠ أَوْ مَثْنُورٍ ، كَالْمَادِحِ أَوْ الْقَامِ ؛ فَإِنَّهُ ، إِذَا وَجَدَ إِلَى الْقَالَ سَبِيلًا ، أَطْنَبَ
 وَأُبْلَغَ ، وَإِنْ كَانَتْ بَعْضُ زِيَادَةٍ ، فَإِنَّهَا لَا تَمُكِّنُ إِلَّا فِي الْأَغْلَبِ وَالْأَكْثَرِ ،
 وَيَكُونُ فِي ذِكْرِ الْأَمْرَيْنِ مُصَدِّقًا لِمَعْرِفَةِ النَّاسِ بِهِ ؛ وَلِأَنَّ كِتَابَنَا لَمْ يَكُنْ
 مَبْنِيًّا إِلَّا عَلَى وَصْفِ تَمَلُّكِنَا خَاصَّةً ، « وَالْحَدِيثُ ذَوْشُجُون » ؛ فَلَا بُدَّ
 مِنْ ذِكْرِ جُمْلَةٍ مِنْ غَيْرِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى وَصْفِهِ أَوْ ضَرْبِ مَثَلٍ بِهِ ،
 ١٥ تَزِينًا لِلْكَلَامِ وَإِقَامَةً لِلْبُرْهَانِ وَدَوْرَانًا عَلَى الْحَقِيقَةِ .

الفصل السادس

إمارة عبد الله بن مُبَلِّق بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب
(٢) مشاكل غرناطة الداخلية إلى قدوم المرابطين

٤٢ - عزل الوزير سِماجة

ثمَّ إجلالُه واستقلال عبد الله في الأمر

وإنه ، لما تهذَّنت لنا الأحوال وقرَّ مُلْكنا قَرَارَه بِمُصَالَحَةِ الْمُعْتَمِدِ ،
وَمُعَاوَدَةِ الرُّومِ عَلَى الْمُهَادَنَةِ ، وَتَوَطُّبِ النَّفْسِ عَلَى مَا نَعْطِيهِ^(١) فِي الْعَامِ ،
انصرف نظرنا إلى إصلاح أمر بلادنا ، والفتش على رعيَّتنا ، والكشف
على الثَّمَالِ إِنْ كَانُوا عَادِلِينَ أَوْ ظَالِمِينَ . وَلَمَّا شَرَّ بِذَلِكَ خَدَمْتُنَا وَمَنْ كَانَ
لَهُ مَذْهَبٌ فِي نَصِيحَتِنَا ، اتدب جميعهم إلى الإعلام بما عنده والتنبيه على
ما خفي عنَّا زَمَانَ تِلْكَ الْفِتْنَةِ ؛ فَكُنَّا لَا نَقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمْ عَلَى الْآخِرِ إِلَّا بَعْدَ
رُويَّةٍ وَهَجُومٍ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، حَذَرًا أَنْ يَكُونَ مَقَالُ أَحَدِهِمْ حَسَدًا لِلْآخِرِ
أَوْ طَلَبًا لَا يُتَّقَى اللَّهُ فِيهِ .

وكان سِماجة ، وزيرُ دَوْلَتِنَا الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرَهُ ، قد شَرَّ بِذَلِكَ وَأَحْسَهُ
مِنَّا ؛ فَاغْتَمَّ لِلْأَمْرِ* وَعَمِلَ فِي نَفْسِهِ ، وَشَكَاهُ إِلَى إِخْوَانِهِ ؛ وَكَانَ فِيمَا قَالَ (١) ٣٥
لَهُمْ : « إِنَّمَا كُنَّا نَطْمَعُ بِالْتَّحْكُمِ عَلَى هَذَا الرَّئِيسِ وَالتَّمَكُّنِ مِنْ دَوْلَتِهِ مَدَّةَ

(١) أصل : « نطموه » .

- أيام صبوته ، يعنى صغر سنه . وأما الآن ، فلسنا نجد سبيلاً إلى رده عن دولته ، لا يقنعة تحمينا ، ولا بصغر سن نجد به السبيل إلى صرفه عند العامة وتسفيه رأيه ، لاسيما إذ كان رأيه النظر من دولته والبحث عنها .
- ف قيل له : « لست^(١) تجد سبيلاً إلى أكثر من المداورة له ، والإتيان لمرغوبه ، وقلة الخلاف عليه لئلا يتمكن عدوك منك ، ويشتفى حاسدك عليك . فهو ، إذا وجد منك الذى يرغب ، لم يلبث أن يُبلّغ النظر والخدمة ويُفوض الأمر إليك ! ثم أنت بالخيار عند غفلته وإقباله على راحته ! وعليك بإشغاله بالنساء ، وعجل له ابتياع الرقيق ! ولسنا نأمن أن يكون يشاك من تحجيرك هذه الشهوات عليه ؛ فإنه نطن به ما يُظن بمن كان فى سنه ! »
- ف فعل ذلك . وكانت هذه الفترة التى دبرها من سعادتنا وتمكيننا من آملنا فى الذى ذهبنا إليه من الاستبداد بملكنا ؛ فإنه شبك علينا المعاقل ببنى عمه ، وأشدّها علينا مدينة المنكب . فجعل يطلق لنا العنان فى كل ما نريده ، واشترى الرقيق ، وجعلنا نخرج إلى الزاهة فى البلاد ، يرى بذلك الإنصاف والتأنى ، إذ كان الرجل متنبّئاً ، خائفاً من سوء العاقبة ، مع أنه كان خائفاً من قبل ذلك من أجل كُتب استعملها على ألسنتنا أقوام من أعدائه إلى طائفة من صنهاجة يأمرؤن فيه بقتله ، ونحن براء منها ؛ فظفر بالكُتب ، وأنزل بنا التهمة ، وأمر بقتل أولئك المسمّين فى الكُتب ، وغيرهم ممن اتهم من كرائم باديس — رحمه الله .
- وكانت تلك المعاني مقدمات تُغازله لعزّيته . فلما كانت وجهتنا إلى وادى آش عن اختياره ، وقد كنتُ علمتُ معتقده فى ذلك كله بالقياس

(١) أصل : « ليس » .

والتميز مع بعض الأخبار ، قلتُ في نفسي : « هذا رجلٌ قد اعتاد الأمر* ٣٥ (ب) والنهي ، ورأى من يَقْطَعُنا للدولة ما لم يكن يُريده ؛ وليس فعله هذا بهواه ؛ وكلُّ شيء يضطرُّ فيه الإنسان ، فإلَيْهِ لا يؤمن خلافه ، والرجعة عنه ، والاستحالة فيه عند الأمن من مكروهه ! فنكون أبداً نكابد منه ما لا يوافق ! وإن فاتتني هذه المرة ، أَكُنْ كَمَنْ نُبِّهَ على أمرٍ وحذر من نفسه ، ثم أوبق نفسه إلى المضرات . وإن أغضينا هذه المرة وعاد إلى ما كان ، ثم تَرى منه خلافاً ، لم قدر عليه شيء ، إذ يكون نظره لنفسه أجود من هذا النظر ، فإن هذا الأمر منا جاءه فجأة لم يحتسبه ولا ظنَّ به ؛ والفَرَصُ ثَمَرُ مرَّةٍ السحاب ! فادْمُنَّا^(١) نَحْنُ بالخيار عليه ، لا نتربص حتى يكون هو بالخيار علينا ! » ١٠

فأراد إشاعة عزَّلتِه بالحضرة عند إمكانِ السَّفر ؛ فلم تَرَ لَئِكَ وَجْهاً إلَّا وَنَحْنُ خارجون عنها ، ليكون أشنع في الناس وأقطع لِيَأْسِ الرعايا ، مع أُنَّى ، إذا حركتُ هذا بالحضرة ، دخلتَه الصَّنَاعَةُ ، وكتم عن الناس ، وشغبت امرأته من الدار . فلما وَصَلْنَا وادى آش ، جعلتُ من يدوس إلى الرعيَّة أن ترفع بِمَظَالِمِها ؛ وكان عاملُها أَيْنُ أَبِي جَوْش ، صَنِيعَةً سِمَاجَةَ للذكور ؛ فأمرتُ عند شكواها ١٥ بتقافه . فأنكر الناس ذلك ، وهان عليهم أمره . وجمعتُ الرعايا والوزراء ، وَحَدَّدْتُ لهم حَدًّا يَقْفُونَ عنده إلَّا يَحْمِلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ واسِطَةً ؛ وأمرته هو بالترام ما يَحْصُهُ لنفسه ، وأن لا وزير لدَوْلَتِي إلَّا نفسي ؛ وَحَدَّدْتُ لكلِّ خادِم ما تكون طريقتُه أن لا يتعدى سِوَاها . فسرَّ بذلك جميع الوزراء ، ٢٠ إذ تساوت أقدامهم ، وانكشف حِجَابِي لهم ، لكي تكون حوائجهم إلى

(١) أصل : « مادام » .

دون مَنْ هو مثْلهم أو دونهم . واغْتبَط الرعايا بعزلة الظلَّة عنهم . وعزلتُ كلَّ من يُبتهم بخيانة ، وقدَّمتُ عُملًا إلى الجهات ، أريد تجديد الدولة . وعزلتُ بنى عمِّه من الحصون ؛ ولقد كان فريقٌ منهم ، لَمَّا سمعوا بذلك ، يفرُّون منها ويترُكونها حتَّى يوجَّهَ إلى جُنْدُها عن قاندي . ولم نَلَقَ في ذلك * كلُّه مَشَقَّةٌ . ولم يَنَقَ إِلَّا ابن عمِّ له ، صاحب المُنْكَب ؛ ٣٦ (١)

فَجَزَع ، إن تَرَكَه ، أن يوجَد إليه السبيل بسبِّيه ؛ فأخبرني بالأمر ، وسألني لإرسال قاندي إليه ، فعزَّل . وسأل زَاوِي زوالَ أخيه بَلْبَار عن وادي آش . فكان ذلك كلُّه على أَمْنِكُن سعادة وأجود تقدير ، للذي شاء الله من تمام أَيَّام وِزارته .

١٠ ثمَّ أَمْنْتُهُ في نفسه ، وأَبْقَيْتُ عليه جميعَ أمواله إِلَّا الذهب والفضَّة ، وسَوَّغْتُهُ إِنْزَالًا ينعاش فيه ، وأَمَرْتُهُ بلزوم تَجْلِيسِي وَأَنَّهُ مُكْرَمٌ طولَ حياتي . قَبَّلَ الرجلُ ذلك كلُّه ، وأَطَاعَنَا في كلِّ أَمْرٍ أَرَدْنَاهُ دون خِلَاف ولا إظهارٍ لَمَغْصِيَةٍ ؛ فَإِنَّه كان جزوعًا ، قليلَ الجرأة على العِظَامِ ، ولأنَّه لم يَجِدْ قَتَّةً تُعِينُهُ . وَلِنَقِي بِذلك أَمْنْتُهُ في نفسه ، ومضى عليه دَهْرٌ طويلٌ على لزوم المجلس دون خِدْمَةٍ ، فلم يَتَرُكْهُ . ١٥

وخاف منه مَنْ سعى في أمره من أهل الدولة ، وتوقَّعوا منه العودة ؛ فلم يَزَالُوا يُعْرُونَ به ، وينقلون عنه من قبيح القول ، ويخافون من مغبة أمره ، ما لم نَرَ معه وَجْهًا لإمساكه في البلدة ، احتياطًا على أنفُسنا ؛ ورُبَّمَا كدحت بعضُ تلك الأقاويل ، فَهَلَكَ من أَجْلِهَا . ولا اسْتَطَعْنَا حينئذٍ ٢٠ على مُعَاقَبَتِهِ لِمَا ارتكب في صَدْر الدولة من قَتْل أولئك النساءِ وَمَنْ جرى مجرَاهُنَّ ، لشركته في ذلك مع سِوَاهُ من شيوخ تَلْكَاتَانَةٍ ؛ فيسوه ظنُّ

الجميع ، وتفسد من سببه الأحوال ؛ فلا يقوم فسادُ المملكة وسوء عاقبة الأمر بما يلزم من إقامة الحدِّ . فرأينا من الصواب أن يرتحل عنا دون تغيير ولا إبلاغ في عقوبة ، استمالةً لأنفس الناس ، وبَسْطاً لأموالهم . فخرج بجميع أثاثه وخدمته ودوابه وجميع ثيابه وفرشه ، مشيئاً إلى التريّة . فكان المعتصمُ يُكرمه من أجَلنا ، ولا يئسُ أن نصرّفه إلى منزلته ، فيقدّم ذلك الإكرامُ عنه . وخرّجت امرأته بجُلّي كثيرٍ من الجواهر ، حاشى ما خفى عنا من المال ؛ * وإنما صار إلينا ما أعطيناه بأيدينا من الذهب والفضة أوّل ولايتنا ، وقتَ فتَح بيتِ المال ؛ ولم تتحقّق ما اكتسب منها مدّة خدمته لنا ، ولا بحسّنا عن ذلك .

١٠ ٤٣ — النزاع على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة التريّة .
تعاقب أحداثه وحله

ثمّ قمنا من بعده في أمور البلاد والرعايا بأحسن قيامٍ وأتمّة ، وجعلنا الأمناء على البحث والتعقّب ورفع المظالم إلينا . ودام الأمرُ على ذلك دَهراً طويلاً .

١٥ وإنّ ، في إثرِ مَضَى سِمَاجَة للذكور إلى التريّة ، بَلَفنا أنّه حَقَر الدولة لابن صَادِح وطَمَعه فيها ، لِمَا كان يَرى من طمع الرجل الذي قد شهر به — رحمه الله — ؛ فإنّه كان كثيرَ الطمع ، قليلَ الجسر ، ضعيفَ المنّة . فعمل قولُه في نفسه ، ورَجَا أن ينالَ على يديهِ فُرْصَةً بِمُدَاخَلَةِ أو إدْلالٍ على مَوْضِعٍ فائِدَةٍ ، كالذي تَهَيَّأَ له مع اليهوديّ .

٢٠ ووافقَ ذلك أن وَقَعَتْ بين قائِدى النَظَر ما بين فِئْتَانَةٍ والمُنْتَوَرِي

مُشَاجَرَةٌ عَلَى الْجِهَاتِ ؛ وَلَمْ يَتَهَيَّأ حِيَازَةً ذَلِكَ النَّظَرُ إِلَّا بِبُنَيَّانِ الْمُنتَوَرِي
 الْمَذْكُورِ . وَقَدْ كُنْتُ ، عِنْدَ وَجْهِي إِلَى فَنِيَانَةٍ ، أَرْسَلْتُ إِلَيْهِ رَسُولًا يُعَلِّمُهُ
 بِوَرُودِي عَلَيْهِ ، وَسَأَلْتُهُ تِلْكَ الْقُرَى لِلصَّاقِبَةِ لَهَا وَإِنَّهَا أَوْلَى بِذَلِكَ الْمُتَعَقِّلِ
 لِقُرْبِهَا ، وَتَطَارَحْتُ عَلَيْهِ فِي الْمَكَارِمَةِ بِهَا ؛ فَكَانَ مِنْ جَوَابِهِ لِلرَّسُولِ :
 « هَيْهَاتَ ! لَيْسَتْ ^(١) تَمْلَأُ الْأَقْطَارُ إِلَّا بِالْبُنْيَانِ وَالسَّيْفِ ! » فَلَمَّا عَلَتْ مُهِمُّ
 ذَلِكَ الْحِصْنِ عَلَى الْعَرِيَّةِ ، وَبَلَغَنِي مَا كَانَ مِنْ تَطْمِيعِ سِمَاجَةٍ ، وَتَذَكَّرْتُ
 مُرَاجَعَتَهُ عَنِ الْقُرَى ، أَغْضَبَنِي ذَلِكَ وَلَمْ نُؤَخَّرْ أَنْ عَاجَلْنَا بِبُنْيَانِ ذَلِكَ الْمُتَعَقِّلِ .
 فَقَامَ عَلَى الْمَقَامِ بِالْحِدِّ وَالْقُوَّةِ ، وَجَعَلْنَا فِيهِ حُمَاةَ الرِّجَالِ ؛ وَضَاقَتِ الْعَرِيَّةُ
 مِنْ أَجْلِهِ ؛ وَاحْتَبَجَ إِلَى بُنْيَانٍ مَعَاقِلَ غَيْرِهَا ، تَوَقُّعًا أَنْ نَسْبِقَ إِلَيْهَا ،
 ١٠ فَيَكُونُ عِوَضًا عَنِ الْمُنتَوَرِي . فَقَامَ بُنْيَانُهَا عَلَى سَاقٍ ، وَصَارَتْ كُلُّهَا حَرْزًا
 لِلجِهَاتِ الَّتِي لَنَا ، وَأَقْفَالًا عَلَيْهَا ، وَضَرَرًا عَلَى جِهَاتِ الْعَرِيَّةِ . فَعِيلَ بِالْأَمْرِ ،
 وَضَاقَ بِهِ ذُرْعًا ؛ وَكَانَ لَا يُوجِّهُ * عَسْكَرًا إِلَى مَوْضِعٍ إِلَّا هَزِمَ ؛ وَأَسْرَنَّا ٣٧ (١)

كِبَارَ رَجَالِهِ عَلَى طَرْلَبِش .

وَكَانَ عِدَّةٌ مَا بُنِيَ عَلَيْهِ سَبْعَةُ حَصُونٍ . وَكُنْتُ مَعَ هَذَا أَمْرٍ ^(٢) أَهْلَهَا
 ١٥ بِالرَّفْقِ وَحَرْزِ جِهَاتِهَا أَلَّا يَتَطَرَّقَ إِلَيْنَا طَالِبُ شَرٍّ . وَإِنِّي إِنَّمَا بَنَيْتُهَا صَوْلَةً
 وَتَهْيِيبًا ، حَتَّى نُصَالِحَ الرَّجُلَ عَلَى مَا يَقَعُ بِمَوَاقِفَتِنَا ، وَيَعْرِفَ أَقْدَارَنَا .
 وَإِنَّهُ ، لَمَّا ظَهَرَ مِنْ كَلْبِ الرُّومِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ مَا ظَهَرَ ، وَرَأَيْتُ نَفْسِي
 ظَافِرَةً مَتَى رُمْتُ مَعَ ابْنِ صَمَادِحٍ فِتْنَةً ، وَتَبَيَّنَ لِي ضَعْفُهُ عَنِ الْمُنَاطَرَةِ ،
 صَرَفْتُ نَفْسِي عَنِ التَّمَادِي وَالْإِلْحَاحِ ، وَقُلْتُ : « أَنَا فِي مِثْلِ هَذَا مُدْرِكٌ ! »
 ٢٠ لَا يَفُوتُ مِنَ الْأَمْرِ مَتَى أَرَدْتَنَاهُ شَيْءٌ . وَحَسْبُنَا مَا قَدْ ظَهَرَ إِلَيْنَا ؛ فَلَا يُبْقَا

(١) أصل : « ليس » . (٢) أصل : « نأمر » .

أُولَى ، وإصلاحُ الأمر مع الجار - وجارٌ ضعيفٌ يُتَّقَى عليه - خَيْرٌ من تَهْيِئَتِنَا لِقَوِيٍّ لا يُرامُ ! ولقد كان المظفرُ على بصيرةٍ من إثباته لدولته وإبقائه عليه ؛ ولنا فيه أسوةٌ وقدوة ! »

فصَالَحْتُ الرَّجُلَ ، وَأَمَرْتُ بِهِدْمَ تِلْكَ الْحِصُونِ ؛ وَنُشِرَتِ لِلرَّيَّةِ مِنْ كَفَنِ . وَتَمَكَّنَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَدَنَا ، وَصَارَ أَصْدَقَ النَّاسِ لَنَا :
ولا خَيْرَ في حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا
فَلَمْ نَزَلْ مُتَعاقِدِينَ مُتَشَارِكِينَ فِي الْحَلُو وَالْمُرِّ إِلَى انْصِرَامِ الْأَجَلِ ،

٤٤ - توجيهِ عسكر ضدَّ تميم بن بُلُقَيْن صاحب مَالِقَةَ
وأخى المولَّف ، ونصره إِيَّاهُ

- ١٠ نَحْمُ لَمْ نَلِثْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا بِسِيرًا حَتَّى جَاءَنَا مِنْ أَخِينَا تَمِيمٍ خِمَةٌ لَمْ نَحْتَسِبْهَا
بَعْدَ أَنْ رَأَى ظَهْرَنَا ، وَصُلَحْنَا مَعَ سُلَاطِينِ الْأَنْدَلُسِ ، وَمَا صَنَعْنَاهُ بِجِهَاتِ
الرَّيَّةِ ، لَمْ يَفْرَقْ بَيْنَ هَذِهِ الْحَالَةِ وَالْحَالَةِ الْأُولَى ، لِفَرَارَةِ الصَّبَا وَقَتِ اصْطِكَاكِ
الْفَتَنِ وَالشَّغْلِ الشَّاعِلِ . فَحَسِبَ الزَّمَانَ كُلَّهُ وَاحِدًا . وَلَمَّا سَكَبَتْ عَنْهُ قَبْلُ ،
لِهَذِهِ الْعِلَّةِ عَلَى مَا قَدَّمْنَا ذَكَرَهُ مِنْ بَدَأِ أَمْرِهِ ، تَمَادَى عَلَى تِلْكَ الْأَفْئَالِ . فَأَرْسَلَ
١٥ قَطَانَهُ إِلَى حَرْبِ الْمُتَكَبِّ وَشَاطِطٍ ، وَخَوِيلَةً فِي إِثْرِهَا لِلضَّرْبِ عَلَى النَّظَرِ
لِلْمُصَاقِبِ لَهَا . وَأَتَانِي أَهْلُ تِلْكَ الْجِهَاتِ شَاكِينَ بِالْأَمْرِ ؛ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي :
« هَذَا إِنْسَانٌ لَمْ يُبَصِّرْهُ الدَّهْرُ ، وَلَا حَكَمَتُهُ التَّجَارِبُ : وَمَتَى تَرَكَنَاهُ * عَلَى ٣٧ (ب)
هَذَا ذَاتِبًا ، وَلَمْ نُؤَدِّبْهُ عَلَيْهَا ، تَمَادَى شَرُّهُ ، وَحَسِبَ أَنَّ ذَلِكَ لِهَيْبَتِهِ ؛ فَازْدَادَ ،
وَلَا تَنْفَعُ فِيهِ مَوْعِظَةٌ وَلَا قِيلٌ ! » فَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ تَأْدِيبِهِ وَزَجْرِهِ ، فَإِنَّ الشَّيْءَ تَحْقَرَهُ
٢٠ وَقَدْ يَنْبَغِي ! وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْإِغْضَاءُ لِمَعَانٍ تُوقَّعَتْ ، وَانْتِظَارًا بِهِ لِحَسَنِ الْعُودَةِ

وروية البصيرة . فإذا قد يئسنا من هذا وأميناً ما يُشغلنا عنه ، فتركه على هذه الضلالة من العجز والخرق ! »

ووافق ذلك الزمان اشتغال المعتد بأمر الفونش ؛ فإنه نازل إشبيلية لتباعات تسبب بها ؛ وضائق الحال من أجله . فاتفق الأمر وتهيأت الأسباب على حين غفلة وانتهاز فرصة . فهضنا بأنفسنا إلى ذلك القطر ؛ فوالله ! ما سمع بنا أهل حصونه ، ولم تدارك بالخروج صبيحة ذلك اليوم ، حتى ورد علينا عن حصن القصريجة صالحة أنه صار في ملكنا وطاعتنا رعيته ؛ وهو حصن أول من يطوع وآخر من يعصى لدوى الغلبة والظهور ؛ فاستبشرنا بذلك ، وصيرنا إلى الحمة ، نروم منها أمر ذلك النظر . فأعلمت بصخرة دؤمس (ولا معنى لزيه إلا بها ، وهي موسطة البلد) ، وقد اجتمع فيها جل عاكر مألقة مع قواد صاحبها ؛ فلو انتزعت تلك الشوكة ، كان أمر غيرها يسيراً هيناً . فاستعددنا لقتالها ، وضاربناهم في أول النزوع عليها . فجزع من فيها من الجند ، وأرسلوا إلينا تلك الليلة يطلبون الأمان ، ويخرجون بخيلهم سالمين في مهجهم . فأجبتهم إلى ذلك ، عسى أن نكون نستميل غيرها بهذه الأيادي ؛ وأخلوا الصخرة ، وصار فيها جندنا .

وانتقلنا عنهم إلى حصن كان صاحب مألقة قد بناه لقطع الطريق بيننا وبينه أول قيامه ، على ما رسمناه ؛ فلم يكن إلا ساعة قدومنا عليه وتخاذل من فيه ، ودخل قسراً ، وهو حصن أشد من غيره . ثم نهضنا إلى مريّة بلش ؛ فألقت يدها . وأردت التمدد إلى بريانة .

٢٠ وكان كتاب * بن تميم صاحب أرجذونة ، قائدنا ، قد استفلت (١) في تلك الجهة ، وزعم أنه لا يتعزل إلينا . فلما رأى ظهورنا في هذه المعاقيل ،

خاف أن يَصْقَوْا الجَوْ وَيَصْرِفَ البَالُ إِلَيْهِ ، فرام أن لَا نَصِلَ إِلَى بِيْزْليَانَةَ
وحذَّر من ذلك . وكان وراءنا حِصْنٌ مُنْت مَاس ، رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا تَمَكَّنْ
لَنَا مُنَازَلَةً مَالَّةً إِلَّا بِالرَّاحَةِ مِنْهُ ؛ فَإِنَّهُ يَمْنَعُ الْمِيْرَةَ إِلَى الصَّحْلَاتِ . فانصَرَفْنَا
من بِيْزْليَانَةَ نريد مُنْت مَاسَ الْمَذْكُورَةَ ، وأظهرْنَا لَكِبَّابَ الْأَخْذِ بِرَأْيِهِ ؛
فسرَّ بِذَلِكَ .

ولما نهضتُ إِلَى مُنْت مَاس ، رَأَيْتُ مُعْقِلًا عَظِيمًا ، قد اجتمعت بِهِ جَمِيعُ
الرَّعَالِيَا ؛ فَعَرَضْنَا عَلَيْهِمُ الطَّاعَةَ ؛ فَأَبَوْا ، خِيفَةً مِنْهُمْ أَن نَكُونَ عَدَاً نُهَالِحُ
أَخَانًا وَيُعَاقِبُهُمْ ؛ فَأَمْنَاهُمْ مِنْ ذَلِكَ . واجتمع فِيهِ كُلُّ فَاسِيقٍ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ ،
وَأَعْرَضْنَا عَلَيْهِمُ الْحَرْبَ بِأَنْفُسِنَا ، وَتَرَكْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَرَتَبْنَا عَلَيْهِمُ الرُّتَبَ
وَانصَرَفْنَا إِلَى غَرْنَاطَةِ . وَفِي انصِرَافِنَا ، طَاعَتْ لَنَا غَيْرُهَا مِنَ الْعَاقِلِ ، مِثْلُ
أَيْرُشَ وَصَخْرَةَ حَبِيب . وَكُنَّا فِي أَوَّلِ وَجْهَتِنَا قَدْ أَخَذْنَا رِيْئِنَةَ بِالسَّيْفِ
قَسْرًا ؛ وَطَاعَتْ لَنَا جُطْرُونُ ؛ وَهُمَا قَصَبَتَا مَالَّةً . وَطَارَتْ فِي تِلْكَ الْمَدَّةِ عَنْ
يَدَيْهِ عَشْرُونَ مُعْقِلًا . وَانصَرَفْنَا إِلَى مُنْت مَاسَ ثَانِيَةً ؛ وَيُسُّوْا مِنْ تَرَكْهُمْ ،
وَطَاعَ أَهْلُهَا ؛ وَتَهَفَّتْهَا ؛ وَهَدَمْنَا مِنَ الْحِصُونِ مَا نَسْتَعْنِي عَنْ إِمْسَاكِهَا
بَنِيْرِهِ ؛ وَأَمْنَتُ الْجِيْهَةَ وَبَحَثْتُ عَنْ فَوَائِدِهَا ، وَصَارَ ذَلِكَ مُقَيِّدًا ؛ وَأَوْسَقْنَا
أَهْلَهَا خَيْرًا .

ولما رَأَى أَخُونَا مَا دَهَمَهُ مِنَ الْأَمْرِ ، وَقِيَامَ رَعِيَّتِهِ عَلَيْهِ ، خَافَ عَلَى نَفْسِهِ
مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ ، مَعَ تَبَرُّزِنَا نَحْنُ عَنْ مَالَّةً فِي حِينِ أَخْذِ مُنْت مَاس . وَاشْتَغَلَ
بَعْضُ النَّاسِ بِقِتَالِ انْحَازُوا إِلَيْهِ دُونَ مَوْضِعِنَا ، وَتَبِعَهُمْ أَكْثَرُ عَسَاكِرِنَا ،
فَاشْهَزَ أَهْلُ مَالَّةِ الْفُرْصَةِ ، لَمَّا رَأَوْهُ مِنْ قَلَّةٍ مَنْ فِي الْمَوْكَبِ مَعَنَا ، وَخَرَجُوا
عَلَى بَابِ فُنْتَنَالَةَ ، وَحَلَوْا عَلَى * الْعَسْكَرِ حَمَلَةً اخْتَلَطَ فِيهَا الْفَرِيقَانِ . وَلَمَّا رَأَيْتُ ٣٨ (ب)

يفرار من معنا واختلاطهم بجُند مائقة ، أُمسَكْنَا على العلامات ، وأمرنا بضرب
الطبل بعد توليه ، حتى اجتمع إلينا بعضُ الناس لَمَّا رأوا ثبوت العلامات .
ثمَّ كانت لنا عليهم الكرَّة ، بعد أن أُسِرَ بعضُ رجالنا ؛ فأخذوهم ، وهزموا
عسكَرَ مائقة ؛ وكان بها من جُند البربر نحو ثلاثمائة فارسٍ أنجاد ، إلا أن
الحزم دَاخَلَهُمْ ، ونزع إلينا أَكْثَرَهُمْ . ٥

ولمَّا رأى بعضُ من معنا تلك الهزَّة ، أشار علينا بالانصراف ، وخوَّفْنَا من
تقوية ابن عبيد أن تَدْخُلَهَا ما لا يُمكن ؛ قُلْتُ : « إِنْ الانصراف على
هذه الحالة عَجْرٌ ، وسيشيع في الجهة كُلِّهَا أنَّا رجوعنا لم يكن إلاَّ عن هزيمة !
فالأولى أن نكسِرَ يومئذٍ نُبرِّزُ فيها كلَّ يوم في الموضع الذي التَحَمَّتْ فيه
الْخَيْلُ ، نُرِيهِمْ : إِنْ كَانَتْ بِكُمْ قُدْرَةٌ ، فَعَاوِدُوا مَا فَعَلْتُمْ ! » وَتَقَتُّ السَّكْرَ
لثَلَا يَطِيشُ مِنْهُ أَحَدٌ . فَكَانَ ذَلِكَ . وَأَقْلَعْنَا بِمِزَّةٍ حَتَّى وَصَلْنَا نَظَرَنَا عَلَى
أَتَمِّ مَا يُمكن . وَلَوْ رَفَعْنَا أَوَّلَ تِلْكَ الْوَهْلَةِ ، خَلَّتْ جَمِيعُ الْمَعَاوِلِ الَّتِي طَاعَتْ
لَنَا ، وَكَأَنَّنا مَا صَنَعْنَا شَيْئًا .

فَبَيَّعَتِ الْحَالُ ضَيْقَةً عَلَى مَائِقَةٍ . وَأَرْسَلَ إِلَيْنَا أَخُونَا ، يَسْتَغْفِرُ وَيَسْأَلُ
الْعُقُورَ وَإِقَالَةَ الْعَثَرَةِ . فَدَبَّرْنَا أَمْرَهُ فِي أَنْفُسِنَا ، وَعَمَلْنَا فِيهِ رَأْيًا سَدِيدًا ،
وَعَلِمْنَا مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَرَصِ وَالشَّرِّ وَالْخِدَّةِ ، وَأَنَّ صَرْفَ الْمَعَاوِلِ إِلَيْهِ
تَقْوِيَةٌ لَشَرِّهِ ، وَأَنَّهُ ، إِنْ عَاوَدَ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ ، لَمْ يَقْدِرْ لَهُ عَلَى شَيْءٍ ،
وَلَا تَطْوِعَ بَعْدَهَا رَعِيَّتُهُ إِنْ أَرَدْنَا هَمَّ بَعْدُ ، لِمَا يَرَوْنَ مِنْ إِسْلَامِنَا لَهُمْ
إِلَيْهِ ، وَخَافُوا أَنْ يُعَاقِبَهُمْ ، مَعَ مَا كَانُوا يَنْقُمُونَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الطَّرِيقَةِ
مَعَهُمْ ، يُعْلِنُونَ بِذَلِكَ ؛ وَأَخَذُوا مِنَّا مِيثَاقًا غَلِيظًا أَلَّا نُسَلِّمَهُمْ إِلَيْهِ ، وَعَاهَدْنَا هَمَّ
عَلَى ذَلِكَ بِأَيَّامٍ مُغَلَّظَةٍ . وَظَهَرَ مِنْ أَقَاوِيلِهِمْ أَنَّهُمْ ، مَتَى رُدُّوا إِلَيْهِ ، لَمْ

يُجِيبُوا* ، وأدخلوا الداخلة ، وصيروها إلى رئيس غَيْرَنَا . فَخَفْنَا مِنْ هَذِهِ ٣٩ (١)
الوجوه ما يجب أن يتوقع .

ثُمَّ لَمْ تَرَ وَجْهًا فِي الْإِلْحَاحِ عَلَيْهِ ؛ فَرُبَّمَا أُخْرِقَ ، وَصِيرَهَا إِلَى سِوَانَا ،
كَالَّذِي صَنَعَ مَا كَسَنَ غُنْمًا بِجِيَّانٍ ؛ فَتَكُونُ مُصِيبَةً لِلْبَلَدِ ، وَعَارًا عَظِيمًا ،
٥ مِنْ تَوَلِيحِ أَخِينَا وَشَقِيقِنَا إِلَى غَيْرِنَا ، وَتَغْرِيهِ فِي الْبِلَادِ ، وَأَثْمُهُ فِي قَيْدِ الْحَيَاةِ ؛
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ ، فَأَبْقَيْنَا عَلَيْهِ ، وَقَدْ أَذْبَنَاهُ^(١) بِمَا كَفَى ، وَوَسَعْنَا عَلَيْهِ فِي
النَّظَرِ مِمَّا لَمْ تَبْقَ فِيهِ مِنَ الرَّعِيَّةِ ، وَكَانَ مُهِمًّا عَلَيْهِ ؛ وَأَخَاتَيْنَا لَهُ رُبَيْنَةً
وَجُطْرُونَ ؛ فَإِنَّ رَعِيَّتَهَا نَصَارَى ، وَهُمْ بَيْنَ النَّظَرَيْنِ ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى نِفَاقٍ
مَعَ أَحَدٍ ؛ وَأَعْطَيْنَاهُ قُرَى يَتَسَّعُ فِيهَا لِمُرَافِقِهِ . وَبَقِيَتْ يَدُهُ حُصُونُ الْغَرْبِيَّةِ
١٠ مِثْلَ قَرْطَمَةٍ ، وَمِيشَشَ ، وَحَارِشَ ؛ وَأَعْطَيْنَاهُ قَامَرَةَ ، بَلَدَ الزَّرْعِ ، لِيَتَسَّعَ
فِيهَا لِلْحَرْثِ . وَحَرَمْنَاهُ غَيْرَهَا ، الَّتِي يَتَوَقَّعُ مِنْ أَهْلِهَا وَمِنْهُ : إِنْ اسْتَأْسَدَ
بِهَا ، لَمْ يُوَثِّمِنْ شَرَّهُ .

وَبَقِيَتْ حَالُهُ فِي أَفْضَلِ الْأَحْوَالِ ، مَارَضِيَتْ بِهِ الْوَالِدَةُ وَحَمْدَهُ جَمِيعُ
النَّاسِ ، صِلَةً لِلرَّحِمِ ، وَغَفْوًا عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ ، وَتَأْدِيبًا لِمَا يَخْشَى عَاقِبَتَهُ . وَقَرَّ
١٥ حَالُهُ قَرَارَهُ ، وَنَفْسُهُ فِي هَذَا عَلَيْنَا حَاقِدَةٌ ، تَبْلُغُنَا عَنْهُ أَقَاوِيلَ سَيِّئَةٍ ؛
وَنَحْنُ لَا نَمْرُجُ عَلَيْهَا وَنَقُولُ : « إِضْرَارُهُ بِالْقَوْلِ خَيْرٌ مِنْ إِضْرَارِهِ بِالْفِعْلِ ،
لَوْ صَرَفْنَا إِلَيْهِ لِلْعَاقِلِ ! وَعَلِمْنَا أَنَّهُ فِي عَافِيَةٍ وَنِعْمَةٍ طَائِلَةٌ مِمَّا عِنْدَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ
الَّتِي تَرَكَ جَدُّهُ بِمَالَقَةٍ ، لَمْ يَحْجُجْ قَطُّ إِلَى نَفَقَةٍ دِرْهَمٍ مِنْهَا ، وَلَا نَالَتَهُ فِتْنَةٌ ،
وَلَا بَلَّغَتْهُ مَكْرُوهٌ ؛ وَكُنَّا نَحْنُ أَمَامَهُ نُقَاتِلُ عَنْهُ الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ ، وَنُعْطِي عَنْهُ
٢٠ الْجِزْيَةَ ، وَهُوَ فِي دَعَاةٍ ؛ فَإِذَا كَانَ يَدُهُ فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ لِقَلَّةِ تَمَوُّنِهِ وَاحْتِيَاجِهِ

(١) أَسْلَ : « وَدَبْنَاهُ » .

إلى نفسه في التَّوَنُ^(١) والنِّفَقَات ؛ فَإِنَّ هَذَا كَثِيرٌ ، وَهُوَ تَحْتَ نِعْمَةٍ ! »
 فَطَابَتْ أَنْفُسُنَا عَلَى ذَلِكَ . وَكَفَّ هُوَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا كَانَ يَرْتَكِبُ مِنَ الْقَتْلِ
 وَالظُّلْمِ ، حَتَّى أَنَّهُ لَا يَرِدُنِي مِنْ عِنْدِهِ رَسُولٌ مِنْ أَهْلِ بَلَدِهِ أَوْ جُنْدِهِ * ٣٩ (ب)
 إِلَّا وَيَوْصِي أَنْ نَشُدَّ يَدِي عَلَيْهِ ، وَيَقُولُ لِي : « بِنَادِيكَ لَهُ فَلَحْنَا وَكَفَّ
 عَنَّا ، وَإِنَّهُ ، مَتَى يَأْمَنُ مِنْكَ أَمْرًا ، طَفَى عَلَيْنَا ، وَشَقِينَا بِهِ . وَمَا فِي الدُّنْيَا
 أَشْعَرُ مِنْكَ فِي إِمْسَاكِ تِلْكَ التَّعَاوِيلِ عَنْهُ ؛ فَإِنَّكَ كُنْتَ بَعْدَ هَذَا لَا تَلْجِمُهُ
 أَبَدًا ! » فَخَرَجَتِ الْأُمُورُ خَيْرَ خَيْرٍ ، وَأَمْنًا جِهَتَهُ بَسْتَرَهُ فِي مَكَانِهِ ، وَلَمْ
 نَفْجَعْ فِيهِ أَمَّهُ .

٤٥ — ذِكْرُ ثَوْرَةِ كُبَّابِ بْنِ تَمِيمٍ وَثَوْرَةِ بَنِي تَاقِنُوتَ

وَنَهَايَتُهُمَا

١٠

وَإِنَّ كُبَّابَ بْنَ تَمِيمٍ ، قَائِدُنَا بِأَرْجُذُونَةَ وَأَنْتَقِيرَةَ ، لَمَّا رَأَى ظَهْرُنَا
 عَلَى مَالِقَةَ ، أَكْبَرَهُ ذَلِكَ وَشَقَّ عَلَيْهِ ، وَعَلِمَ أَنَّ الْأَمْرَ مَنْجِزٌ إِلَيْهِ ، إِذْ
 كَانَ قَدْ أَضْمَرَ نِفَاقًا وَطَاعَةً فِي مَعْصِيَةٍ ، لَمَّا تَأَسَّسَ لَهُ هُنَاكَ فِي حِينِ الْفِتْنَةِ
 مِنْ ضَمِّ الْأَطْعِمَةِ ، وَالِاسْتِحْوَاذِ عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ بِقَطْعِهِ السُّبُلِ ، وَانْقِطَاعِ
 ١٥ أَهْلِ الشَّرِّ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ قَطْرِ . وَكَانَ أَمْرُهُ مِنْ ذُنُوبٍ مِمَّا جَاءَ عِنْدَنَا ،
 الَّتِي سَوَّغَهُ الْبَلَدُ ، وَجَعَلَهُ مِلْكًا فِي يَدِهِ وَيَدِي بَنِي عُمَةَ ، حَتَّى شَقِيَ بِهِ .
 وَلَمَّا تَمَّ صَلُحُنَا مَعَ الْمُعْتَمِدِ بْنِ عُبَادٍ ، خَالَفْنَا فِيهِ ، وَجَعَلَ يُفْسِدُ وَبِقُبْضِ
 مَا أَبْرَمْنَاهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا يَقِرُّ عَنِ الضَّرْبِ . فَجَعَلْتُ أَقْدِمُ إِلَيْهِ التَّرَّةَ بَعْدَ
 الْمَرَّةِ ، وَأَنْذَرُهُ عَاقِبَةَ اتِّبَاعِ هَوَاهُ ، وَأَقُولُ لَهُ : « إِنَّ لِلْمُصَالِحَةِ وَقْتًا يَنْبَغِي

(١) أصل : « الفتون » .

للمرء حفظها ؛ فإذا أفسدتها ، فأنت من المطالبين لي ا « فلا يزدجر مع هذا كله ، ولا ينفع فيه وعظ ، لإيجابه وتحامقه . وكانت كتب المعتد أبداً ترد بالشكوى منه ؛ فأضمر لنا من كفه غائلة . وكانت من سعادتنا أنه لم يعمل المعاملة مع أحد القرقيين .

- ٥ فلما طال الشكوى به ، قلت لرسول المعتد : « لا أستطيع على عزل كباب إلا بالمجاهدة في مفسدته ؛ فإن استوتقنا منكم أن يترأى عليكم ولا تقبلوه ، فنحن ضامنون لمرزته ا « فارتبط معي على أن لا قبل له رجعة ولا يُقال له عثرة . فألحختُ على كباب في أن ينزل عن المعتلين ، ثقةً مني بما ربطته مع المعتد ، فزاد طغيانه ، وخاطب على المقام إلى ابن عباد ، * يرغب في تصوير الحصون إليه . فأرسل إلى المعتد بكتابه ،
- ١٠ وحضني على شد اليد عليه والراحة منه ؛ ففعلت ذلك . وهذا مما تقدم ذكره من إنصاف المعتد لنا وقلة خلافه علينا منذ فارق ابن عمار ، كالذي أجبنا نحن في أمر بياسة ، وقت نفاق أهلها وأرسلت كتابهم إليه . وإن كباباً قبل ذلك ، لما رأى صنيعنا بمالقة ، على ما قدمناه ، نظر
- ١٥ - في زعمه - لنفسه وقال : « هذا ما صنع بأخيه ا وطاعت له الرعايا ا فكيف بن هو عبد من عبيده ؟ » وأحسن ذلك في نفسه ابن تافنوت ، صاحب مدينتنا ؛ وكان امرء سوء ، كثير الطغيان ، بعيداً من الخير ، مؤثراً للشر ، وكان له أخ بمحسن جريشة ، قد سوغه أيضاً سماجة إقليم نيمش كله ، وطال مكثه في الحصن سبعة أعوام ؛ فسوّلت له نفسه ، مثل ما أضمر
- ٢٠ كباب من النفاق ؛ فتعاقدنا جميعاً وتحالفاً أن لا ينزل أحدهما إلا بعزلة الآخر .

فشعرتُ للأمر ؛ فأولُ ما ابتدأتُ به النظرُ في أمر ابن تافنوت ، إذ كان أهمّ علينا من أجل مدينتنا التي كانت بيده ، وجريشة بيد أخيه . ورأيتُ معاقدةَ المعتمدِ عليه أكَّدَ ، إذ علمتُ من حنقه على كباب أنه لا يقبل له معذرة . فعاتلني على ذلك أيضاً بأحسن مُعاملة ، وتسرح بمسكركه قوّة إن احتيج إليه لحرب جريشة ، وشارك غايّة المشاركة في التوسّط بيننا وبينه ؛ وأرسل إليه رسوله ، يقول له : « إن كنتَ جَزَعْتَ من رئيسك ، فاترك حِصنه ! وأضمنْ لك عنه الحال الصالحة والأمان والإحسان ، وإن كنتَ لا تَثِقُ بهذا كلّهُ ، فانزلْ إليّ بعد أن أعطيك عهدَ الله وميثاقه ألاّ أسلمك إليه أبداً ! » فما كان جوابه إلّا إن قال : ١٠ « وما تصنعون بالحِصن ؟ » قال : « أُصيرهُ إلى صاحبه ! » فأبى وقال : « إنّما أريد أن أجعل المعقل بيد من يُذيقه الشرَّ ويتولّى فتنته ! »

فأتاني ابنُ* الأصبحيّ رسولُ المعتمد ، التوسّطَ خبره ؛ فقال لي : ٤٠ (ب) « اعزمْ على مُنازلة الرجل ! فليس فيه إلى الخير طريقٌ ؛ وهو متأهبٌ للشرِّ ، لا يقنعه إلّا الإصرارُ بك ! » وكان في هذا كلّهُ يقطع الشُّبْلُ ، ويُخيف الناسَ ، ويقتل أهل الرِّقَق ، ويُطْلِع أموالهم إلى الحِصن ، ما كان أشهرَ في الناس من الشمس ، حتى لا يتجرأ أحدٌ أن يجتاز بشيء من تلك الجهات .

فاستخَرْتُ اللهَ على منازلته ، ومكثتُ عليه ستّة أشهر ، لا بُالِي عما تنفق عليه من الأموال ، إلى أن رَقَّتْ حاله ؛ وأنا في هذا كلّهُ أقدمُ إليه وأبلى العذرَ عنده ، وأخوه في ثقافى . وأمّرتُ أخاه بأن : « اكتبْ إليه أنّى متى أخذته على غيرِ عهدي ، برّختُ بقتله ؛ وإن كان نزل على الأمان قبل

أخذه ، ولو بساعة ، لم يتوقع مِثِّي شيئاً ١ « فوالله ! ما تردُّ عليه هذه الكتب إلا ويزداد طغياناً وشتاً وحقاً ، حتى يسرَّ الله أخذه ، ودخل الحِصْنَ ، وكفى الله شرِّهم ، وطهرهم من البلاد ، وأراح منهم العباد .

وشاورت كبار البلدة وفقهاءها في خبرهم ؛ فخيروني في الذي حضَّ الله عليه من قوله تعالى (١) : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ الآية . فرأيهم مستوجبين للصلب ، وأنه أذهى وأمرُّ من أن يُنفوا من الأرض . فإن شرِّهم لا يؤمن . وكثيراً ما كان للمسلمون مُرتقبين لما حلَّ بهم ! ووالله ! ما صرفت وجهي لأحدٍ خاصة وعامةً من أهل بلادى إلا ووصف لي من أفعالهم القبيحة ما وترواها جميع الناس . ولقد كان يومُ قتلهم للناس عيداً كبيراً من سرورهم وابتهاجهم بالراحة من شرِّهم .

- وإنَّ كِتابَ بنِ تَمِيمٍ المذكور ، لما رأى ما صنَّعَ بيني تأقنوت ، زاده ذلك حماقةً واستيحاشاً ، وخاطبَ المُعْتَمِدَ على ما قدَّمنا ذكره . فأرسلنا إليه نُعرض عليه التخلِّي عن المُعْتَمِلِينَ ؛ فأبى ذلك ، وأعدَّ ، واستعدَّ
- ١٥ بِاللَّهِ الْحَرْبَ ، وضمَّ الحُرَّاسَةَ وأخاف السُّبُلَ ، وقطع* الطُّرُقَ وأتى بما هو مشهور من شرِّه . فاستخَرْتُ اللَّهَ على مُنازلته ، وأمرتُ بضمِّ الأجناد واجتماع الأنداب لقتاله ؛ فكان ذلك على أتمِّ ما يمكن . ولما أحسن من نفسه بالضعف ، وأتته لا ملجأً له ولا مهزَّبَ إلى أحدٍ بقلة إقبال السلاطين عليه ، تراءى علينا ، وسأل العفو ، خوفاً أن يحمل به ما حلَّ بيني تأقنوت
- ٢٠ إذ لم يقبلوا الأمان قبل الغلبة ؛ فأعطيته من العفو ما سأل ، ليكون ذلك

قدوة لمن سألَ مِنَّا التَّغَوُّ بعدَ الإساءة ، فلا يَيْئَسُ من فعلها ، إن دفعنا إلى مثلها بعدها ؛ وكانت الأولى عِظَةً وشُعْفَةً لمن تَفَرَّ ، ولم يقبل الأمان ، وتمادى على الظنَّيان .

وَكُنَّا لَا قُدُّمَ شَيْئًا وَلَا نَوَخْرَهُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ إِلَّا بَعْدَ رُويَةٍ وَفِكْرَةٍ
 ٥ في العاقبة ، وَنَدَّعُ مَشُورَةَ النَّاسِ ؛ فَإِنَّا بَلَوْنَا مِنْهُمْ قَلَّةَ التَّحْقِيقِ ، وَالنُّطْقِ
 عَلَى الْهَوَى : فَإِنَّمَا مُقْتُونٌ بِأَمْرِ يُزَيِّنُهُ وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا كَارِهِ تَخْيِيرٍ أَوْ
 مَطَالِبٍ لِأَحَدٍ ، فَيَجْعَلُنَا نَحِيرُ عَنْ مَا لَا يَطَابِقُ هَوَاهُ ، ﴿ وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ ، لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ ^(١) . فَلَمَّا بَلَوْنَا مِنَ النَّاسِ هَذِهِ
 الشَّمَائِلَ ، وَأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَحِبُّ أَنْ تَجْرِيَ الْأَحْكَامُ عَلَى اخْتِيَارِهِ ، رَجَعْنَا
 ١٠ إِلَى إِثَارِ اخْتِيَارِنَا ، إِذْ كَانَ نَظَرُنَا لَأَنْفُسِنَا أَرْسَدَ مِنْ نَظَرِ غَيْرِنَا ؛ « وَمَا حَكَ ظَهْرُكَ مِثْلُ ظَهْرِكَ » ^(٢) .

وَكُنَّا مَعَ هَذَا نَصَقَى إِلَى قَوْلِ النَّاسِ بِالْأَذْنِ ، لَا بِالْعَقْلِ ؛ فَفَقِيسٌ عَلَيْهِ
 وَنَحْتَبِرُ مُرَادَهُ ، وَلَا نُزِيهِهِ الْخِلَافَ ، فَتُوحِشُهُ ، غَيْرَ أَنِّي أَوْسِعُ لَمْ صَدْرِي
 وَيَسْعُ جَهْلُهُمْ حِلْمِي ، وَأَقْضَى بَعْدَ ذَلِكَ مَا أُرِيدُ ، إِذْ لَمْ أَكُنْ عَلَى أَمْرٍ
 ١٥ مَجْبُورًا وَلَا مَقْهُورًا ، إِلَّا مَا قَهَرْتَنِي عَلَيْهِ السِّيَاسَةُ ، وَمَا تُحَمَّدُ لَهُ الْعَاقِبَةُ ، كَمَنْ
 يَتَجَرَّعُ الدَّوَاءَ لِيُرِيَهُ الدَّاءَ ، وَلَمْ أَكُنْ أَغْتَبِنِ لِأَحَدٍ فِي الْحَقِّ مِنْ جَهَالَةٍ وَلَا
 غَفْلَةٍ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ مَسَاحَةً وَتَنَاقُلًا لِأَمْرٍ يُرَادُ ، أَوْ مُتَبَاعَةً لِلْقَوْلِ فِي
 حِينِهِ تَلَطُّفًا وَقَلَّةَ خِلَافٍ عَلَى قَائِلِهِ ؛ ثُمَّ أَصْرَفَهُ تَارَاتِ * فَالْجَاهِلُ عِنْدَنَا مَنْ ٤١ (ب)
 إِذَا أَشَارَ بِرَأْيٍ ، ثُمَّ رَأَى أَنَّهُ صُنِعَ ضِدُّهُ ، أَنْ يَعاوِدَ الْقَوْلَ فِيهِ : فَإِنْ كَانَ

(١) سورة المؤمنون : ٧١ .

(٢) راجع « مجمع الأمثال » للبديني (ط القاهرة ، ١٣١٠) ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .

فَطَلَبًا ، من التعيُّ التكرار ؛ وإن كان لم يعلم ، فالتذكير به غفلة .
استنفاصٌ لمخدومه ؛ اللَّهُمَّ إِنَّهُ لم يسمع منه الأولى ، فتجربى عن الأخرى
خِلافَ الرئيسِ عليه الأمرَ قد ظهر له ، وخفر عن القائل ، ولم يُرِدْ
عليه ؛ فيكون في رأيه البركة والخير للفريقين ؛ وهو يَوم على ما لا يد
ويتأدى جهالةً ، وينطق هذرًا ، وتنحرف نيتُه على غير معنى ؛
ظالمًا لنفسه .

فَأَوَدَعْنَا كِتَابًا حِلْمًا ، وَأَمَّنَّا ، وبقى في جملة الجند تحت إم
وإحمال ، غَيْرَ أَنِّي لم أَسْتَعْمِلُهُ بعدها في مَقِيلٍ ، ولا مَكْنَتُهُ من =
إذ « لا يلدغ مؤمنٌ من جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ »^(١) .

(١) راجع « جميع الأمثال » للميداني ، ج ٢ ، ص ١١٠ .

الفصل السابع

إمارة عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

(٣) قدوم المرابطين إلى الأندلس وموقعة الزلاقة ومحاصرة

حصن لِيِيط

٤٦ — مقدمات تدخل المرابطين في شؤون الأندلس

٥ وَبَقِيَتْ أَحْوَالُنَا عَلَى أَفْضَلِ مَا يُمْكِنُ ، وَبَلَّغْنَا مِنْ آمَالِنَا غَايَتَهَا ، إِلَى أَنْ
حَدَّثَ أَمْرُ الْمُرَابِطِينَ - أَعَزَّهُمُ اللَّهُ - . وَكُنَّا رَأَيْنَا كَلْبَ النَّصْرَانِيِّ عَلَى
الْجَزِيرَةِ وَأَخَذَهُ لَطْلِيظَةً ، وَقَلَّةَ رَفَقِهِ ، بَعْدَ مَا كَانَ يَقْنَعُ مِنَّا بِالْجَزِيرَةِ وَصَارَ يَرُومُ
أَخْذَ الْقَوَاعِدِ ، وَأَنْ أَخَذَهُ لَطْلِيظَةً لِلضَّعْفِ لِلتَّوَالِي عَلَيْهَا عَامًا بَعْدَ عَامٍ ؛ وَكَذَلِكَ
كَانَ مِنْ شَأْنِهِ فِي أَخْذِ الْبِلَادِ ، إِذْ كَانَ مَذْهَبُهُ أَلَّا يُنَازِلَ مَعْقِلًا ، وَلَا
يُفْسِدَ أَجْنَادَهُ عَلَى مَدِينَةٍ ، لِبُعْدِ مَرَامِيهَا وَمَنْ فِيهَا مِنْ مَخَالِفِي مِلَّتِهِ ، وَإِنَّمَا
١٠ كَانَ يَأْخُذُ مِنْهَا الْجَزِيرَةَ عَامًا بَعْدَ عَامٍ ، وَيَنْفِ عَلَيْهَا بِمَا شَاءَ مِنْ أَصْنَافِ
التَّمَدُّيِّ ، إِلَى أَنْ تَضَعُ وَيَتَلَقَّى بِيَدِهَا كَمَا فَعَلَتْ .

فَوَقَعَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْأَنْدَلُسِ رَجَاءٌ عَظِيمٌ ، وَأَشْرَبَ أَهْمُهَا خَوْفًا وَقَطَعَ
رَجَاهُ مِنْ اسْتِيطَانِهَا . وَجَرَتْ بَيْنَ الْمُعْتَمِدِ وَالْفُونَشِ مُخَالَفَاتٌ كَثِيرَةٌ ، وَسَأَلَهُ

أن يتخلى له معاقِل كان للموتُ عنده أولى من إعطائها. فوجست نفسه منه بالجملة ،
ورام كسره بطوائف المرابطين ، وضربَ بعضهم ببعضٍ للقدر الذي شاء الله :
إذا لم يكن عونٌ من الله لافقَى فأكثرُ ما ينجني عليه اجتِهادهُ
* وقد كان أخونا صاحبُ مائة ، للفتنة التي كانت بيننا وبينه ، قد ٤٧ (١)
داخلهم قبلُ يستغيثُ بهم ، ويرجو الانتقامَ مِنّا بهم ، وأن يُذكرُكوهُ
ما فاتهُ من مملكة جدّه ؛ وظنّ أنّه ، عند ظهورهم ، يقسم الأموال بيني
وبينته . وكان هذا الخلافُ كُلُّهُ من سعادة أمير المسلمين ، ورأى من تشَتَّتينا
أنّه لا مشقة تكون عليه في أخذِ بعضنا ببعضٍ متى شاء ، فلم يُجِئهُ الأمرُ
إلى شيء ، ولا كان وقته ، وهو يُبلغُ عليه بقلة الدربة .

١٠ ٤٧ — إرسال سفارات أندلسية إلى مراکش . احتلال

المرابطين الجزيرة الخضراء

وقد كان رُسُلُ المُعتمد قبل هذا قد وردت عليه ، تعلمه أن يتأهبَ
للجهاد ، وتعمده بإخلاء الجزيرة الخضراء ، وأنه لا يصلُ إلى سبّته إلا ويضعها
في يديه . فلما وصل متأهباً لذلك ، بمن احتفل به من جيشه ، قدّم رُسُلُه إلى
المُعتمد ، منهم عبدُ الملك القاضي . وابنُ الأحسن ؛ فأمنسكهم بإشبيلية مُدّةً
١٥ طويلة ؛ وأميرُ المسلمين في ذلك مُتعلّقٌ لورودهم ؛ فأرسل معهم من شيوخ
إشبيلية من يقول له : « ترَبّص من سبّته مُدّةً من ثلاثين يوماً ، إلى أن
نُحلي لك الجزيرة . » فأجابهم إلى هذا ، وسأله خطّ يده وبالتربّص .
فأشعرَ الأميرُ بذلك ، وقيل له : « لم يجعلك ابنُ عبّاد في هذا الالتواء إلا
٢٠ لأنّه يريد أن يرسل إلى ألفونس يُعلمه بقدومك ؛ ولعله يتأبّى له منه ما يرغب ،

ويهدده بك ، ويسأله أن يُعاقده على أن يهبه الجزيرة أعواماً . فإن فعل ، استعجاش عسكره على الجزيرة ، ومنعك الجواز ، فأَسْبَقَهُ إليها ! وإن كان النصراني لا يتأتى له ، أَرْسَلَ إليك في الجواز !

- ولما انفصل الرُّسُلُ عنه بنية التَّربُّص في إخلاء الجزيرة ثلاثين يوماً ،
- ٥ جهَّز عسكراً مُدَّماً من نحو خمسمائة فارس ، وأرسلهم في أثرهم ؛ فلم تصل الرُّسُلُ إلى الجزيرة آخر النهار إلَّا والمسكر في أثرهم قد عَدَوْا ونزلوا بدار الصناعة . فالتفت القومُ إلى خَيْلٍ قد ضربتَ سَحْلَتَهَا ، لم يُدْرَ متى أَقْبَلَتْ ؛ ولم يُصْتَبَحْ لهم إلَّا وطائفةٌ أُخْرِي بعدها ، يزيدون ويترادفون ، * حتى انكَل (ب) العسكر كُلُّهُ على الجزيرة مع داوود بن عائشة ، وأحدقوا حوالَيْهَا يحرسونها .
- ١٠ ونادى داود بالراضى ، وقال له : « وَعَدْتُمُونَا بالجزيرة ! ونحن نَأْتِي لَأَخْذِ بِلَدِهِ وَلَا ضَرَرٍ بِسُلْطَانٍ ! إِنَّمَا أَتَيْنَا لِلْجِهَادِ ! فَمَا أَنْ تُخْلِيَهَا مِنْ هُنَا إِلَى وَقْتِ الظُّهْرِ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا ، وَإِلَّا ، فَإِلَٰذِي تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، فَأَصْنَعْ ! »
- وخاطبَ أميرُ المسلمين ابنُ (١) عَبَّاد ، يُعْلَمُ بِمَا صَنَعَ ، ويقول له : « كَفَيْنَاكَ مَوْثَنَ الْقَطَائِعِ وَإِرْسَالَ الْأَقْوَاتِ لِأَجْنَادِنَا كَمَا وَعَدْتَ ! » فأرسل
- ١٥ الْمُعْتَمِدُ لابنه الرَّاظِي فِي إِخْلَاقِهَا لَهُمْ ، وَحَصَلَ فِيهَا دَاوُود . وَأَتَى الْأَمِيرُ إِلَيْهَا ، وَدَخَلَهَا نَازِئاً إِلَيْهَا ؛ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى سَبْتَةِ إِلَى وَقْتِ إِقْبَالِهِ . وَأَمَرَ دَاوُدَ بِالتَّحَدُّمِ إِلَى إِشْبِيلِيَّةٍ ؛ فَاسْتَوَفَتِ الْعَسَاكِرُ عَلَى إِشْبِيلِيَّةٍ .
- وقد كان رُسُلُنَا مَضُوعًا مَعَ رُسُلِ الْمُعْتَمِدِ إِلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، عَلَى اتِّفَاقٍ ضَمَّ بَعْضُنَا فِيهِ بَعْضًا إِلَى حَقِيقَةٍ ، وَعَاقَدْنَا أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنْ تَنْتَصِلَ الْأَيْدِي عَلَى غَزْوِ الرُّومِ
- ٢٠ بِمَعُونَتِهِ ، وَالْأَلَّاءُ يَرْضُ لَأَحْدَانَا فِي بِلَدِهِ ، وَلَا يَقْبَلُ عَلَيْهِ رَعِيَّتُهُ بِنِ يَوْمِ الْقِسَادِ عَلَيْهِ .

٤٨ - تجمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد

وأرسل [أمير المسلمين] ، عند حلوله بإشبيلية ، عن جميع الرؤساء ؛ فأثاب ابن صُباح ، فأبى عليه [وبقى] مترَبِّصاً ليرى كيفية الأمر وتخرجه مع الروم ؛ واعتذر بكبر السن مع الضعف ، وأرسل ابنه مُعتدراً . وبادرنا نحنُ إلى الخروج ، وسررنا بذلك ، وأعددنا ما استطعنا عليه للجهاد بأموالنا ورجالنا ؛ وقدّمنا الهدية إلى أمير المسلمين ، وأمرنا بضرب الطَّبل وما يُستَعَدُّ به للفرح ، عند مُخاطبته لنا بدخول الجزيرة . وظننَّا أنَّ إقباله إلى الأندلس مِنَّةٌ من الله عَظُمَتْ لَدَيْنَا ، لا سِيَّما خاصَّةً من أجل القرابة ، ولذی شاع من خيرهم ، وإقبالهم على طلب الآخرة ، وحُكْمِهِم بِالْحَقِّ ؛ فنعمل أنفُسنا وأموالنا في الجهاد معه ١٠ كلِّ عامٍ : فن عاش مِنَّا كان عزيزاً ، تحت سترٍ وحماية ، ومن مات كان شهيداً . والعجبُ في تلك السفرة من حُسْنِ النِّيَّاتِ ، وإخلاصِ ٤٣ (١) الضَّائِرِ ، كأنَّ القلوب إنما جمعت على ذلك .

ولقينا أمير المسلمين في طريقه إلى بَطْلَيْوَس بِجَرِشَة ، ورأينا من إكرامه لنا وتحفّيه بنا ما زادنا ذلك فيه رغبةً ، لو استطعنا أن ننحله لحومنا ، فضلاً على أموالنا . ولقينا المُتَوَكِّلَ ابنَ الأَفْطَسِ مُحْتَفِلاً بِمُسْكِرِهِ : كلُّ ١٥ يرغب في الجهاد ، قد أعمل جهده ، ووطن على الموت نفسه .

٤٩ - موقعة الزَّلَّاقَة وانتصار المسلمين على أَلْفُونْش السادس

وتلوّمتنا بِبَطْلَيْوَس أَيْاماً ، حتَّى صَحَّ عندنا إقبال أَلْفُونْش في حفلة ، يروم الزَّلَّاقَة ، ويطنُّ أنه يهزم الجيش لقلة معرفته به قبل . وساقه القدر

إلى أن توغّل في بلاد المسلمين ، وأبعد عن أنظاره ؛ ونحن يازاء المدينة ،
 مترَبِّصون : إن كانت لنا ، فيها ونعمت ، وإن لم تكن ، كانت وراءنا
 حرزاً ومثقالاً نأوى إليها . وأمير المسلمين يُدبّر هذا الأمر بحسّن رأيه ،
 ويلتوى ، عسى [أن] تقع الملاقاة بتلك الناحية ، دون أن يحوج إلى التوغّل في
 بلادهم . وهم ، كما دخلوا الأندلس ، ولا يعرفون من لهم أو عليهم ؛ ورجا
 ٥ بأن يكون الرومي لا يخرجُ إليه أحدٌ ، فينصرفَ طريقه ، ويكفي الله
 المؤمنين القتال ، إلى أن تُريه الأور وجوهها . فلا يُسمع إلا الأميرُ
 مترَبِّصاً لآلتيّاتٍ طافَ به ، ولولا ذلك ، لكان في أرض النصارى مدوِّخاً
 لها . والنصرانيُّ في هذا كله يقرب متعاطياً ، لا يعمل حساب من يُغلب ،
 ١٠ إن كانت عليه أن يكون بعيداً من أنظاره ، فيستأصله السيفُ ؛ ولولم يكن
 إلا يأكله الطريق ويبعدُ المسافة .

ثم أرسل ، على يدى ابن الأفضس ، إلى أمير المسلمين ، يقول له :
 « ها أنا قد أقبلتُ أريدُ ملاقاتك ، وأنت تتربّص وتختبئ لأصل المدينة ! »
 فلم يكن بُدُّ أن يُنتقلَ إليه ، ليكون الجيش على مقربة منه . وتواعدا
 ١٥ اللقاء في يومٍ سميّاهُ . ولم يكن بينَ التحلّيتين إلا نحو ثلاثة أميال ،
 فاستاغ المسلمون إلى ذلك الوعد ،* وحلّ الناس عن أنفسهم ؛ وكانت ٤٣ (ب)
 خيرةً أن لو رَكبت القِثتان ، لم تنفصل إلا عن قعدِ الأكثر من عسكر
 للمسلمين ، حسبما تُوجِبُه الموافقة للقتال .

فجّاهم عسكرُ الروميِّ ، وهم على غير إعداد . وكان مختلساً : إنما له
 ٢٠ ما آتَى في تلك الساعة ، وألقى سُمّه في الرّجل ؛ ومات منهم خلائق بمن
 لم يكن يقدر على نفسه . فلم تقع الصيحة على الجيش [إلا] وركبوا في

طلبهم ؛ وهم قد كلوا وثقلهم السلاح مع بُعد المسافة . فافتنى المسلمون آثارهم ، وركبهم بالسيف ؛ ومات من جيشهم خلائق ، وتبددوا في الطريق فن يئن قتيل وميت متقلٍ ضريع . ولو أن تلك الواقعة تكون على إعداد من وقوف الفئتين ومناطحتهما في اللقاء ، لفقد من العسكرين الأكثر ، كالذى توجبه الرتبة ؛ لكن الله لطيفٌ بعباده ، ولم يفقد من المسلمين إلا الأقل . وانصرف أمير المسلمين راجعاً إلى إشبيلية على حال سلامة ونصر .

٥٠ — يوسف بن تاشفين يعقد مجلس رؤساء الأندلس

بعد المعركة . بدء الخلاف بين المتحالفين

ولما انقضت غزواته تلك، جعنا في مجلسه ، أعنى رؤساء الأندلس ، وأمرنا بالاتفاق والائتلاف ، وأن تكون الكلمة واحدة ، وأن النصارى لم تقترصنا إلا للذى كان من تشئنا واستعانة البعض بهم على البعض . فأجابه الكل أن وصيته مقبولة وأن ظهوره مما يجمع الكل على الطاعة والجري إلى الحقيقة .

واتدب إليه ذلك الوقت أخونا صاحب مالقة ، وقال من غير روية :
١٥ « إن أحوالى قد ضاقت بتعدى أخى على بلادى وميراث جدى ١ »
يشير بذلك أن يأخذ له الأمير بحقه منا . فلما قضى كلامه ، قال له أمير المسلمين : « هل لقيت أخاك في هذا المعنى ، وتراميت عليه قبل مخاطبتك لى ؟ » فلما قال له : « لا ا » رد عليه : « ما ينبغي لنا ذلك إلا برضاه ا » ولم يمكننا في ذلك الحين السكوت لما يلزم من شكر الأمير ،
٢٠ و [كانت] فرصة لتبيان الحجة ، وإقامة عذرنا ألا يفتسب إلينا بعد نسيه .

*قلتُ له : « إِنَّ أمير المسلمين لم تكن غايته إِلَّا ما هو بسبيله من الجهاد ؛ ٤٤ (١) وهو لا يرضى أن ينقض ما أحكمه آباؤنا من قسمة ما قسموه من بلادهم بين أبنائهم . وليس منا أحدٌ حصلَ على شيء بقدرته ، إِلَّا بما تهيأ له عند الله والآباء من بعده ، مع إجماع المسلمين على الرضى بمن تخيروه . وقد كان الشيخُ جدُّنا — رحمه الله — رتبَ ذلك ، ورأى أن مآلة لا غنى بها من غرناطة ؛ فجعل أمرها مصروفًا إلينا من بعده ، كالذي كانت في حياته . فأنقضت من الأمر ما أبرم ، وقطعنا ، وأردت الاستبداد على غير حقيقة ولا أصل . ولو رأى جدُّك في ذلك صلاحًا ، لأعدَّ لك لذلك عُدَّةً تفنيك عنها ؛ ولما تعديت المرة بعد المرة ، سَعَيْنَا في صرف بعض الحال إلى ما رتبها عليه الجدُّ ؛ ولم نبلغ في ذلك الغاية التي تجبُ بالحياشك ١٠ ونفارك . وهذا ما وقع ! فإن شاء أميرُ المسلمين أن يبتنى من جديد ، وينقض ما رتبَ الشيخ ، فهو لنا بمنزلة : أمره نافذ ! وإن رأى ما فعل من ذلك سدادًا وصلاحًا ، فلائى وجه نكفئه ما لا يليق به ؟ » فلما تكلمتُ بهذا ، وقعتُ مُساكنةً . وأمر الأميرُ بانصرافنا ، ولم يُعِدْ في ذلك بعدها مجلسًا إِلَّا في سَفرةٍ لِيُبيطَ للمعونة . ١٥

وأخذ أمير المسلمين في الانصراف إلى بلاده ، وهو قد اطلع عيانًا وسماعًا من اختلاف كلمتنا ما لم يَرَ وجهًا لبقائنا في الجزيرة . وأنسَ الجميع ؛ ولم يتربص في البلاد إِلَّا يُوحش سلاطينها مما يتوقعونه من الحياش رعيّتهم إليه ؛ فكلُّ من شكا إليه ذلك الوقت من رعيّة ، يقول له : « لم نأت لهذا ! وال سلاطينُ أعلم بما يصنعون في بلادهم ! » حتى ازداد بذلك حُبّةً إلى ما كان عليه في قلوبنا ، وإليه استنامةٌ وميلاً . ورجع الكلُّ إلى وطنه . ٢٠

٥١ - عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس .

حصار حصن لييط .

وبقيت الحال على ذلك : قد أشرب الرُّومُ من تلك الواقعة خوفاً وانكاشاً . ولم تزل الحالُ صالحةً إلى سَفَرَةِ لييط .

٥ وإنَّ الْمُعْتَمِدَ بنَ عَبَّادٍ ، لَمَّا رَأَى من خِلافِ ابنِ رَشِيقٍ عليه ، وأَنَّهُ أرادَ أَنْ يَصْعَ ابنَه الرَّاغِبَ بِمُرْسِيَةِ عَوْصاً عن الجزيرة ، صار بنفسه إلى أمير المسلمين ، وجاز إليه البحر ، يريه الطمأنينة ، ويحكم معه* ما شاء من ٤٤ (ب) عملٍ في مُرْسِيَةِ وغيرها . وعَظَّمَ له شَأْنَ لييط ، وأَنَّهُ في قَلْبِ البَلَدِ ، وأن لا راحة للمسلمين إلا بَقَعْدِهِ ؛ وعاقَدَهُ على أَنْ يَأْتِيَ عليه بنفسه ورجاله ، لِكَيْ يَتَهَيَّأَ سَلَاطِينُ الأَنْدَلُسِ حَرْبَهُ بِمُدَدِهِمْ وأَجْمَاعِهِمْ ؛ فَيَأْمَنُوا مِنْ يُقْلِعُهُمْ عنه .

وَأَتَفَقْنَا كُتُبُ الأَمِيرِ ، بِأَمْرُنَا عند جوازِهِ ، بِالاستعداد للقتال وما شَاكَلَ ذلك . ففَعَلْنَا ، وبَادَرْنَا ، رَغْبَةً في الجهاد ، وَحُبَّةً فيه ، وإِثَارًا له ؛ وَخَرَجْنَا إليه ، ولَقِينَاهُ في حَيِّزٍ من بَلَدِنَا ، بِمَا يُطَابِقُ مِثْلَهُ من الهدايا والتَّخَفِ . وَاجْتَمَعْنَا على السَّيْرِ إلى لييط . ١٥

فَنَازَلْنَاهُ على أَمِّمْ ما يُمْكِنُ من الرِّجَالِ والمُدَدِ ، كُلُّ رَئِيسٍ بِقَارَتِهِ على حسب مجهوده ، وما تبلغ استطاعته وحيلته ؛ وهو قد امتلأ برعية الجبهة ، كُلُّهَا من النصارى ، وأَعَدُّوا فيه ما يَحْتَاجُ من كُلِّ شَيْءٍ ، قَتَلَ مَنْ نَظَرَ على سَعَةِ ؛ وَهُمْ في ذلك يَهْدُودُونَ بِمَجِيءِ الْفُونَشِ ، ويريمون الحيلة بالتَّخْيِيرِ كُلِّ لَيْلَةٍ ؛ والقَتالُ عليهم كُلِّ يَوْمٍ لا يَفْتَرُ ، مع البُنيانِ في المواضع ٢٠

المهمة عليهم ، ونصب المجانيق والعَرَّادات ، حتى لم يَبْقَ عَمَلٌ يُرَامُ به اقْتِرَاصُ المعاقِلِ إِلَّا وَصُنِعَ . وَأَتَى ابنُ صُمَادِحٍ بِفِيلٍ أَقَامَهُ ، وَخَرَقَ به العادة : أَصَابَهُ من الحِصْنِ قَبْسٌ نَارٍ ، فَأَحْرَقَهُ . وفي كُلِّ ذَلِكَ لا يَنْجَحُ عَمَلٌ ، ولا تَظْهَرُ فيه للمسلمين فُرْصَةٌ ، لِمَا شاءَ اللهُ من اختلاف الكلمة . ٥

٥٢ — مُحَاصَرَةُ لَيْيَطَ تَصَوُّرُ فَوْضَى مَلُوكِ الطَّوَائِفِ

في ذلك الحين

وكانت تلك سنة أخرج الله فيها أضغانَ سَلَاطِينِ الأَنْدَلُسِ . ورعيَّتْهم في ذلك يَأْتُونَ أَفْوَاجًا ، شَاكِينَ لِمَا وَجَدُوا لِمَنْ أَسْنَدُوا إِلَيْهِ : فَارِاضِي مِنْهُمْ يَلْتَمِسُ الزِّيَادَةَ ، وَالسَّاخِطُ يَرْجُو الْإِنْتِقَامَ ؛ وَجَلُّوا في شُكَاوِيهِمْ قَهْقَاهُمْ وَمَسَائِطَ ، يَقْصِدُونَ نَحْوَهُمْ : مِنْهُمْ الْفَقِيهَ ابنُ الْقَلَيْجِيِّ ، قَدْ صَارَ خِيَاؤُهُ بِتِلْكَ الْمَحَلَّةِ مَنَظِّطِيًّا لِكُلِّ صَادِرٍ وَوَارِدٍ ، يَجِدُ بِهِمُ السَّبِيلَ إِلَى الطَّلَبِ ، لِلْقَدَرِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللهُ . ١٠

ورأى سَلَاطِينُ الأَنْدَلُسِ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ تَحَامُقِ رَعَايَاهُمْ وَامْتِنَاعِهِمْ مِنْ مَغَارِمِ الإِقْطَاعِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، مَعَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَى الْإِفْئَاقِ ، مَا قَلَقَ بِهِ وَسَاءَ الظَّنُّ مِنْ أَجْلِهِ : * جَيْشٌ يَكْلِفُونَهُ كُلَّ عَامٍ ، وَبُحْمَلَاتٌ تَلْزِمُ (١) ٤٥ (١) الْمُرَابِطِينَ كَثِيرَةً ، وَتُخَفُّ مُتَوَالِيَةً ، لَوْ فَرَطَ مِنْهَا فِي شَيْءٍ ، لَانْخَرَمَتْ عَلَيْهِمُ الْأَحْوَالُ ؛ ثُمَّ رَعَايَا تَمْتَنِعُ مِنْ تَأْدِيَةِ مَا تَقُومُ بِهِ الْحَالُ لِلْمُوصُوفَةِ ؛ فَلَا حِيلَةَ إِلَّا بَيْنَ صَبْرٍ يُوْدِي إِلَى مَلَامَةٍ تَوْجِبُ عَقُوبَةً ، أَوْ امْتِنَاعٍ يُوْدِي إِلَى ٢٠ اسْتِنْصَالٍ ، كَالَّذِي جَرَى .

ونسمع في هذا كله من أهل جهاتنا تهذُّداً وعصياناً أنكرناه ، لا تتمُّ به تملكته ، ولا يتهيأ معه قضاء حاجة . ولقد كان القليعيُّ المذكور في تلك المَحَلَّة يَخاطِب إخوانه بِمَحْضَرَتنا أَلَّا يعطونا شيئاً ، ويَعِدُّهم بما كان ؛ فلَمَّا كان يَأْتِيهم الحَفْزُ مِنَّا ، يَقْعُدون بنا ، وَنَحْنُ أَخْوَجُ ما كُنَّا إِلَيْهِ لِلإِنْفاق ، لاسيَّما في تلك المَحَلَّة التي عُدَّتْنا فيها الأقواتُ إِلَّا بالشرَاء كلِّ يوم . فدخَلَ علينا من ذلك ضَرَرٌ شَنِيعٌ .

وطالتْ تلك المَحَلَّة الملعونة ؛ فَكُنَّا نَمَّا مِثْلَقُ أَبَانِ الطَّيِّبِ من الخبيث ، وكشف العورات ؛ فلم يَزِدْدِ الرُّؤساءُ إِلَّا تَوَحُّشاً ، ولا الرعيَّةُ إِلَّا تَسَلُّطاً ، ولا الداخِلون على مِثْلِ هذه النصبَةِ إِلَّا طمعاً ؛ وَحُقَّ لِم ، مع اختلاف كلمة الرُّؤساء ، وهم في أسباب الفَرْق : فن اغْتَرَّ منهم طالِبُ صاحِبِهِ ، وهو المَطْلُوب ، وشَفَلَه ذلك ممَّا هو في سبيله ؛ ومن ميَّز ، انفراد ، لم يَمِجِدْ مُعِيناً حَتَّى تَوَغَّلَ في اللجَّة وأَخَذَتْهُ المَحَلَّة . وكانت مقدِّمات سوء ، وزماناً على السلاطين عسيراً ، وسَعْدًا للرُّباطين مُقْتَبِلًا .

٥٣ - النزاع بين ابن عباد وبين ابن رَشِيْق

١٥ وأتى ابنُ رَشِيْق عند ذلك مُفسِداً بَرَّعَه لِمَا عقده ابن عباد مع الأمير ؛ وبذل الأموال للرُّباطين ، وسارَعَ إلى قضاء الحاجات . واصطَنَعَ إلى الأمير سِر — أَعَزَّه الله — وعوَّل عليه ؛ فَأَكْرَمَه الإكرام الشنيع . وألْقَى ابنُ عباد يَدَه في قَرُور ، مُعوِّلاً عليه في القضيَّة ، وبذل له أموالاً جسيمة ؛ والمُكْتَبِر على كلِّ حال يَغْلِبُ المُقِلُّ ، وإن شَفَّ عليه باليسير . ٢٠ وأُعْطِيَ ابنُ رَشِيْق الأمان ، وبُورِغَ له في التَّأْنيس ، حتى غَرَّه ذلك

- وانبسط له ؛ وتاه على ابن عبّاد ، وأظهر مَقْصِدَتَهُ والانخياشَ منه ، قائماً في ذلك بدعوة الأمير ومُسْنِداً إليه ، حتى أفضى ذلك به ، إلى أن أمر أن تكون الخطبة بِمُرْمِيَةٍ على اسمِ أمير المسلمين دون ابن عبّاد .
- والمُعْتَمِدُ ، * في هذا كله ، يَرَى من الأمر ما يبيظه ويكرهه ويتقطع ٤٥ (ب) منه حشرات ؛ وحقّ له ؛ فلم يَنْمُ عن القضية ؛ وأحكَمَها مع القُفَّاء ، واحتجّ عليه بأحكام السُّنَّة ؛ وكان مَن اصطنع على ذلك ابنُ القُلَيْبِيِّ ، وهو يفخر بالأمر عندنا ، ويقول : « سَيَرَى ابن رَشِيق ما يجلُّ به ! فقد شوَّورنا في أمره . وإن جُعِلَ لنا مَجْلِسٌ لغيره ، فعلنا به مثل ذلك ! » وكانت هذه الكلمة ممّا أَوْحَشَنَّا وَغَيَّرَتْ أَنْفُسَنَا عليه ، مع تهذّده تلك
- ١٠ السفارة ، وضرّبه الأمثال ، وحِدَقَ مَعَانِيهِ ، واستطالَّتْ بِلْسَانِهِ ؛ وأميرُ المسلمين لا يشعر بشيء من ذلك ، ولا نقدر نَحْنُ نشكو به بلا بَيِّنَةٍ ولا إقامة بُرْهَانٍ : فتكون له الحُجَّةُ ، وَفَعَّ نَحْنُ في الخزي ، لاسيّما بما كان يَنْتَحِلُ من [أهل] العلم .
- وإن أمير المسلمين ، لما رأى حالَ ابن عبّاد مع ابن رَشِيق ، واختلاف ١٥ ما بينهما ، أعمل في ذلك عَقْلَهُ ، ودبّره برأيه ، وقال : « ما تنبغي لنا مُفاسِدةُ ابن عبّاد من أجل ابن رَشِيق ، لاحتياجنا إليه فيما نَحْنُ بسيله ، ونَحْنُ لم نَأْمَنَ أَمْرَ الرُّومِيِّ . والأوْكَدُ علينا في هذا الوقت مُداراةُ ابن عبّاد ، حتّى تُرِينَا الأمورَ وَجُوهَهَا ! » فتعسّف على ابن رَشِيق في الذي أظهر من الخِلاف على صاحبه ، وقال له : « ما كان يَجِبُ لك أن تُقدِّمَ بدعوتي للقيام على رئيسك ، فتوقعَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ الشُّعْناء ! » وقال في نفسه :
- ٢٠ لم يفعل ذلك ابنُ رَشِيق إِيثاراً لي ولا مَحَبَّةً لِحَبَّتِي ! أكثر من اضطرام

النار على صاحبه وإشغاله بي عن نفسه ؛ ولا سيما أن معوته الرُّوم يُلَبِّط
لم تخف على أحد ؛ يستعد أن يبقاها يثبت في مُرْسِيَةِ ! « فكان أبداً يبرمهم
ويقوهم بما يعجزون عنه ، إبقاء لرمقهم ، وخوفاً من الداخلة عليه بقدرهم .
وصح ذلك عند الأمير ، والمُعْتَمِدُ في هذا كله لا يتألم عنه ، ويستغنى
فيه الفقهاء ، لنفاقه بعد دخوله في البيعة له أول أخذِهِ لمرسية . فاتفقت
عليه الأسباب ، وصنع له مجلسٌ أفتوا فيه بإزاحته عن المسلمين ،
وإسلامه لسلطانهِ . فاستغاث عند ذلك * بالأمر ؛ فأجابهُ : « إنه لو كان لك
عندى حقٌ ، لو هبته لك ، غير أنها أحكام السُّنة ، لا أستطيع على إزاحتها
عن مراتبها ! » وأمر بتنقيفهِ وإسلامهِ إلى المُعْتَمِد . وقيد في الحديد ،
ورأى هواناً عظيماً . وأمرَ للمُعْتَمِدِ الراضى ابنه أن ينزل في تحتته على المقام ؛
وكانه لم يكن بالأس . وأرسل الأمير إلى أهل مُرْسِيَةِ يأمرهم بالرجوع إلى
صاحبهم والطاعة له ؛ فخالف كلٌ من فيها من ابنه وقرابته ، وثقفوا مدينتهم
وجفوا كلٌ من مضى إليهم . وامتنعت الحال على ذلك ، بعد وسائل كثيرة
تكررت بينهم ؛ فلم يقدر معهم على شيء .

٥٤ — رفع الحصار عن لبيط .

١٥

تفرق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم

وشاعت الحجة ، وطال مكثها ، ومل الناس إلى أن ورد الخبر
بقُدوم ألفونس إليها ؛ فساءت الظنون من أجل ذلك . ورأى أمير المسلمين
أن الرجوع عنها والانصراف أولى ، لطول مكث الناس وفشلهم ، مع
جام القاديين من الرُّوم ومع خلاف مُرْسِيَةِ ، لئلا يسندوا إلى مبرها ومراقبها

٢٠

- إذ أنهم أرسلوا عن ألفونس وقت خلاصهم . فأخذ في الانصراف .
- ووقعت بين المعتد والمعتصم ، صاحب المريّة ، مشاجرات وتباعات باردة في معقل من نظر الجبل وفي أمر شربة ، ما وقع فيه الشكوى إلى الأمير . وانفصلا على غير موافقة : كل ذلك من النحسة المقضية عليهما .
- ومثل ذلك جرى لنا مع أخينا صاحب مالقة ؛ وجعل يكرّر في ذلك النظر الذي تكلم فيه سفرّة بطليموس ؛ وحفز في ذلك برّعه ، وقال لي بقلة دربتيه : « إنما منع من ذلك السفرة الأولى ذكرى له عند انفصال الأمير ، فلم يدرك ولا أذكر كنا والآن ، فلا بدّ من ذكره على سعة ؛ وإلا ، فالحق بيني وبينك ! » فلم تخف لقوله ، ولا كابرته ، لعلى أن الأمير لا يحفل بشيء من هذا كله . ولما رأى أمير المسلمين كثرة طلبه لنا ، أرسل إلينا قروراً ، يقول لنا : « لا يربك شكوى أخيك ؛ فإن السلطان لا يسعه أن يقول له : « اسكت عن طلبك ! » ، ولا يعطيه عليك يدًا ، غير أننا نلوى القصة مرحلة * بعد مرحلة ، حتى يقع الانفصال . » فشكرته على ذلك . وقال : « إن غرناطة عليه آكد من مالقة لاحتياجه إلى الاجتياز عليها في غزواته ، وما أشبه ذلك من المرافق ؛ فتقدّم أنت الآن ، وأعدّ جهذك ما يجب من ضيافة السلطان إذا [كان] خطوره عليك ؛ وهو ما ربك على غرناطة في انصرافه ! » فسرّني ذلك ، وتقدّمت إلى وادي آش ، وأعددت له ما كان جديراً به .

الفصل الثامن

إمارة عبد الله بن مُبَلِّق بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

(٤) سياسة عبد الله بعد عودته من لبيط : إجراءات

دفاعية وسياسية

٥٥ — تشاؤم عبد الله بعد رجوعه من حصار لبيط . مسلك قرور .

٥ ولما وصلت وادي آش ، وقد ظهر إلى قبل في لبيط من جفاء قرور
وتخوفه لي ، وتهديدي على لسان الأمير ، والأمير عند ذلك غافل ، غير أنني
حسبت ذلك من قبله لما رأيت من مكاتته عنده . فأذركني من ذلك رغب
شديد . وعانيت مع هذا ما حلّ بابن رشيقي ، وسيفتي وعيدي القليعي لي ،
وجفائه علي ، وإزالة رقبتي عنه ، ما زادني ذلك جرعاً ، لاسيما أن الجزع
والسوداء متعكنة من نفسي ، وأجدها في طباعي ؛ كدت أن أموت غماً .
١٠ ولم أرق قط قبل ذلك ذلاً ولا كدراً ؛ فأنكرت الأمور كلها مع السلطان ،
على حسب ما كان يُكرمني سفرة بطلينوس ، ورأيت ضد ذلك كله ؛
وقرور يُناصبني العداوة ، ويرسل المشاورين إلى هواني ، ويأمرني في حال
تلك الحرب بأوامر باردة ، يُريد بها إذلالاً ، ويُظهر إلى فيها التعنيف
١٥ والتعسف .

فلما دخل نظري ، أراد إصلاح ما أفسد معي . فتليت أن ذلك ليس

لنِيَّةٍ صَلَحَتْ ، بل لحاجةٍ عَرَضَتْ وَدَفَعَتْ إِلَيْهَا ضَرُورَةٌ مِنْ قِبَلِ الاجْتِيازِ عَلَى .
 ولأَجْلِ ذلك ، قال لي على لسان الأمير في خَبَرِ أَخِي ما قال ؛ وتبين لي أنه ،
 لو كان ذلك من عند الأمير ، لم يطلبُ قُرُورٌ مِنِّي عليها رشوةٌ . فَإِنَّهُ مع
 ذلك لم يُخَلِّني من مُؤَنَّتِهَا ، وعمل لي حُجَّةً في دَفْعِ ضَرَرِ أَخِي عَنِّي ،
 ٥ وَأَخَذَ مِنِّي عليها أَلْفَ دِينَارٍ مُرَابِطِيَّةً ، لم أَتَجَرَّأُ قَطُّ على ذِكْرِها مَدَّةَ حَيَاتِهِ ،
 لئلاَّ يَطْلُبَنِي عند الأمير ؛ ثُمَّ لم تَنْفَعِلْ ساعةً أَنْ انصَرَفَ ، وَطَلَبَ لِرَبِيْبِهِ
 خَمْسَمِائَةَ دِينَارٍ ؛ فَأَعْطَيْتُهَا لَهُ ، وكذلك كُلُّ ما يَطْلُبُ بِإِثْمَةٍ وَتَهْدِيدٍ ، مع قَلَّةِ
 رَحْمَتِهِ وَرِفْقِهِ ، * وَخَشُونَةِ لَفْظِهِ . ثُمَّ أُعْطِيْتُهُ فِي غِرْنَاةٍ أَلْفَ دِينَارٍ أُخْرَى ٤٧ (١)
 بِاسْمِ كِسْوَةِ خِيَلِهِ . وَأَمَّا الَّذِي صَارَ إِلَيْهِ فِي سَفَرَةِ بَطْلَيْوُسَ وَمُدَّةِ كَوْنِهِ عَلَى
 ١٠ لِيُطِيطَ مع الرُّسُلِ ، فَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَى ؛ وَهُوَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لَا يَزِدَادُ إِلَّا
 نَفَاراً وَاسْتِكْبَاراً . ومثل هذه الواسطة تُفْسِدُ عَلَى الرَّئِيسِ كَثِيراً ، وَتُبْغِضُ
 إِلَيْهِ جَمَاعَةً .

[أَرْسَلُ فِي] أميرُ المُسْلِمِينَ ، وَأَنَا بِمَكْنَسَةٍ ؛ فَسَأَلَنِي عَمَّا صَارَ إِلَى قُرُورٍ
 مِنْ قِبَلِي ، فَرَوَيْتُ الْأَمْرَ بِأَحْزَمِ ما يُمْكِنُ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « إِنْ أَعْلَمْتُهُ
 ١٥ بِذَلِكَ ، وَهُوَ عَلَى حَالِ التَّمَكُّينِ عِنْدَهُ ، فَرُبَّمَا أَخْرَجَهُ كِتَابِي عَلَيْهِ . وَتَقَرَّعَهُ بِهِ ؛
 ثُمَّ اسْتَقَرَّهُ عَلَى مَرْتَبَتِهِ ؛ فَيَكُونُ حَتْفِي عَلَى يَدَيْهِ ؛ وَلَوْ أَنِّي نَأْمَنُ مَكْرَهُ ،
 لَأَعْلَمْتُهُ بِالْحَالِ ، أَوْ رُبَّمَا يَقَعُ الْكِتَابُ إِلَى يَدِ قُرُورٍ مِنْ غَيْرِ تَعَمُّدٍ ، وَالنَّعَرَرُ
 لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا أَهْوَجُ ؛ وَكَثِيرٌ مِنَ الْحَقِّ يَجِبُ تَرْكُهُ ، [وَفِيهِ فَائِدَةٌ] بِصَاحِبِهِ ؛
 فَلَمْ يَسْعَنِ أَنْ أَقُولَ فِي جَوَابِي لِلسُّلْطَانِ إِنَّهُ لَمْ يَصِرْ إِلَى [بَغْيِ رَشْوَةٍ] ؛
 ٢٠ فَيَكْذِبُنِي ؛ إِذْ كَانَ يَعْلَمُ بِلَا شَكٍّ أَنَّنَا لَمْ نُخَلِّهِ مِنْ ذَلِكَ الدَّفْعِ الَّتِي

أعلمني رُسُلِي . وصَحَّ عِنْدِي أَنَّ قَرُورًا حَيْثُ بَصَدَّقْنِي ، وَلَا يَقَعُ قَرُورٌ عِنْدَهُ فِي (١) »

٥٦ — بعض المؤامرات وتحادُل ابن القُليعيّ

[أَمَّا أَخُونَا تَعِيمٌ ، صَاحِبُ مَالَقَةٍ ، * فَإِنَّهُ أَرْسَلَ إِلَى الْقَاضِي ابْنِ سَهْلٍ خَمْسِينَ (٤٧) رِبًا]
 ٥ مِثْقَالًا ، يَسْتَغْفِرُهُ عَلَى الْقِيَامِ عَلَيْنَا بِالْحُجَّةِ مَعَهُ فَرَدَّهَا إِلَيْهِ ابْنُ سَهْلٍ الْمَذْكُورُ ، وَتَنَزَّهَ عَنْ ذَلِكَ .

وَقَالَ لِي ابْنُ الْقُلَيْعِيِّ : « هَذَا وَقْتُ اقْتِرَاضِكَ لِهَذَا الرَّجُلِ ، بَأَن تَكْتُبَ إِلَيْهِ ، وَتَعِدَهُ بِالْقَضَاءِ عِنْدَ انْصِرَافِكَ ، وَهُوَ يَسْمَحُ فِي قِصَّةِ أَخِيكَ ، عَلَى أَنْ تَجْعَلَ مَعَهُ فِي أَحْكَامِهِ . فَإِذَا أَلْصَقْتَنِي بِهِ ، رَأَيْتَ عَجَائِبَ مِنْ تَأْتِي الْأُمُورَ عَلَى مَرْغُوبِكَ عِنْدَ الرَّابِعِينَ وَفِي بِلَادِكَ ؛ فَإِنَّكَ ، لَوْ شِئْتَ أَنْ تَأْخُذَ مِنْ أَحَدٍ دِرْهَمًا بَغِيرِ النَّامُوسِ ، لَسَمِجَ عِنْدَ النَّاسِ ؛ وَإِذَا أَخَذْتَ أَلْفًا عَلَى وَجْهِ الْحَقِّ ، حَلَّ لَكَ أَخْذُهُ ، وَلَمْ يَسْتَبْشِعْهُ أَحَدٌ . وَلَا أَجِدُ أَحَدًا [يَنْفَعُ لَكَ] مِثْلَ هَذَا الرَّجُلِ ! » وَلَمْ يُبَارِخْنِي حَتَّى دَفَعْتُ إِلَيْهِ بِخَطِّ يَدِي رُقْعَةً تَتَضَمَّنُ لَهُ الْقَضَاءَ ، وَمَا يَتَرَتَّبُ لَهُ عَلَيْهِ مِنْ مُسَانَهَةٍ وَمُشَاهَرَةٍ .
 ١٥ وَرَأَيْتُ إِبَاجَتَهُ إِلَى ذَلِكَ صَلاَحًا بِي وَخَطَأً بِأَخِي ، وَلِمَا تُوجِبُهُ السِّيَاسَةُ مِنْ مَسَايِرَتِهِ وَمُدَارَاتِهِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ . [وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ] قَدْ حَرَصَ عَلَى الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَلَا أَرَاهُ يَبْتَلِي إِلَّا بِي ، مَا لَمْ وَفِي هَذَا فَسَادُ مُلْكِي وَخَلَّتِي ، وَيَقْدَرُ عَلَى ذَلِكَ (٢) .

(١) خرم نحو نصف صفحة في الأصل .

(٢) خرم نحو نصف صفحة في الأصل .

« . . . * وبك واثقٌ غير أنك قد جعلتَ لي بقولك هذا من الحرص ٤٨ (أ) على هذا المال ما أريد أن تعلمني يمين يقبض ! » فإني لا أكاد أن أصدقَه ، لاحتياجي إلى ما تحنُّ بسيله من النفقات ، وإقامة هذا الجيش كل عام . فجعل يُسمَّى لي أقواماً لا يعشرهم في الخير والفضل ، وقدم ذكرَ صاحبِ الأحباس ابنِ سلْمون ، وتسبَّب إليه برسم الأحباس ، وغيرهم ممن لم يَبَلَّ منهم إلا الطاعة والنصيحة . فقلتُ في نفسي : « الله أكبر ! ما قصد هذا إلا إلى هذه الحاشية لنا ولأبائنا ، ألا وهو يُريد إفرادنا دونهم ، ليتمكن بما شاء ، ولا نجد صديقاً نستريح إليه ، مع ماتبين من إنفاسِهِ ، وحدهٍ مقاطيعه ، وأغراضه القاتلة ! »

١٠ والعين تبصُر في عيني مُحَدِّثها إن كان من حزبيها أو من أعاديها وجعل يطلبُ بني السَّنيدي والكتَّبة وغيرهم ممن قد اصطنعناه [ونأمن] أمانته ؛ ثم قال لي : « كلُّ ما رأيتَ من السلطان في لُييط كان مثلاً أن يجعل لك مجلساً ولتترك تسه وأنت على سعة ، وأفل شيئاً تبطل به حجته [عليك] (١) »

١٥ « . . . * كنتم عليها من التَّرقُّب والإنذار بالعيال نفثة حاقدة . ٤٨ (ب) وكان هذا القلبيُّ مخمولاً في أيام الشيخ جدُّنا — رحمه الله — ؛ وكان لا يدعه في المدينة ، ويأمره بسكنى ضيعةٍ ، لما كان يرى من شرِّه وقدرته على الدواخل . فلما ظهر أمر المرابطين ، اصطنع إلى مؤمِّل وغيره ، ووسَّي لي بسعة الخير والقدرة على الكلام ، وأنه لا أحدٌ يقدر على استمالته المرابطين على ما هو عليه . فوجَّهته رسولاً ، وهو في ذلك يعمل لنفسه ، ٢٠

(١) غرم نحو نصف صفحة في الأصل .

ويسعى في هلاكى في الباطن ، وينتفث بذلك ، على ماصح عندى ، ويقول :
« والله ! لأبلغنَّ حَقِيدَ باديس الطينة السوداء ، ولأشوقه إلى دِرْهم ينفقه ،
[وذلك] على صنيع جدّه بى وبشبرى ! »

وأخبرنى أبو بكر بن مُسْكَن أنه [كان كتب] إلى أمير المسلمين في
أول سَفَرِهِ معه ، ولقى في الطريق خَبَرَ دخوله [الأندلس] ، وقال :
« هذا على رَغَمِ أنوف الفسقة سلاطين الأندلس ! » فقال أبو بكر بن مُسْكَن :
« وَمُخْلَطٌ معهم سُلْطَانُكَ ؟ » فقال : « نَعَمْ ! وهو المُقَدَّم إن شاء الله !
..... مات لتَنَفُّذِ الأقدار ! » فلما أذن الله بانصرافه تكلم
ابن سَهْلٍ إلى الأمير وقال له : « أَنْتَ على »^(١)

١٠ « . . . * نحن بحال لا يرضى عنا فيه لارعية ولا جندٌ ؛ وفي هذا
الفسادُ والقطعُ . قال لى القليعى : « إن نَمِنَ عليك الجندُ ، استنجدتَ
من العدو من يغنيك عنهم . ودَعْنِي ورَأْيِي بعد إشراكى مع ابن سَهْلٍ ،
ولا عليك من حيث يقوم لك المال ! »

فرايتُ أَمْرًا مُعَمًّى ومستأثراً به دونى ، مع ما كان ينطق به لسانه أبداً
١٥ من الوعيد ، والتَّهْدِيدِ عند أَصْدِقَائِهِ وَمَنْ ينقل ذلك إلى عنه أنه يقول :
« والله ! لأبلغنَّ من حَقِيدِ باديس ما كان يبلغ جدّه مِنِّي ومن غيرى ! »
يسرح بذلك لَقَّةً تحفظه وإرساله لسانه ، ولاحتِقَارِهِ لنا واحتياجنا إليه . فزاد
ذلك الجندَ قَلَقًا ، وهُمُوا بالانتقال مُجْتَمِعِينَ على ذلك .

فلما بصرتُ هذه الحالة ، قلتُ فى نفسى : « أنا بسبيل ، إن استفسدتُ
٢٠ إلى الجند ، وهم جَنَاحَايَ ، أن بقيتُ وحدى مع يَرُومُ خَلْعَى . فالأولى على

(١) خرم نحو نصف صفحة في الأصل .

كلَّ حال أطباؤهم ، واستِصلاحُ ما فسد من أنفسهم ؛ وإسْخاطُ القُلَيْبِ وَحْدَهُ واجبٌ في رَضَى عَامَّةِ عبيدى وأجنادى . « جُمِعَتْهُمْ بِمَحْضَرِهِ ، وَأَعْلَمَتْهُمْ أَنِّي رَاجِعٌ عَنْ ذَلِكَ لِلذَّهَبِ ، وَرَأَيْتُ عَلَيْهِمْ إِتْرَالَتَهُمْ . فقام الكلُّ على القُلَيْبِ ، وَهَمُّوا بِاخْتِطَافِهِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْ لَوْلَا إِمْسَاكِي لَهُمْ ؛ وَخَشِيتُ مَعَ هَذَا عَلَيْهِ أَنْ يَقْتُلُوهُ ، فَتَكُونُ شَهْرَةً وَعَقُوقًا ، وَيَنْجِرَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ الْحَمُودِ .

قُلْتُ لَهُمْ : « أَنَا أَكْفِيكُمْ أَمْرَهُ ! » وَأَعَرْتُ بِتَقَافِهِ عَلَى أَجَلِ الْوَجُوهِ فِي بَيْتِ بَرَبٍ مِنَ الْقَصْرِ ؛ وَكَانَ تَحْتَ بَرٍّ وَإِكْرَامٍ ، وَأَنَا فِي ذَلِكَ أَعْتَدِرُ إِلَيْهِ مِنْ قِيَامِ الْعَامَّةِ ، وَأَعِدُّهُ بِالْانْطِلَاقِ عِنْدَ إِطْفَاءِ النَّارَةِ ، كَالَّذِي صَنَعْتُ .

فَلَمَّا تَوَلَّدَتِ الْأَحْوَالُ وَقَرَّتْ قَرَارَهَا ، أَمَرْتُ بِإِخْرَاجِهِ ، وَأَنْهَيْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَكْفَى لِسَانَهُ ، وَيَدْعَ فُضُولَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ إِلَّا فِيمَا يَغْنِيهِ وَيُشَارِكُ طَرِيقَتَهُ . فَقَالَ لِي : « نَعَمْ ! أَنَا أَلْتَزِمُ الرِّوَابِطَ ، وَأَسْأَلُكَ سَبِيلَ الْعَافِيَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ! » فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ انْطَلَقَ ، وَطَارَ* إِلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِالشَّكْوَى ، ٤٩ (ب) وَزَادَ فِي الطِّينِ بَلَّةً . فَقَالَ لِي الْجُنْدُ : « لَوْ أَنَّكَ أَمْسَكْتَهُ ، لَمْ يُهَيِّجْ عَلَيْكَ النَّارَ ! وَسَتَلْدُمُ عَاقِبَةَ انْطِلَاقِهِ ! »

١٥ — ٥٧ — سيرة الجند مع الأمير في ذلك الحين . تشييد الحصون

وَأَرَانِي جَمِيعَ الْجُنْدِ مِنَ التَّائِيِّ وَالْإِقْيَادِ وَالْمُنَاصِحَةِ مَا حَسِبْتُ أَنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ غَيَّ الدَّجَالِ . فَسَرَرْتُ بِهِ هَذِهِ الْحَالَةَ ، وَاطْمَأْنَنْتُ إِلَيْهَا ، وَقُلْتُ : « هُوَ لَاءُ أُمَّةٍ لَا يَرَوْنَ بِي بَدِيلًا لِإِنْصَافِي لَهُمْ وَرَغْدِ عَيْشِهِمْ مَعِي ؛ وَهُمْ قَدْ رَأَوْا جُنْدَ الْمِدْوَةِ ، وَأَنَّ أَقْلَ عَبْدٍ لَهُمْ أَقْنَى مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَأَصْلَحُ حَالَهُ .

٢٠ فَلَا يُمْكِنُ اسْتِبْدَالُ الْأَذْنَى بِالْأَفْضَلِ ! » ثُمَّ عَلِمْتُ قِيَاسَ لِلْغَارِبَةِ أَهْلِ

الحصون ، وَعَلِمْتُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ ؛ وَلَمْ نَظَنَّ قَطُّ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَبِيعُ
أَبَائِي . وَإِنَّمَا وَجَسْتُ نَفْسِي مِنَ الرِّعْيَةِ لَطَمِهِمْ فِي حِطِّ الْمَغَارِمِ ، وَلِلَّذِي
شَاعَ مِنَ الزَّكَاةِ وَالْمُشْرِ عِنْدَ الرُّبَاطِيِّينَ . قُلْتُ : « إِنَّ بِهِذِهِ الْعِقْبَانَ الَّتِي عَلَى
رُؤُوسِهَا ، لَا تَجْتَرِئُ عَلَى شَيْءٍ ! وَإِذَا تَقَفَّتْ لِلْمَعَايِلِ ، كَانَ أَمْرُ الرِّعْيَةِ يَسِيرًا .
وَكَمْ عَسَى يَسْتَطِيعُ الْجَيْشُ الْقَادِمُ عَلَى أَنْ يَتِمَّ جَمِيعَ الْبِلَادِ ؟ وَمُحَاوَلَةُ مَقْعَلٍ
وَاحِدٍ مِنْهَا تَطُولُ ، وَتَخْذُثُ فِي خِلَافِهِ أَخْوَالُ . »

فَصَرَفْتُ وَجْهَ اهْتِبَائِي إِلَى تَشْيِيدِ الْحَصُونِ وَبُنْيَانِهَا ، وَإِعْدَادِ مَا يُصْلَحُهَا
لِلْإِخْصَارِ إِنْ كَانَ . فَلَمْ أَدْعُ وَجْهًا مِنْ وَجُوهِ الْحَزْمِ إِلَّا وَضَعْتُهِ : مِنْ إِقَامَةِ
الْأَجْيَابِ ، وَإِعْدَادِ الْمَطَاحِينَ ، وَأَنْوَاعِ الْمُدَدِ مِنَ التَّرَاسِ وَالنَّبْلِ وَالرَّعَادَاتِ ،
وَجَمِيعِ الْأَقْوَاتِ ؛ وَقَلَعْتُهَا مِنَ الْقُرَى ؛ وَأَعَدَدْتُ لِكُلِّ حِصْنٍ قُوَّتَهُ لِأَزِيدَ
مِنَ الْعَامِ . وَفَعَلْتُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْمَدِينَةِ حَضَرَتِي ، مَا اسْتَعْنَيْتُ عَنْ
تَحْدِيدِهِ لِاشْتِهَارِهِ .

وَقُلْتُ : « لَيْسَ مِنَ الْمُتَمَكِّنِ أَنْ يَتَعَرَّضَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ أَحَدًا مِنْ
سُلَاطِينِ الْأَنْدَلُسِ إِلَّا بَعْدَ إِبْرَامِهِ لِأَمْرِ الرُّومِيِّ ! وَلَا بُدَّ عِنْدَ مُنَاطَرَتِهِمْ مِنْ
فَرَجٍ : إِنْ غَلَبَ الْمُرَاطِطُ ، لَمْ يَفْتُنَّا الدَّخُولُ فِي طَاعَتِهِ ، وَلَا أَسَدَيْنَا إِلَيْهِ
مَا تَذَمُّ عَاقِبَتُهُ أَكْثَرَ مِنَ الْإِحْتِيَاطِ عَلَى بِلَادِنَا وَالْمُدَارَاةِ عَلَيْهَا ؛ « فَلَا
الْحِمَارُ سَقَطَ ، وَلَا الزُّقُ انْتَحَرَقَ ! » نَحْنُ مُذَرِكُونَ : لَا يَنْتَبِهُ تَقْدِيمُ
يَدِهِ سَيِّئَةً إِلَيْهِمْ . * وَإِنْ غَلَبَ الرُّومِيُّ ، كُنَّا مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ ، وَقَدْ نَفَعْنَا ٥٠)
مَا أَبْرَمْنَاهُ مِنْ هَذَا الْبُنْيَانِ وَالتَّشْيِيدِ ، وَاتَّخَذَ الْمُدَدَ ؛ فَسَيَكُونُ بِذَلِكَ
لِلْمُسْلِمِينَ حِمَايَةٌ وَانْجِرَارٌ إِلَى غَدٍ ، إِذَا الْبُنْيَانُ مِنَ الْمُرَاطِطِ لَا يَنْفَعُ ! »
وَلِذَلِكَ أَعَدَدْنَا الْمَنْكَبَ : إِنْ تَغَلَّبَ الرُّومِيُّ ، فَأَكُونُ عَلَى الْبَحْرِ مَتَصِلًا

بالمسلمين ، ندافع منها جهدنا ، إلى أن نُضطرَّ إلى الجواز وطلب السلامة
بمُشاشة أنفسنا ونُتَقَّ من أموالنا . فشيدتها لذلك ، كالذي شهر عنا .

والجاهل لا يدرى ما أولُ هذا ولا آخره ، إلَّا ويخبط [خبط] عشواء :

فكلُّ يتكلَّم على شهوته . ولم نَمْتَقِدْ في أمر المرابطين — يعلم الله ذلك —

٥ صَدَّهم عن جهادٍ ، ولا تظافراً مع أحدٍ عليهم ، ولا أردتُ بهم شيئاً من

مساءة نُسِبَتْ إلينا ، أكثر من أني جَزَعْتُ الجزع الشديد مما تقدَّم

ذِكْرُهُ من تلك المعاني التي أبصرتها ، وما جرى على ابن رَشِيق ، مع

هَلَبِي لذلك ، وتمكَّن السوداء مِنِّي ، وسوء الظنِّ مع معاينة اليقين .

فقلت : « ما دام تَتَلَقَّى المِثْثَان ، نخشى حملة السيل على هذه المدينة :

١٠ فَتَحْصِنُهَا أَوْلَى ، ولن يُضِرَّ ذلك » ففني دعائي أمير المسلمين إلى إعطاء

عسكري أو مالٍ ، أو ما أشبه ذلك مما يَجِبُ من مُشَارَكَةٍ وإنجاده ، لم

تتأخَّرَ عنه ، فتقيم على نفسى الحُجَّة ؛ وتَجَلِبُ إلى المَضَرَّة إن فعلتُ غَيْرَهُ ؛

غَيْرَ أَنِّي ، متى دعائي إلى الخروج إليه بنفسى ، نَمْتَذِرُ وندافع ذلك

جهدى . فمسي [أن] يتركنى ويقبل عذرى ؛ ومتى لم يقبل لى عذراً ، نعلم

١٥ أنه يُريد إخراج أمرى إلى حدود الفعل ؛ فهو إذاً على متَعَسِّفٍ لكلام الأعداء

والكذب ؛ فلا بُدَّ لى عند ذلك من الاحتياط على مُهَجَّتِي والتحصين على

نفسى ، ونجعله إذ ذاك كسائر مَنْ يُريدُ إخراجى من السلاطين ؛ وَلِى مَعَهُ

اللهُ ، إذا لم أنوِّ به سوءاً ، ولا واسَّيتُ عليه أحداً ، ولا صَدَدْتُهُ عن

جهاده . فبأى شئ يَتَسَبَّبُ إلَيَّ إلَّا إن شاء التذنب مع القدرة ؟ فلا

٢٠ طاقة لى بذلك ،* كالذى صَنَعَ إنسانٌ دَخَلَ على بعض الملوك ، وقد أعدَّ ٥٠ (ب)

لكلامه جواباً ؛ فلما خَرَجَ إلى الثَاقَف ، سُئِلَ عن إعدادِهِ الجواب وزَعَمِهِ

أَنَّ ذَلِكَ نَافِعٌ لَهُ ؛ فَقَالَ : « لِكُلِّ كَلْفٍ وَجِدْتُ جَوَابًا إِلَّا لِقَوْلِهِ :
 « خُذُوهُ ! » فَلَمْ أَذِرْ مَا أَقُولُ فِيهَا ؛ فَوَكَّلْتُ الْأَمْرَ إِلَى الْأَقْدَارِ ! »
 وَكُنْتُ ، أَيَّامِي تِلْكَ ، بَيْنَ الرِّجَاءِ وَالْخَوْفِ ، إِلَّا أَنِّي وَاثِقٌ بِكُلِّ
 مِنْ مَعِيَ مِنْ رَجَالِي وَخِدْمَتِي أَنَّهُمْ لَا يَنْدَرُونِي . فَقَوَّيْتُ نَفْسِي لِذَلِكَ بَعْضَ
 ٥ الْقُوَّةِ ، مَعَ مَا كُنْتُ أَعِدُّنَهُ .

٥٨ - معاقدة عبد الله مع آلبرهانش وكيل الفونش السادس

ولما حان انصرافنا من لِيُطِيط ، كَلَّمْنَا أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ فِي عَشَرٍ يَتَرَكُهُ
 عِنْدَنَا بِالْأَنْدَلُسِ ، خَوْفًا مِنَ الرُّومِيِّ أَنَّهُ يَكْلِبُ عَلَيْهَا ، وَيَطْلُبُنَا بِثَأْرِ تِلْكَ
 ١٠ السَّفَرَةِ وَغَيْرِهَا ؛ فَلَا يَكُونُ عِنْدَنَا مِنْهُنَّ نُدَافِعُ ؛ فَقَالَ : « أَصْلِحُوا نِيَّاتَكُمْ ،
 تُكْفَرُوا عَدُوَّكُمْ ! » وَلَمْ يَعْطِنَا عَسْكَرًا . فَأَيَّقْنَا أَنَّ الرُّومِيَّ لَا يَدْعُنَا عَلَى
 هَذِهِ الْفُرْصَةِ دُونَ طَلَبِهِ . كَالَّذِي كَانَ . فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ احْتَفَلَ وَأَتَى طَالِبًا
 لِلْمَالِ ، مُتَجَنِّيًا عَلَى مَنْ خَالَفَهُ أَنْ يُفْسِدَ بِلَادَهُ . وَعَاقَدَ صَاحِبَ مَرْقُوسَةَ
 وَمَنْ يَلِيهِ مِنَ الشَّرْقِ ؛ فِدَاقَمُوا شَرَّهَ وَدَفَعُوا إِلَيْهِ مَا سَلَفَ لَهُ عِنْدَهُمْ .
 ١٥ وَبَلَفَنِي الْخَلِيرُ ، وَزَادَ ذَلِكَ فِي غَمِّي ، وَعَلِمْتُ أَنِّي فِيهِ كَرَاكِبِ الْأَسَدِ :
 إِنْ أَسَلْتُ الْبَلَدَ ، وَلَا عَشَرَكَ عِنْدِي ، هُتِكَ ، وَلَمْ يَنْجِبْ لِي فِيهِ دِرْهَمٌ ،
 وَلَمْ أَغْذَرْ مَعَ هَذَا ، وَلَا يَقْرَأُ الْمُطَالِبُ بِأَنْ يَقُولَ عَنِّي إِنِّي ضَيَعْتُهُ أَوْ
 سَقْتُ إِلَيْهِ الْعَدُوَّ ، كَالَّذِي رَأَيْتُ وَسَمِعْتُ قَبْلُ عَنْ ابْنِ رَشِيقٍ — وَخُسَارَةُ
 بَلَدِي زَائِدَةٌ — وَلَا نَقِيمُ أَوْدًا بِذَلِكَ لِكُلِّ مَا مُحَاوَلُهُ مِنَ الْغَزْوِ كُلِّ عَامٍ
 ٢٠ وَضِيَافَاتِ الْمُرَابِطِينَ ؛ فَتَجَمَّعَ عَلَيَّ الْخُسَارَةُ مِنْ وَجْهَيْنِ . وَإِنْ وَاسَيْتُ الْقَوْمَ

وَأَصْلَحْتُ عَلَى نَفْسِي ، قِيلَ : « قَدْ عَاقَدَ الرُّومِيُّ ! » وَيُسْنَعُ عَلَى مَا لَمْ أَفْعَلْ ، كَالَّذِي كَانَ . فَلَمْ أَنْجُ مِمَّا تَوَقَّعْتُ لِلْقَدَرِ الْمُتَغَيُّبِ .

وَكَانَ أَلْبَرْهَانُ زَعِيمَ جِهَاتِ غَرْنَاطَةِ وَالْعَرِيَّةِ ؛ وَكَانَ الْفُونُشُ قَدْ وَكَّلَهُ أَمْرَ الْجِهَتَيْنِ ، * مِنْ إِتْقَادِ أَمْرِهِ فِيهَا لِفَسَادٍ عَلَى مَنْ تَعَذَّرَ لَهُ عِنْدَهُ ٥١ (١) شَيْءٌ ، وَلِقَبْضِ مَالٍ وَتَوَسُّطٍ مَا يَنْفَعُهُ فِيهَا . فَأَرْسَلَ إِلَى أَوْلَا عَنْ نَفْسِهِ ، يُنْذِرُ بِدُخُولِ وَادِي آتَشَ ، وَأَنَّهُ لَا يَرُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا الْفِدَاءُ لَهَا . فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « وَمَعَ مَنْ أَتَيْتُ رَأْيَهُ ؟ أَيُّ مَقْدَرٍ بَنَى عَلَى مُدَافَعَتِهِ ؟ لَا عَسْكَرٌ تَرِكَ لَنَا مُدَافِعُ بِهِ ! فَكَمْ يَأْخُذُ فِي هَذِهِ النَّصْبَةِ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ ! وَكَمْ يَفْسُدُ فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ ! مَا لَا يَبْشُرُ قِيَمَةً مَا يُعْطَى كَالَّذِي عَهَدْنَا مِنْهُمْ ! اللَّهُمَّ ! لَوْ كَانَ ، وَفَعَدَ ذَلِكَ ، وَبَيَّلْنَا عَنْ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ عِنْدَهُمْ ! أَلَيْسَ مِنَ الصَّلَاحِ إِفْدَاؤُهُمْ ^(١) بِمَا عَزَّ ؛ فَتَحْنُ جُدْرَانَهُ أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ قَبْلَ رِحْلَتِهِمْ دُونَ فُسَادٍ فِي الْبِلَادِ ! وَتَحْتَسِبُ ذَلِكَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَهُوَ الْعَالَمُ بِالضَّمَائِرِ ! فَإِنَّا لَوْ فَكَلْنَا ذَلِكَ أَشْرًا وَبَطْرًا ، وَعِنْدَنَا بَيْنَ مُدَافِعٍ ، لَكَانَ فِيهِ الْحُجَّةُ عَلَيْنَا ! »

١٥ فَاجْتَمَعَ رَأْيُنَا عَلَى إِرْضَائِهِ بِالْيَسِيرِ ، مَعَ مُعَاقَدَتِهِ إِلَّا يَقْرُبَ لَنَا بِلْدًا بَعْدَ أَخْذِ هَذِهِ الدَّفْعَةِ ، فَارْتَبَطَ إِلَى ذَلِكَ . فَلَمَّا حَصَلَتْ عِنْدَهُ ، قَالَ : « هَا أَنَا قَدْ صَلَّحْتُ جَانِبِي ! وَالْأَوْكَدُ عَلَيْكُمْ أَمْرُ الْفُونُشِ ، الَّذِي هُوَ عَلَى الْحَرَكَةِ عَلَيْكُمْ وَإِلَى غَيْرِكُمْ ؛ فَمَنْ أَنْصَفَهُ نَجَا ، وَمَنْ حَادَّ عَنْهُ ، فَسَلَطْنِي عَلَيْهِ ! إِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ ، لَا بُدَّ مِنْ إِيْتَانِ مَرْغُوبِهِ ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ أَمْرِهِ . وَلَا يَنْفَعُكُمْ هَذَا الَّذِي أُعْطِيتُمُونِي إِنْ خَالَفْتُمُوهُ . وَلَيْسَ بِنَافِعٍ إِلَّا فِيمَا يُخْصُنِي دُونَ رَأْيِي ٢٠

(١) أصل : « أَفْدَاؤُهُمْ » .

إِنْ حَدَّ لِي ضِدَّهُ ! » فَعَلِمْنَا أَنَّ قَوْلَهُ حَقٌّ يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ . قُلْنَا : « لَا يُمْكِنُ أَنْ نَوَجَّهَ نَحْنُ إِلَيْهِ وَنَبْدَأَهُ ؛ فَنُوقِظُهُ لِأَكْلِنَا ! وَلَكِنْ ، مَتَى أَرْسَلَ بِأَذْنِ بَذَلِكَ ، سَنَعْتَدِرُ إِلَيْهِ ؛ فَعَسَى [أَنْ] يَقْبَلَ رَغْبَتَنَا ، وَلَمْ نَفْتَحْ لَهُ بَابًا فِي إِعْطَاءِ شَيْءٍ إِلَّا يَزِيدَ طَمَعَهُ ! أَكْثَرُ مِنْ تَلَوَّى الْقَوْلَ ، عَسَى مِنْ هُنَا إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ ، [أَنْ] يَأْتِيَ عَسْكَرٌ يُكْسِرُ بِهِ ؛ فَلَا يَبْأُ بِقَوْلِهِ . وَإِنْ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ ، لَمْ نَكُنْ نَقْدِّمُ إِلَيْهِ قَبِيحًا ، فَتَشَقَّى عِنْدَ ذَلِكَ . »

وَدَافَعْنَا الْأَمْرَ عِنْدَ الْبَرَهَانِش ، وَأَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى أَنْ نَعْطِيَهُ ^(١) شَيْئًا ، * وَاعْتَذَرْنَا بِالْمُرَابِطِينَ وَغَيْرِ ذَلِكَ بِمَا لَزِمْنَا مِنَ النِّفَقَاتِ عَلَيْهِمْ . فَسَكَتَ عَنَّا ٥١ (ب) الْخَنْزِيرُ ، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبِهِ ، كَالَّذِي يُلْزِمُهُ مِنَ التَّخَذُّمِ لَهُ ، وَسَأَلَهُ أَنْ يُوَجِّهَ لِي رَسُولًا يُطَلِّبُ جِزْيَتَهُ ؛ فَإِنْ انْصَرَفَ دُونَ شَيْءٍ ، كَانَ هُوَ الْمُتَنَقِّمَ ١٠ مِنْ جِهَاتِهَا .

٥٩ — التَّزَامُ عَبْدُ اللَّهِ عَلَى أَدَاءِ الْجِزْيَةِ لِأَلْفُونُشِ السَّادِسِ

وَعَقْدُ اتِّفَاقٍ جَدِيدٍ مَعَهُ

وَتَأَهَّبَ أَلْفُونُشُ إِلَى الْحَرَكَةِ ، وَقَدَّمَ رَسُولَهُ بَيْنَ يَدَيْ حَرَكَتِهِ . فَلَمَّا ١٥ صَحَّتْ عِنْدَنَا ، أَنَا نَا مِنْهَا الْمَقِيمُ الْمَقْعِدُ ، وَلَمْ نَذَرِ أَيْنَ الْخَيْرَةِ : إِنْ كَانَ فِي رَفْضِ الْبَلَدِ وَتَرْكِهِ لِيَعْبَثَ فِيهِ ، أَوْ مُدَارَاتِهِ بِمَا تَيْسَّرُ . وَوَقَعَتْ مِنْ ذَلِكَ هَيْبَةٌ فِي النَّاسِ وَرَجَاءٌ ، حَتَّى بَلَغَ مِنَ الْجَزْعِ أَنَّنَا لَمْ نُصَدِّقْ أَنَّ يَقْبَلَ مِنَّا لِلْمَالِ دُونَ الْمُلَازِمَةِ لَنَا ، طَالِبًا لِإِخْتَارِ لَيْسَطٍ وَمُعَاقِدَةِ الْمُرَابِطِينَ . وَطَمَعْنَا أَنْ يَقْنَعَ رَسُولُهُ بِالْيَسِيرِ ؛ فَقَالَ لِي : « لَمْ آتِ عَنَ ذَلِكَ كَلٌّ ،

(١) الْأَصْلُ ، « نَعْطُوهُ » .

إِلَّا أَنْ نَعْطِيَهُ مَا فَاتَهُ عَنْكَ مِنْ جِزْيَةِ ثَلَاثَةِ أَعْوَامٍ بِثَلَاثِينَ أَلْفًا ! لَا يُنْقِصُ
 مِنْهَا شَيْءٌ ؛ وَإِلَّا ، فَهَا هُوَ مُقْبِلٌ ! وَالَّذِي تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، فَأَصْنَعْ ! »
 فَرَوَّيْتُ الْأَمْرَ فِي نَفْسِي ، وَرَأَيْتُ أَنَّ التَّعَاطِيَّ حَاقَّةٌ لَا تَقِيدُ ، وَقُلْتُ :
 « إِنْ أَخَذْتُ هَذِهِ مِنَ الرِّعْيَةِ ، ضَجَّيْتُ وَشَكَّيْتُ ، وَيَكُونُ مُقَدِّمَتُهَا
 ٥ بِمَرُوكَشٍ ^(١) شَاكِيَيْنَ ، يَقُولُونَ : « أَخَذَ أَمْوَالَنَا وَأَعْطَاهَا لِلنَّصَارَى ! »
 وَلَكِنْ لِهَذَا الْوَقْتُ يَحْتَاجُ الْإِنْسَانُ مَا آذَخَرَ لِيَصُونَهُ بِهِ بَلَدَهُ وَعِرْضَهُ .
 وَأَنَا جَدِيرٌ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ مِنْ بَيْتِ مَالِي ، بِحَيْثُ يَسْلُمُ الْبَلَدُ ، وَبِحَيْثُ
 تَشْكُرُ الرِّعْيَةَ بِمَدَافَعَةِ عَدُوِّهَا دُونَ تَكْلِيفِهَا شَيْئًا ، وَلَا تَقَعُ الشُّنَّةُ ! »
 فَفَعَلْتُ ذَلِكَ ، وَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ الثَّلَاثِينَ أَلْفًا ، لَمْ أَرْزَأْ أَحَدًا فِيهَا دِرْهَمًا .
 ١٠ وَرَأَيْتُ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ أَجَدَّ مَعَهُ عَقْدًا أَلَّا يَسْتَرْضَ لِي بَلَدًا ، وَلَا يَغْدِرَنِي
 بَعْدَهَا ، خَوْفًا أَنْ يَقْتَلِبَ عَلَيَّ ؛ فَأَجَابَ إِلَى التَّقَدُّ . وَقُلْتُ فِي نَفْسِي :
 « إِذَا لَا بُدَّ مِنْ دَفْعِهَا ، فَبِالتَّقَدُّ أَوْلَى . فَإِنْ حُوجِّجْنَا إِلَيْهِ ، وَجَدْنَاهُ ،
 وَلَمْ يَضُرَّ ؛ وَإِنْ أَسْتَنْجَيْ عَنْهُ ، كَانَ مَكَانَهُ مُثْمَرُ الْقَتَى وَالْبَيْضِ الرَّقَاقِ ، إِنْ
 تَدَارَكْنَا * اللَّهُ بِسَكْرٍ يَدْفَعُهُ ؛ وَالْحَرْبُ خُدْعَةٌ ! » وَإِذَا لَمْ تَغْلِبْ ، ٥٢ (ب)
 ١٥ فَأَخْلِبْ ! »

فَأَجَابَ إِلَى تِلْكَ لِلْعَاقِدَةِ ، حِرْصًا عَلَى اخْتِزِ الْمَالِ ، وَنَحْنُ لَا نَشْكُ أَنَّهُ
 يَقْدِرُ ، كَالْخَاطِرِ لِنَفْسِهِ لِلضَّرُورَةِ الَّتِي لَا سَبِيلَ إِلَى سِوَاهَا . وَقَالَ لِي عِنْدَ
 ذَلِكَ رَسُولُهُ : « يَقُولُ لَكَ الْفُونْشُ : « إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ تَخَلُّطَ مَعَ هَذِهِ

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، عَرَضَ « مَرَاكَش » ؛ وَلَيْسَ بِتَصْغِيفٍ ، إِذْ عِبَارَةٌ « مَرُوكَش » كَانَتْ

تَسْتَعْمَلُ دُونَ غَيْرِهَا أَيَّامَ الْمُرَابِطِينَ مُؤَسَّسِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ ؛ وَهِيَ الَّتِي انْتَقَلَتْ إِلَى الْفَلَاةِ الْإِسْبَانِيَّةِ دُونَ عِبَارَةِ

« مَرَاكَش » ؛ وَاسْمُهَا بِالْإِسْبَانِيَّةِ إِلَى الْيَوْمِ Marruccos .

- لِلْعَاقِدَةِ اسْتِعَانَةً بِهِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ بِلَادِكَ الَّتِي عِنْدَ ابْنِ عَبَّادٍ ، فَهُوَ يَجِدُ
لَكَ فِيهَا فِي وَجْهِهِ هَذِهِ . « فَأَجَبْتُهُ : « إِنِّي لَا أَعِينُ عَلَى مُسَلِّمٍ أَحَدًا !
وَإِنَّ الَّذِي دَعَانِي إِلَى هَذِهِ الْعَاقِدَةِ الْمُدَافَعَةُ عَلَى بَلَدِي وَأَهْلِي مِلَّتِي . فَإِنْ
وَقَّيْتُمْ بِذَلِكَ ، فَهُوَ الْمُرَادُ الَّذِي إِلَيْهِ قَصَدْنَا . » وَكَانَ مِنْ نَيْتِهِ أَنْ يَخْلُطَ
الْفِتْنَةُ بَيْنَنَا وَيَبْنِي ابْنَ عَبَّادٍ ، لِيَجِدَ بِذَلِكَ السَّبِيلَ إِلَى بِلَادِهِ ، وَيَقْوَى
عَلَيْهَا بِأَمْوَالِنَا ، وَيَتَسَبَّبَ إِلَى طَلَبِ كَثِيرٍ مِنْ أَمْوَالِنَا ، إِذْ كَانَتْ تِلْكَ
الثَّلَاثُونَ أَلْفًا عَلَى وَجْهِ الدِّينِ لِلْمُسَالَةِ فَقَطْ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ اسْتِثْنَاءَ عَمَلٍ .
وَكَانَ مَعَ هَذَا لَا يَتَّقِي يَقُولِنَا ^(١) ، وَيَحْسِبُ ذَلِكَ مِنَّا خُدْعَةً . وَقُلْنَا
لَهُ : « إِنَّا مُنْزَرُّونَ فِي هَذِهِ الْقُعْلَةِ مَمْلُوكٌ ، وَنَسْتَدْرِكُنَا تَبَاعُثُهَا عِنْدَ
الرَّابِطِينَ ، وَنُطَالِبُ بِذَلِكَ ! » فَقَالَ ، تَسْهِيلاً لِأَخْذِ مَالِهِ : « مَتَى
أَدْرَكَكُمْ فِي ذَلِكَ مِنْهُ طَلَبٌ ، فَعَلَى الذَّبِّ عَنْ مَدِينَتِكُمْ . » فَأَجَبْنَاهُ :
« بَلْ ، هُوَ يَرَى عِزَّنَا ؛ وَقَبُولُهُ وَعِظْفُهُ أَرْجَى عِنْدَنَا مِنْ مَعُونَتِكُمْ . »
فَانْفَصَلَتِ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ ، وَقَالَ [لِي رَسُولُهُ] : « لَا بُدَّ لَهُ مِنْ
تَدْوِيخِ سَائِرِ الْبِلَادِ مِنْ نَظَرِ ابْنِ عَبَّادٍ وَغَيْرِهِ ، إِنْ لَمْ يَنْطَلِقْ ! » فَقُلْتُ :
« هَذَا أَمْرٌ لَا يَسْأَلُنَا اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ! كُلُّ أَحَدٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ !
نَحْنُ قَدْ اخْتَلَنَّا عَلَى مَنْ قَلَدْنَا اللَّهَ أَمْرَهُ ، وَقَدَيْنَا أَرْوَاحَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ! وَمَنْ لَهُ
حَاجَةٌ مِنْ سَائِرِ السَّلَاطِينِ يُقَابِلُ أَمْرَكُمْ حَسَبَ مَقْدَرَتِهِ ، إِنْ شَاءَ بَيْدَاءُ
أَوْ قِتَالٍ . لَا تَكَلِّمْ نَحْنُ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا ، وَلَا يَنْبَغِي لَنَا ؛ وَلَا أَنْتُمْ
وَأَقِمْوْنَ تَحْتَ أَوْامِرِنَا ، فَهَذَا كُمْ عَنْ * ذَلِكَ . وَنَحْنُ لَمْ نَتَخَلَّصْ مِنْ ٥٢ (ب)
التَّحْصِينِ عَلَى مَا يَخْصُنَا إِلَّا بَعْدَ كَدٍّ ؛ وَمَا كَدُّنَا ، فَشَأْنُكُمْ ! وَأَنَا ٢٠

(١) أصل : « يثيق قولنا » .

بِرِيءٍ ، لا أُنْغِسُ في ذلكَ يَدًا ولا لسانًا .
ولم أجدَ وَجْهًا نرجو به بعضَ الدِّفاعِ عن إخواننا المسلمين أكثرَ من
مُخاطَبَةِ الْمُعْتَمِدِ ، نُعلمه بِجَلِيَّةِ حالنا معهم ، وما ذكروه من إبطاءِ بلاده ،
وَنُذِرُهُ بذلكَ ، لِكَيْ يَقلعَ ، وَيُدْرِعَ الحِزْمَ ، وَيُقَدِّمَ للأمرِ أَهْبَتَهُ .

٦٠ - تهديد يوسف بن تاشفين إلى عبد الله

عبد الله يبرّر مسلكه

ثُمَّ خَاطَبَنَا أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ ، نَنصُّ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا وَقَعَ وَمَا دَفَعْتَ الضَّرُورَةَ
إِلَيْهِ ، وَأَنَّ الْحَاضِرَ أَبْصَرَ مِنَ الْغَائِبِ ، وَلَوْ الْحَالُ يَقْتَضِي بِمَطْلَبِهَا ، وَلَوْ بِمَقْدَارِ
وَصُولِ الْخَطَابِ بِمَشُورَتِهِ سَلَامَةً لِلْمُسْلِمِينَ ، لَمْ أَقْدِمُ شَيْئًا فِي ذَلِكَ وَلَا أَخَّرْتُهُ
إِلَّا عَنْ رَأْيِهِ ، كَالَّذِي يُلْزَمُ ؛ غَيْرَ أَنَّ الْخَفَرَ كَانَ أَشَدَّ ، لَمْ أَرَ التَّغْيِيرَ
بِالْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّ الْإِتِّقَامَ مِنْهُمْ مُدْرِكٌ بِحَوْلِ اللَّهِ عَلَى يَدَيْهِ . وَلَمْ نَشْكُ فِي
أَنَّ الْجَوَابَ يَرِدُنَا بِالشُّكْرِ عَلَى مَا نَظَرْنَاهُ وَسَدَدْنَاهُ ، لَا سِيَّامَا إِذْ كَانَ
الْقَدَاءُ مِنْ عِنْدِي وَلَا أَكَلَّفُ فِيهَا مُسْلِمًا دِرْهَمًا . فَوَرَدَنِي جَوَابُهُ مَعَ
مَا أُمْلِيتُ نَفْسُهُ مِنَ الطَّلَبِ لِي ، وَصَوَّرَتْ عِنْدَهُ الْأُمُورَ عَلَى غَيْرِ حَقَائِقِهَا ،
بِمَا زَادَ فِي جِزْعِي ، يَقُولُ : « أَمَّا مُدَاهَنَتُكَ وَقَوْلُكَ الْبَاطِلُ ، قَدْ عَلِمْنَاهُ !
وَسَنَعْلَمُ عَنْ قَرِيبٍ كَيْفَ تَرْضَى الرِّعْيَةَ ، وَمَا تَصْنَعُ إِذْ زَعَمْتَ أَنَّكَ نَظَرْتَ
لَهَا . وَلَا تُسَوِّفُ : فَإِنَّ هَذَا قَرِيبٌ غَيْرُ بَعِيدٍ ! »

فَلَمْ أَقْنَطْ مَعَ هَذَا ، وَقُلْتُ ، عِنْدَ الْحَقَائِقِ وَتَبْيَاحِنِ مَا وَقَعَ ، عَلَى لِسَانِ
رَسُولٍ : « يَزِيلُ عَنْ بَالِهِ كَلَامَ الْأَعَادِي ! وَهَذَا مِنْ بَغْيِ التُّلَعِيِّ »
٢٠ وَأَبَى بَكْرُ بْنُ مُسْكَنٍ ! فَإِنَّهُمْ لَا يَنْقَلِبُونَ إِلَّا عَلَى شَهَوَاتِهِمْ ! وَكَانَ

- أبو بكر بن مُسَكَّن قد بلغ من طغيانه على^١ ، وسَبَّو لي ، ورجائه^(١) في أن يسهمه أمير المسلمين من البلاد ما يكون قرني أو أكثر^٢ ؛ فإنه اتَمَى إلى بني زيري ، وجعل يهذي بذلك ويفتنر به ، لا يرى لأحد عليه فضلاً ، ويسعى في نقض ما نهرم من أحوال الدولة ما لا يتم معه ملك ولا أمر^٣ . فجعلتُ الذنب فيه سَوَاء كما في * القُلَيْعِي^٤ ، إذ مقاتله لا تظني^(١) ٥ ما أشغل القُلَيْعِي لو أراد الخير ، كما أن تَزَكَّه لا ينقص ولا يفتر عن ذلك . فجعلتُ لهم^٥ فيهما كهما واحداً .
- ولما تشدَّتْ عليه ، وأمرته بالكف^٦ ، أحرقت^٦ ، وهرب دون نفى^٦ ، ومضى قاصداً إلى المرابط ، يخرى في^٦ ، ويسعى على^٦ ، ويكذب ، ويصور^٦ الأمور على غير وجوها . فتكرَّرتُ مخاطبتي على أمير المسلمين ، نبين له جميع ما وقع ، ونشكو بما دهيت به من هؤلاء الفسقة . وهو ، في ذلك كله ، لا يراجعني إلَّا بالشدة ، وقبول قولهم على^٦ . فبقيتُ تلك الأيام على أسوأ حال ، لا ندرى أين الخيرة ، ولا كيف التخلص .
- وساء ظنُّ المعتد بي في دخول النصراني^٧ إلى بلاده ، وكفه عن بلادنا ؛ واعتقد أن ذلك عن اتفاق ؛ ولو كان عن اتفاق^٧ ، لأدبته عليه ما لا فوق الجزية^٧ ! فليس لهم إلَّا بني الكرى غير منطاعين لقول أحد^٧ . ولم ياتِ عسكر الثرابطين إلى إشبيلية إلَّا والبلاد قد أفسد .
- والله تعالى يعلم أني ما واسيت في تلك النصبة ، ولا يسألني الله عن كلمة طعنت فيها على مُسلم . فانقثت الأقاويل عند أمير المسلمين بكثرة الطلب ؛ ولو أتى أريد ذلك ، والانحياس إلى النصارى ، كالذي قيل ، لم

(١) أصل : « رجاء » .

يَصِلُ الرُّابِطُونَ إِلَى سَبْتَةَ إِلَّا وَمَدِينَةُ غِرْنَاةٍ مَمْلُوءَةٌ مِنْهُمْ ؛ وَكَانَتْ
 أَسْتَطِيعَ عَلَى ذَلِكَ ، وَكَانَتْ لِي فِي الْمَدَّةِ بَرَهَةٌ وَفَسْحَةٌ طَوِيلَةٌ ؛ إِلَّا أَنْ
 الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَتِلْكَ الْقَالَةُ إِنَّمَا كَانَتْ سَبَبًا لِلَّذِي قُدِّرَ ؛ وَلَوْ أَنَّ قَضِيَّتِي
 تُسْتَوْضَحُ ، كَوَجِدَ فِيهَا مَا لَا مَطْعَنَ فِيهِ ، وَلَا مَقَالُ يُنَنِّةٌ ، وَلَا إِسْرَارُ فِي
 مَثِيلٍ عَلَى مُسْلِمٍ ، وَلَا إِدْخَالُ دَاخِلَةٍ . وَكَيْفَ يَصِحُّ هَذَا قِبَلِنَا ، وَأَوَّلُ
 سَيْفٍ سُلٍّ عَلَى الرُّومِ إِنَّمَا كَانَ مِنْ قِبَلِنَا ، وَهِيَ الْوَقِيعَةُ الْمَشْهُورَةُ بِالنَّبِيلِ ،
 مِنْ طَاعَتِنَا ، فِي حِينَ تَطَرَّقَ النَّصَارَى إِلَيْهَا عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ ؛ وَوَافَقَ ذَلِكَ
 أَوَّلَ ظَهْرِ الرُّابِطِينَ وَوُصُولِهِمْ سَبْتَةَ ؛ وَوَرَدَنَا إِذْ ذَاكَ* رَسُولُ الْفُونَشِ ٥٣(ب)
 مُعْتَذِرًا مِنَ الْأَمْرِ ؛ فَصَرَفْنَاهُ عَنِ الطَّرِيقِ ، قَطْمًا لَهُ ، وَإِشَارًا لِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ .
 ١٠ وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ !

الفصل التاسع

إمارة الأمير عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب
(٥) الحوادث الأخيرة قبل النزاع ونُذُر الكارثة

٦١ - ثورة يهود مدينة اليُسَّانة

وَلَمَّا كُنْتُ فِي تِلْكَ الْفِتْرَةِ ، بَدَتْ أُمُورٌ وَأَسْبَابٌ دَلَّتْ عَلَى مَا كَانَ مِنَ
الْإِثْمَالِ وَمُقَدِّمَاتٍ أَذْنَتْ بِالزَّوَالِ . فَأَوَّلُ ذَلِكَ نَفَاقُ أَهْلِ الْيُسَّانَةِ لِمَلِكِهِ
نَذَرُهَا ، وَأَرْقَى سَبَبٍ لَمْ يُوبَهُ لَهُ . وَذَلِكَ أَنِّي ، لَمَّا أَمَرْتُ بَيْنِيَانِ الشُّورِ
الْمُتَّصِلِ بِالْحَمْرَاءِ ، وَدَبَّرْتُهُ عَلَى تِلْكَ النَّصْبَةِ الَّتِي أَضْرَبْتُ عَنْ شَرْحِهَا لِأَشْتِهَارِهَا
هَيَّأتُ السَّعَادَةَ أَنْ وَجَدَ الْبَنَّاوُونَ فِي الْأَسَاسِ قُمْقُومًا مَمْلُوءًا ذَهَبًا أَغْلُوفِي بِهِ .
فَلَمَّا وَقَعَتْ عَلَيْهِ ، لَقِيتُ فِيهِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ مِثْقَالٍ جَعْفَرِيَّةٍ . فَاسْتَبَشَرْتُ بِهَا
١٠ وَتَفَاءَلْتُ بِنَجَاحِ الطَّلَبَةِ ، وَالْدُنْيَا تَسْخَرُ بِنَا كَمَا سَخَرَتْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَنَا . فَقُلْتُ :
« مِنْ أَسَاسِهِ يَكُونُ بُيُنَانُهُ ! »

وَكَانَتْ دَارُ أَبِي الرَّيِّعِ الْيَهُودِيِّ الْخَازِنِ لِلْأُمُورِ فِي دَوْلَةِ جَدِّي
— رَحِمَهُ اللَّهُ — مَبْنِيَّةً عَلَى ذَلِكَ الْأَسَاسِ ؛ فَضَلَمْنَا أَنَّهُ مِنْ مَالِهِ لِلدَّفُونِ .
فَأَنَّى ابْنُ الْمَرْءِ مُتَنَصِّحًا بِالْأَمْرِ ، وَيَقُولُ : « أُرْسِلُوا عَنْ ابْنِهِ ، يَكْشِفُ لَكُمْ
١٥ سَائِرَ دَقَائِقِهِ » فَخَطَبْنَا عَنْهُ لِيَرِدَ عَلَيْنَا فِي بَعْضِ الْأَمْرِ . وَكَانَ صِهْرُهُ ابْنُ
مِيمُونٍ ، كُنَّا قَدْ قَدَّمْنَاهُ عَلَى يَهُودِ الْيُسَّانَةِ بِوَجْهِ الْأَمَانَةِ ، وَأَشَدَّنَا إِلَيْهِ جِيلًا

من التنويه به ؛ فاستال بها أقواماً من الغرباء ، يصول بهم على أهل ملته ؛ وكان خبيثاً . فأحسن بالقصة ، ووجست نفسه منها ، واعتذر عن صهره ، وساء لذلك ظنّه ، وخشى أن يُعذّب على مال أبيه .

ووافقَ قبلَ ذلك ، عند انصرافنا من لييط ، أن فرّضنا على أهل اليُسّانة ذهباً كثيراً باسم التّقوية ، لم تجرِ عادتهم به ، وحلّناهم في ذلك على الصّحة والانطباع ؛ فنفرتَ لذلك أنفُسُهم . ووجد ابنُ مَيّون المذكور السيلَ إلى إغرائهم وحلّهم على النفاق ؛ فأجابوه ، ودخلوا في السلاح ؛ ونادى فيهم أن : « جدّوا ، معشرَ بني إسرائيل ، في حاية أموالكم ! » وافضح بذلك ابن مَيّون . وسبّغتَ له جنابةٌ في قتل * عاملنا ابن أبي لولا ٥٤ (١) على المُستخلص رياسةً وعدواناً . وامتنعت اليُسّانة بالجملة . ١٠

فلما رأيتُ ذلك ، لم أجدُ بُدّاً من مُداراة الأمر . واشترطَ مؤمّلٌ بإصلاحه ، ونهص . ثمّ إنّي علّمت رأى بَعْدَه ، وعَلِمْتُ أَنَّهُ لا يَلْقَى إلّا أحدَ وجهين : إمّا طاعةً على غشٍّ ، أو عصياناً ؛ وأيهما كان ، فإرسالُ العسكر إليه واجبٌ ، وشدةٌ وترهيبٌ ، ليعلموا قَدْرَ ما جَنّوه . وخرَجْتُ بنفسى في أثره ، وقد اجتمعت إلى الأنداب . فإذا بمؤمّل قد أُقْبِلَ مُنْصَرَفاً ، وردّنا عن ذلك للذهَب ، وقال لى : « قد أصلّحتُ الأمر مع ابن مَيّون . ونهوضك إليه لا يزيد القوم إلّا نفاراً ، وربما استعانوا بعسكر ابن عبّاد ، لاسيّما أَنَّهُ الآن بِمُرْطبة ، وليست تُؤخَذُ بإحْصار ولا قتال ! » على أنّى قد عَلِمْتُ أَنَّ ابنَ عبّاد لا يَحْيِيهم في ذلك الوقت كلّهُ ، ولا اشتهر بذلك إلّا ما كان الناسُ يذكرونه ، وابن مَيّون يفتخر به ويُطْمِع به ٢٠ أهل اليُسّانة .

فقبلتُ قولَ ابنِ مؤمِّلٍ ، وانصرفتُ على مقربة من الحضرة ؛ وقلتُ :
« خُروجي إلى هنا أو وصُولي إليهم سَوَاء ! إذا أردنا التَّهَيُّب ، فقد
وَصَلَّناهُ ! » ثمَّ قلتُ لمؤمِّل : « صِفْ عليَّ ما انفصلتَ ! » فقال :
« إنَّ ابنَ مَيمون زَعِيَمَها عَدَدَ أَشْيَاء أَنْكَرَها من الإِرسالِ في صهره ،
وهذه الفرضَةُ العظيمةُ ، وسائرُ ذلك من الألقاب اللازمة . فضمنتُ لهم
الصكوك برفع ذلك عنهم ، ولابن ميمون في خاصَّتِهِ . » وأمرتُ بعقْدِها
والإِرسال بها . وقرتُ الجبالُ قرارها .

ووجستُ نفسي من ابن مَيمون لإظهاره الخلاف والإعلان بذلك ،
وعَلِمْتُ أنَّ هذه هُدَّةٌ على دَخَنِ ، وأنَّ لاطاعة تصحُّ لي معه ، وسيؤثِّر
أمثال هذه . فدبَّتْ إلى المداخلة من اليهود المحمولين في زمانه ، ووعدتهم
بالإحسان ؛ وتكرَّر في الوساطة ابن سبيق ، حتى أبرمتُ من ذلك
ما أملتُهُ . وكان أخذُ ابنِ مَيمون يسيراً ، لا عُصْبَةً له ، وهو غافلٌ . وكان
الواسطة أيضاً ابنُ المَرَّة مع أبي العبَّاس الحكيم . وكان * ذلك ممَّا نَقَمَهُ ٤٥ (ب)
مؤمِّلٌ لانهيائته عن ذلك ، إلى أن وردوا الحضرة على عاداتِهِمْ ، وأمرتُ
بشغافه مع ابنه برضاء من الشيوخ ، وأمرتُ أن لا زعيمَ فيهم بعد اليوم
إِلَّا الكلُّ منهم أَمْناءُ مَنَوَهُ بِهِمْ ؛ فشكروا ورضَوْا . وخاطبتُ عائلَتَهُمْ
نُفْلِهِمْ بما لهم في ذلك من الصلاح . وتهدَّنتُ الأحوال وقرتُ ، إلى أن
تلف الكلُّ .

٦٢ - قضية زناة

وقضية أخرى بعد هذه في أمر زناة : إنه ، لما أعلتُ الفكرة في عاقبة الأمر في هذه الفتن^(١) العارضة ، رأيت أن الاهتبال بالمعاقل من آكد ما يجب النظر فيه ، كالذي تقدم ذكره من النظر في عُدِّها وما يصلحها ، وأن الأولى استصلاح ما فسد من نفوس قوادها . وذلك أنه لم يكن يلي لنا معقلاً قط غير صنهاجة والوصفان والعبيد ، ما خلا زناة : فإنهم كانوا أجناد الحضرة .

وكان الصنف المذكور قد ضعف ؛ واستولى عليه النقصان لمطالبات جرت عليهم من قبل وزراء الدولة كاليهودي وغيره ؛ فإنهم كانوا يرون ألا ولاية تنهياً لهم مع صنهاجة لاحتقارهم إياهم وأنفستهم من توليف مثلهم ، فكانوا يميلون إلى الصنف البراني كله ، ولما جرى على اليهودي ما جرى منهم ، اعتدّها الناية في نفسه ، وخشى مثل ذلك ، فجعل نفسه في مطالبتهم ، وتبديدهم ، وإنزالهم على الإنزالات الضعيفة ؛ ومن كان بيده شيء ، تسبب إليه وأزيل عن يده . فأذركم النقصان والقلّة ، وزاد في زناة ، وقويت أحوالهم وإنزالاتهم ، على أنهم كانوا على الحقيقة خيرة جند الأندلس ، والموثوق بهم في الشجاعة والنجدة . وكان الصنف كثيراً ، لا يعدم ضمهم من له مال .

قلتُ في نفسي : « هؤلاء القواد الذين على الحصون ، وإذا كانت أنفسهم فاسدة ، ولا يتذكرون معنا على نعمة طائلة ، فكيف يُمكنون المعاقل ، أو بأيّ قلب يجدّون معي ؟ وإنه لا عِوضَ منهم في الثقة

(١) أصل : « الفتن » .

لِلْحَصُونِ * وَإِنْ زَنَانَةُ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَصِّلِينَ لَا تَقَعُ فِيهِمْ الْمَدِينَةُ الْفَوْقَى وَلَا ٥٥ (١)
 لِلْحَصُونِ ، أَكْثَرُ مِنْ خِدْمَةِ الْجُنْدِيَّةِ ، لَا يَعْدَمُ مِنْهُمْ أَحَدٌ . فَأَنَا جَدِيرٌ
 أَنْ أُشْرِكَ مَنْ ضَعُفَ مِنْ صِنَاهَا هَؤُلَاءِ الْأَهْوَاءِ الَّذِينَ أَدْرَكْتَهُمُ الْعَنَاءُ
 وَيُمَسِّكُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ إِنْزَالُ خَمْسَةِ فُرْسَانٍ وَسِتَّةٍ . ثُمَّ مِنْ قَعٍ بِمَا يَبِيدُهُ بَقَى ؛
 وَمَنْ لَمْ يُرِدْ ، لَمْ يَعْدَمْ مِنْهُ الْعِوَاضُ ! « فَفَعَلْتُ ذَلِكَ ، وَأَشْرَكْتُهُمْ . وَكَانَ فِي
 هَذَا كُلُّهُ تَحْرِيكٌ لِلشَّرِّ وَالْقَاتِلِ :

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللَّهِ الْغَنَى فَأَكْثَرُ مَا يَجْتَنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ^(١)
 فَلَمَّا رَأَى كِبَارُ زَنَانَةِ ذَلِكَ ، قَلَقُوا ، وَسَاءَتْ ظُنُونُهُمْ ؛ فَكُنْتُ ،
 مَتَى دَعَوْتُهُمْ إِلَى خِدْمَةٍ ، تَجِدُهُمْ عَنْهَا عَاجِزِينَ : مِنْ أُشْرِكَ وَمَنْ لَمْ يُشْرِكَ ؛
 فَامْتَحَنْتُ عَلَى ذَلِكَ ؛ فَقِيلَ لِي : « إِنَّ كِبَارَهُمْ يَفْسُدُونَ صِغَارَهُمْ ! وَلَوْ أَنَّكَ
 تَخْرِجُ غَوَاصَّتَهُمْ^(٢) مِنَ الْبَلَدَةِ ، لَصَلَحَ لَكَ سَائِرُهُمْ ! »

فَأَمَرْتُ بِإِخْرَاجِ ثَلَاثَةِ أَنْفُسٍ مِمَّنْ يَتَّبِعُهُمْ مِنْهُمْ . وَكَانَ الْأُمُورَ بِذَلِكَ كَلِيبُ
 الْخَصِي^١ ، صَاحِبُ الْمَدِينَةِ ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَثِقَانَهُ لَتَرْبِتِنَا لَهُ . وَكَانَ فِي الْمَجْلِسِ
 أَقْوَامٌ يَحْسُدُهُمْ وَيَتَّبِعُهُمْ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَنْتَقِلُوا طَرِيقَتَهُ السَّيِّئَةَ ؛ فَأَصَابَ الْفُرْصَةَ
 لِلْخِرَابِ ، وَأَرْسَلَ مِنْ قَبْلِهِ إِلَى أَوْلَئِكَ الْمُنْخَرَجِينَ ، وَإِلَى مَنْ سِوَاهُمْ مِنْ بَنِي
 عَمَّتِهِمْ ، يَقُولُ لَهُمْ : « إِنَّ الطَّلَبَ قَدْ وَقَعَ فِيكُمْ مِنْ مَجْلِسِ السُّلْطَانِ ؛ وَأَمِرْتُ
 بِإِخْرَاجِكُمْ . فَلَا تَوَهِّنُوا ، وَأَجْتَهِدُوا فِي التَّمَعُّبِ عَلَيْهِ وَتَرْوِيهِ ! وَأَنَا مَعَكُمْ !
 فَإِنَّهُ ، إِذَا رَأَى جَمَاعَتَكُمْ ، رَجَعَ إِلَى قَوْلِكُمْ ! » فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا بَعْدَ الْأَمْرِ
 بِسَاعَةٍ ، وَإِذَا بِجَمَاعَةِ الْجُنْدِ قَدْ أَقْبَلُوا إِلَى بَابِ الْمَدِينَةِ ، يَقُولُونَ : « إِنَّمَا أَنْ
 يَبْرُدَ شَرُّ كُنَّا ، وَإِنَّمَا فَالْكَلُّ رَاحِلُونَ عَنْهُ ، مُنْتَقِلُونَ إِلَى غَيْرِهِ ! » وَأَتَى ٢٠

(١) ورد هذا البيت أعلاه . (٢) كذا في الأصل ، عوضاً عن « غواصاتهم » .

الفاسقُ لَيْبٌ وأصحابُه الْمُتَفَقُّونَ معه ، يقيمُ حُجَّتَهُمْ ، ويُعْضِدُ قَوْلَهُمْ ، ويخوِّفُ منهم . فَبَيَزْتُ الأَمْرَ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ هَذِهِ جَمْعَةٌ لَا يُرْجَعُ فِيهَا إِلَّا إِلَى رَأْيِي ؛ فَأَظْهَرْتُ الشَّدَّةَ ، وَقُلْتُ : « لَسْتُ بِرَاجِعٍ عَمَّا أَمَرْتُ ؛ فَتَكُونُ نَفُوسُ الَّذِينَ أَشْرَكَتُمْ مَعَهُمْ مُنْصَرِفَةً * إِلَى مِثْلِ نَفُوسِهِمْ ! فَمَنْ شَاءَ ، فَلْيُمْرَ » ، وَمَنْ شَاءَ ٥٥ (ب) فَلْيَبْقَ ! » فَلَمَّا سَمِعُوا بِذَلِكَ ، خَرَجَ الْكُلُّ .

وَمُؤَمِّلٌ ، فِي هَذَا كَأَنَّهُ ، عَلَى اتِّفَاقٍ مَعَ لَيْبٍ ، يَدْخُلُ فِي رَوْسِ الْجُنْدِ وَيَقُولُونَ لَهُمْ : « إِنَّ هَذَا مِنْ قَبْلِ غَيْرِنَا ؛ وَنَحْنُ أَهْلُهَا ! » وَيُرَوِّحُهُمُ الشَّقَّةَ مِنَ الأَمْرِ وَالطَّمَنِ عَلَى . وَصَحَّ ذَلِكَ عِنْدِي مَعَ طَائِفَةٍ مِنْ شُيُوخِ الْعَبِيدِ أَهْبَابِ مُؤَمِّلٍ ، وَعَلِمْتُ حَسَابَ زَنَاتِهِ أَنَّهُمْ لَا يَزُولُونَ بِالْكَلِّ ، وَأَنَّ ذَلِكَ تَرْهِيْبٌ ، وَأَنَّ الرُّجُوعَ عَمَّا أَمَرْتُ بِهِ يَضُرُّهُمْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُخْلُ بِالرَّأْيِ ١٠ وَيَكُونُ لَهُمُ الضُّلُوعُ وَالْحَاقَّةُ فِي اللَّصِيَّةِ ، وَأَنَّ انْقِيَادَهُمْ لِلأَمْرِ وَاسْتِعْذَارَهُمْ بَعْدَهُ أَشْبَهُهُ ، وَلِلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ أَعَزُّ وَأَبْغَى .

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ آخِرٍ ، خَرَجْتُ بِنَفْسِي إِلَى عَرَضِهِمْ كَيْ لَا يُبْطِنَ عَلَيَّ مِنْ تَقَدُّمِ ذِكْرِهِ . فَأَمَرْتُ بِالْبَرِيحِ عَلَيْهِمْ وَإِحْضَارِ الزَّمَامِ ، لِنَعْلَمَ مِنْ صَحِّ مُضِيئِهِ وَقَعُودِهِ . ١٥ فَوَجَدْتُ الْكُلَّ مُجْتَمِعِينَ ، قَدْ انْصَرَفُوا مُتَقَطِّعِينَ لَيْلًا ، لَمْ يَنْبُ مِنْهُمْ أَحَدٌ فَوْقَ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ أَمَرْتُ بِإِخْرَاجِهِمْ ، وَجَعَلُوا يَعْتَذِرُونَ وَيَتَنَصَّلُونَ . فَقُلْتُ : « اللَّهُ أَكْبَرُ ! هَذَا أَشْبَهُهُ وَأَلْتَقَى بِالْمَلِكَةِ ! » وَرَأَيْتُ مُؤَمِّلًا وَلَيْبِيًّا وَغَيْرَهُمَا قَدْ عَزَّتْ عَلَيْهِمْ طَاعَتُهُمْ مُؤَمِّلِينَ أَنَّ لَوْ كَانَتْ طَائِفَةٌ لَا تَرْفَعُ .

وَالْعَيْنُ تُبْصِرُ فِي عَيْنِي مُحَدِّثَهَا إِنَّ كَانَ مِنْ حَزْبِهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا

٦٣ - انقلاب مؤمل وثورته في لوشة

- ولما قرأ أمرهم قراره ، جاء مؤمل في إثر ذلك يقول : « إن هذا الانطباع منهم ليس لرغبة في البقاء معك ! غير أنهم يدأرونك حتى يحصلوا على فائد إنزالاتهم ، ويتزودوا به ! فلا فائد تنزل عليه غيرهم ، ولا رجال بقوا معك ؟ » وكنتم إذ ذاك ناظرًا منه بيمين الثقة ؟ فعل قوله في نفسى ، وقلت : « لا يخلو هذا القول عن وجهين : إما قد اطلع على ذلك منهم ، فهى نصيحة ، أو لم يطلع ، فهو بغالته لا يدعهم ، ويدخل هذا في رؤوسهم ، وتكون على في ذلك الخسارة . وإن احتجت إلى العوض ، لم يكن لى على ما نزلهُ ولا فى بيت المال الكفاية لما نحن بسيله* من النفقات على سائر الأمم ! » فلم ٥٦ (١)
- يأتنى من هذه الكلمة نعاس . وأمرت بإخراج كل من فى رأسه حماقه . فبلغ عدتهم نحو المائة فارس ؛ فخرجوا عن المدينة ، ونصفت ، ولم يبق فيها إلا من ينطاع لكل أمر .
- وعمل فى نفسى قتل لبيب وشيوخ العبيد ، وصح عندى منهم وفيهم أنهم عوجوا زناة ؛ وكانوا أشد على من كل أحد . وجعل زناة يذكرن ذلك ، ويقولون وقت اعتذارهم : « لا ذنب لنا ! إنما نحن جند ، ولولا ثقاته وعبيده الذين حملونا على ذلك ، لم نجتزم^(١) عليه ! » وجعلهم فى وقت قيامهم يمشون على الأسواق ، ويأمرن الناس بالقيام ، ويقولون لهم : « لم ندفع نحن ، إلا وهو يريد إدخال النصارى ! » فلم يلتفت الناس إلى قولهم ، إذ لم يروا ذلك من ثقات الدولة وصنهاجة .

(١) أصل : « نجتروا » .

ولما أخرجَ زَنَانَةَ ، أمرتُ بعد ذلك بإخراج اثْنَيْنِ من شيوخ الصبيد الذين صحَّ عندي إشغالهم لهذه القضية ، وَتَقَعْتُ لَبِيًّا . فوافقَ إخراجَهُمْ ومُؤَمِّلٌ خارجَ المدينة ؛ فلعنوا به ، وقالوا له : « قد أخرجنا ! وغدا بك هَكَذَا ! فانظرُ لنفسك ! » فخرجَ معهم من قَوْره ذلك ، قاصداً إلى لَوْشَة ، مع مَنْ اتفق معه مِثْل ابن البراء الكاتب وغيره .

وكانت هذه تَقَفَّة قَدِيمَةً بَيْنَهُمْ مع بنى مالك عُمَالِ لَوْشَة ، أَنَّهُ ، متى دهمهم أمرٌ ، لَجَؤُوا إِلَيْهَا . فنهضوا من قَوْرِهِمْ ذلك قاصدين إلى لَوْشَة ، ولحقوا بها ليلاً . ودخل للمدينة ، ولم يمنعه أَحَدٌ لِمَكَاتِهِ مِثْنًا ؛ وحسب القائدُ ومن فيها أَنَّهُ رَسُولٌ . فصار في قَصَبَتِهَا ، وجمع الجُنْدَ والرعيَّةَ ، وصرخَ فيهم بالبكاء ، وافتعل الكذب ، وقال لهم : « لم أخرجُ من غرناطة إِلَّا كما تَرَوْنَ : « بطونى على عُنُقِي » ! وتركتُ فيها النصرى قد استخوذوا عليها ؛ وكُشِفَ عَنِّي ! فاثبتوا معي ونوِّجُوهُ إِلَى كُلِّ سلطان : فمن أجابنى ، اعتَصَدْنَا به ! » وخاطَبَ بذلك حُصُونَ القَرْبِ ، يأمرهم بالخلاف ؛ وأرسل إلى زَنَانَةَ المَخْرَجِينَ ، ليكونوا معه مُضَيِّقِينَ على * غرناطة . ٥٦ (ب)

١٥ وإنَّ أَهْلَ الحِجَّةِ مع أَهْلَ الحصون ، لَمَّا سمعوا ذلك ، دَبَرُوا رَأْيَهُمْ . وأرسل كلُّ حِصْنٍ من كبارهم إلى الحَضْرَةِ مَنْ يَطْلُعُ صُورَةَ الأَمْرِ ؛ فَإِنْ وَجَدَ خِلَافَ قَوْلِهِ ، لم يُخْبِرُوا وجوههم معنا ؛ وإنَّ أَلْفَوْهَ حَقًّا ، نظروا لأنفُسِهِمْ . فأتونى أفواجًا مُعَزِّينَ ومُهَيِّئِينَ على السلامة من النصرى ، مُسْتَفْهِمِينَ جَلِيَّةَ الحَالِ . فَأَخْبَرْتُهُمْ بالأمر على وَجْهِهِ ، ولم يروا شَيْئًا ٢٠ مِمَّا ذَكَرَ مُؤَمِّلٌ . فَطَابَتْ أَنْفُسُهُمْ ، وعلموا أَنَّهُ مُخَالِفٌ مُنَافِقٌ . فبادَرَ الكلُّ إلى مُنَازَلَتِهِ ، وسألونى عَسْكَرَ الحَضْرَةِ .

وَكُنْتُ ، لَمَّا صَحَّ نَفَاقُهُمْ بِلَوْشَةٍ ، قَدْ أَبْلَيْتُ لَهُمْ عُذْرًا ، وَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِمْ كُتُبًا وَرُسُلًا تَأْمَنُهُمْ مِمَّا خَافُوا ، وَتُحَذِّرُهُمْ قَبِيحِ الْعَاقِبَةِ فِي إِثَارِ الْفِتْنَةِ ، وَأَنِّي مُطْلِقٌ إِلَيْهِمْ أَهَالِيَهُمْ ، وَيَجْرُوجُونَ عَنِ الْحَصُونِ حَيْثُ شَاءُوا بِأَمَانٍ وَوَثَاقٍ ؛ وَهُمْ فِي هَذَا كُلِّهِ ، لَا يَزِيدُونَ إِلَّا طُغْيَانًا وَتَهْدُدًا ، بَيْنَ عَالِي الشَّرِّ ، طَالِبِينَ لِلثَّارِ بِلَا ثَارٍ . فَلَمَّا بَشَّرْتُ مِنْهُمْ ، مَعَ اتِّفَاقِ الْحَصُونِ عَلَيْهِمْ ، أَرْسَلْتُ بِالْعَسْكَرِ ، وَقَوَّدْتُ عَلَيْهِمْ يُوسُفَ بْنَ حَجَّاجٍ ، سَنَدُكُرَ وَجْهَ مُصَاهَرَتِهِ لَنَا بَعْدَ هَذَا ؛ فَهَضَّ ؛ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا سَاعَةً وَصُولِهِ ، وَجَزَعَ مَنْ مَعَهُ فِي الْقَصْبَةِ ، وَخَلَّتْ عَلَيْهِمْ ؛ وَدَخَلَهَا الْعَسْكَرُ ، وَأَمَرَ فِيهَا هُوَ وَكُلُّ مَنْ مَعَهُ . وَأَنَا مِنْ ذَلِكَ فَتَحْتُ عَظِيمٌ .

١٠ وَأَمَرْنَا بِتِقَافِهَا وَسَوْقَانِ الْأَسْرَى ، وَتَقْفَانِهِم مُسْتَعْتِقِينَ فِي أَمْرِهِمْ ؛ فَأَفْتَتِ السَّنَةُ أَنَّ قَتْلَهُمْ غَيْرُ جَائِزٍ إِذْ كَانَ نَفَارُهُمْ جَزَعًا ، عَلَى أَنَّهُمْ كَانَتْ لَهُمْ سَعَةٌ فِي الْأَرْضِ غَيْرَ لَوْشَةٍ ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا الْقِسَادَ فِي الْأَرْضِ ؛ وَآخَرُونَ يَقُولُونَ بِقَتْلِهِمْ . فَأَثَرَتِ الْأَلَيْقُ وَالْأَبْتَدُ مِنَ الْأَنَامِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَفُوتُ ؛ وَمِنْ أَخْلَاقِ الْكِرَامِ النَّائِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ الْمَغْدِرَةِ . فَأَوْجِبَتْ السِّيَاسَةُ تَقْصِيفَهُمْ وَالشَّدَّةَ عَلَيْهِمْ ، لِئَلَّا تَكُونَ طَرِيقَةً لَعِيرِهِمْ ؛ وَهُوَ بَابُ فَتْحِهِ عَلَى الدَّوْلَةِ مِنْ أَضَرِّ الْأَشْيَاءِ ؛ فَلَا غَفْلَةَ لِمَلِكٍ يَقْظَانِ فِيهِ .

وَخَاطَبُوا ، مُدَّةً كَوْنِهِمْ بِلَوْشَةٍ ، كُلَّ رَئِيسٍ بِالْأَنْدَلُسِ ، حَتَّى صَاحِبِ مَالَقَةٍ . فَلَمْ يَجِبْهُمْ * أَحَدٌ . فَلَمَّا يَبُشُّ مُؤَمِّلٌ مِنْهُمْ ، أَرْسَلَ إِلَى أَمِيرِ ٥٧ (١) الْمُسْلِمِينَ ، بِزَوْرٍ عِنْدَهُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ، وَبِكَذِبٍ ، وَيَقُولُ لَهُ : « لَمْ تُؤْتِ إِلَّا مِنْ إِنْكَارِي أَمَرَ النَّصَارَى ، وَالْقِيَامَ بِدَعْوَتِكَ » حُجَّةٌ لَا تَقُومُ عَلَى سَاقٍ . وَكَانَ الْعَسْكَرُ إِلَيْهَا مُقْبِلًا مَعَ نَعْمَانٍ ؛ فَانْصَرَفَ لَنَا عَمَّا بِأَخْذِهَا .

٦٤ - وَصَفَ الشَّائِرُ نُثْمَانُ وَسِيرَتُهُ ضِدَّ عَبْدِ اللَّهِ

وكان نُثْمَانُ المذكور ممن فَعَلْنَا معه جَيْلاً ، وَأَحْسَنَّا إِلَيْهِ مُحَرِّمَةَ الْقَرَابَةِ والاضْطَاعَ إلَيْنَا مِنَ الرُّبَاطِينِ ؛ وَزَالَ عَنَّا بَعْدَ إِعْمَالِهِ الدَّوَخِلَ عَلَيْنَا فِي حَصُونِنَا الْغُرَبِيَّةِ ، وَعَقَّدَهُ مَعَ أَهْلِهَا أَنْ يَصِيرُوا فِي طَاعَةِ الرُّبَاطِينِ مَتَى دُعُوا . وَكَانَ لَهُ بِتِلْكَ الْجَمْعَةِ إِتْزَالٌ ؛ فَتَمَكَّنَ مِنَ الْقُرْبِ وَالْعَمَلِ بِذَلِكَ ، وَخَرَجَ عَنَّا بِسَرَّاحٍ أَدْعَى مِنْ أَجْلِهِ أَنْ لَهُ بِالْعِدْوَةِ مِيرَاثًا وَمَالًا يُرِيدُ اقْتِضَاءَهُ ؛ فَأَجَبْنَا لَهُ النُّهوضَ ؛ وَإِذَا بِهِ يَسْتَعِي عَلَيْنَا . وَقَالَ لِلْأَمِيرِ : « نُفَيْتُ مِنَ الْبَلَدِ مِنْ أَجْلِ نَصِيحَتِي لَكَ وَتَحَبُّبِي فِي دَوْلَتِكَ ! » أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ حَرْفٌ ، حَتَّى إِنَّ أَطْوَاقِي ، إِنَّ تَكَلَّمْتُ ، لَسَعَتْ عَلَيَّ ، لِلْقَدَرِ الَّذِي شَاءَهُ اللَّهُ ، عَسَى لِعَاقِبَةٍ مَحْمُودَةٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . ١٠

فَعَمِلْتُ هَذِهِ الْعَافِي كُلَّهَا فِي نَفْسِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، مَعَ مَا صُوِّرَتْ عَنْدهُ بَكْثَةُ الْأَمْوَالِ الْكَذُوبِ عَلَيْهَا وَالْمُنْتَفَقَةِ فِي طَاعَتِهِ وَالْجِهَادِ مَعَهُ لَوْ بَقِيَتْ الْحَالُ .

٦٥ - مَسْأَلَةُ زَوَاجِ الْأَمِيرَتَيْنِ أُخْتَيْ عَبْدِ اللَّهِ

وَبِأَنَّ فِي تِلْكَ الْقَعْدَةِ ، رَأَيْنَا مِنَ الصَّلَاحِ النَّظَرَ لِمَنْ مَعَنَا مِنَ النِّبَاتِ وَتَزَوَّجَهُنَّ قَبْلَ أَنْ يَفْجَأَ أَمْرٌ ، فَيَكُنَّ عَلَى غَيْرِ عِصْمَةٍ وَلَا كَفِيلٍ . ١٥ فَخَيْرُنَا لُهُمَا مِنْ بَنِي عَمَّتَيْهَا شَاكِلَةُ ، مِنْهُمْ مَعْدُ بْنُ يَعْلَى ، الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ مِنَ النِّجَابَةِ وَالْعَقْلِ وَالْمَحَبَّةِ ؛ فَصَدَدْنَا عَنْ ذَلِكَ أَهْلُ دَوْلَتِنَا ، وَقَالُوا نَصِيحَةً وَحَسَنَةً : « إِنَّ أَنْتَ تَصَاهَرْتَ إِلَى بَنِي عَمِّكَ ، سَحَلْتَهُمْ دَالَّةُ الْقَرَابَةِ مَعَ الْمُصَاهَرَةِ عَلَى الظُّهُورِ عَلَيْكَ وَفَسَادِ حَالِكَ بِصَلَاحِهِمْ . فَإِنَّكَ ! وَعَلَيْكَ بِمَنْ

هو دون قِيَمَتِكَ ؛ فِرَاعِي إِحْسَانِكَ ، وَيَرَى هَذَا مِنْكَ كَثِيرًا ، وَيَرَى
عِيَالَهُ بَعَيْنَ مَوَلَاةٍ ؛ وَإِنْ هُوَ تَحَرَّكَ إِلَى شَيْءٍ ، قَعَدَتْ بِهِ دَقَّةُ شَأْنِهِ ؛ فَلَا
أَتْبَاعَ يُهَاوِدُونَهُ . « قَبَلْنَا ذَلِكَ حَذَرًا * عَلَى الدَّوْلَةِ ، وَقُلْنَا : « مِنْ صَلَاحِ
مَنْ قَرَابَتَنَا ، نُذَرِكَ فِعْلَ الْخَيْرِ فِيهِ دُونَ مُصَاهَرَةٍ تُطْفِئُهُ ! »

٥. وَكَانَ مِنْ بَعْضِ خَدَمَتِنَا مَنْ حَضَّنَا عَلَى يَوْسُفَ بْنِ حَجَّاجٍ ، لِعِلْمِهِ
بِأَخْلَاقِهِ مَدَّةَ صَحْبَتِهِ لَهُ ؛ وَوَصَفَهُ بِصِفَاتٍ ظَاهِرُهَا بِشَبْهِ الْمَشَاكِلَةِ . وَذَلِكَ أَنَّهُ
قَالَ : « فِي الرَّجُلِ انْقِبَاضٌ وَاسْتِيحَاشٌ مِنَ النَّاسِ ؛ وَبِذَلِكَ تَأَمَّنَ مِنْ
إِجْمَاعِهِ عَلَيْكَ ؛ وَفِيهِ شُحٌّ كَثِيرٌ ، لَا يُخْرِجُ خَيْرَهُ مِنْ مَنْزِلِهِ ؛ وَفِيهِ غِيَرَةٌ شَدِيدَةٌ
تُؤَافِقُ مُعَاشَرَةَ الْعِيَالِ ؛ وَبِهِ حَرَجٌ وَنَزَقٌ ، لَا تَصِحُّ بِهِ وَلَايَةٌ ؛ وَهُوَ مِنْ
نَقْصَانِ الْبَيَانِ وَعِيٍّ الْلسَانِ مَا لَا يَطْبِي بِذَلِكَ النَّاسُ لَتَأَلُّبٍ ، إِنْ شَاءَ
عَلَيْكَ ، وَلَا نَقْضَ لَعَالِكَ أَوْ مَقَالِكَ وَالرَّجُلُ مِنْ أَوْسَاطِ النَّاسِ وَمِمَّنْ لَا يَنْتَمِي
إِلَى مَلَكَ ، وَلَا يُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِمَا لَا أَصْلَ لَهُ فِيهِ . فَهُوَ بَيْنَ يَدَيْكَ كَالْكَاهَةِ الَّتِي إِنْ
شِئْتَ قَلَعْتَهَا ، لَمْ تَعْتَذِرْ عَلَيْكَ مِنْ أَصْلِهَا ، أَوْ كَالصَّمْغَةِ ، إِنْ شِئْتَ فَرَّقْتَهَا ،
ظَهَرَتْ ؛ وَكَانَتْ لَكَ الْمَنَّةُ وَالْخِيَارُ ! وَالْآخِرُ هُوَ تَرَبُّبُكَ وَنَشَأَتُكَ ، وَابْنُ
وَزِيرٍ جَدِّكَ ، وَلَهُ مِنْ بُعْدِ الْهِمَّةِ وَكَرَمِ النَّفْسِ وَحُسْنِ السَّمْتِ وَالْوَقَارِ عَلَى
١٥. حَالِ الْحَدَاثَةِ مَا تُرْجَى بَرَكَتُهُ ؛ وَلَيْسَ بِمُنْقَدٍ قَدْرُهُ . وَإِنْ أَنَهَضْتَهُ إِلَى
أَمْرٍ ، جَدَّ فِيهِ ، وَأَنْتَ آمِنٌ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ أَنَهَضَ
ابْنَهُ إِلَى دَرَجَةِ يُقَرُّ عَيْنُهُ . وَالْأَوَّلَى أَنْ يَدْعُوكَ صِهْرُكَ « مَوَلَايَ » ،
مَنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلًا ؛ فَنَشَقِ أَنْتَ وَنَحْنُ ، إِذَ الْغَدُ لَا يَحْتَمِلُ سَيِّئَيْنِ ،
٢٠. وَلَا نُدْرِي مَنْ السُّلْطَانُ فِيكُمْ ، إِلَّا مَنْ ارْتَضَيْتَهُ وَقَدَّمْتَهُ . »

فَقَدْتُ لَهَا النِّكَاحَ عَلَى أَتَمِّ مَا يُمْكِنُ ، وَاسْتَعَدَدْتُ فِي سَائِرِ أَمْرِي

بالأخْزَمَ ، وَوَكَلْتُ ذَلِكَ إِلَى الْأَقْدَارِ ، وَقُلْتُ : « هَذَا جُهْدُ الْإِسْطَاعَةِ ؛
 وَدُونَ جُهْدِكَ لَا تُلَامُ . وَلِلَّهِ أَنْ يَقْضِيَ بِمَا شَاءَ ! »
 وَلَمَّا صَارَ وَلَدٌ حَبَّاجٌ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ ، شَرِيهَتْ نَفْسُهُ إِلَى وَزَارَةِ الدَّوْلَةِ ،
 مَقْطَعٌ مِنْ لَمْ يَمِيزِ الْمَذْهَبَ . وَلَمْ نَكُنْ بَعْدَ وَزَارَةِ سِمَاجَةٍ نَسْتَعْمَلُ لَذَلِكَ أَحَدًا .
 ٥ فَكَأَنَّهُ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ التَّقْصِيرُ بِهِ ، جِهَالَةً مِنَ الْإِنْسَانِ * بِقَدْرِهِ لَهُ مُهْلِكَةٌ ، ٥٨ (١)
 وَتَرْكُهُ صِيَانَةَ قَدْرِهِ لَهُ قَاضِيَةٌ .

٦٦ — حَدِيثٌ مُعْتَرِضٌ عَنْ نَصِيحَاءِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ

وَكَانَ أَهْلُ دَوْلَتِنَا عَلَى مَذْهَبِ جِهَالَةٍ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ : إِنْ كُلُّ أَحَدٍ
 مِنْهُمْ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ بِرَأْيِهِ ، وَأَنْ تَجْرِيَ الْأُمُورُ عَلَى هَوَاهُ ؛ فَإِنْ لَمْ يَتَّفَقْ
 ١٠ ذَلِكَ لَهُ ، صَارَ فِي حَيْزِ الْأَعْدَاءِ ؛ وَلَوْ كَانَ عَلَى مَرْغُوبِهِمْ ، مَا تَّفَقَّ لِرئيسِ
 عَمَلٍ ، وَلَا تَمَّ لَهُ شَيْءٌ . وَكَانُوا قَبْلَ أَيْامِنَا قَدْ شَغَلَهُمُ الْخَوْفُ مِنْ صَوْلَةِ
 رُؤَسَائِهِمْ : مَا كَانُوا يَرَوْنَ السَّلَامَةَ غَنِيمَةً . وَلَمَّا تَمَّ لَهُمْ فِي أَيْامِنَا الْأَمْنُ ،
 وَأَنْسِيَهُمْ مَا مَضَى ، أَدْرَكَهُمُ الْأَشْرُ وَالْبَطَرُ ، إِلَى أَنْ تَطْمَحَ أَنْفُسُهُمْ لِغَيْرِ
 ذَلِكَ . وَكُنَّا نَحْنُ نَظُنُّ أَنْ بِالْأَمْنِ نَسْلَمُ مِنَ اللَّائِمَةِ وَالْعِدَاوَةِ . وَخَانَنَا
 ١٥ الْقِيَاسُ ؛ وَكَذَلِكَ الْعَاقِلُ الْمُتَمَرِّنُ لَا يَجِبُ لَهُ أَنْ يَظُنَّ بِالنَّاسِ ظَنَّهُ بِنَفْسِهِ ،
 وَلَا يَعْمَلُ حِسَابَهُ وَحْدَهُ . فَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ عَلَى مَذْهَبِكَ ، وَلَا هَوَاهُ مُطَابِقٌ
 لِهَوَاكَ ! وَلَا حَالَةٌ أَنْ بِاخْتِلَافِ الْأَهْوَاءِ تَقَعَ الْعِدَاوَاتُ ، وَبِاتِّفَاقِنَا تَكُونَ
 الْمُصَاحَبَةُ وَحُسْنُ الْمُعَاشَرَةِ . وَأَصْدَقُ النَّاسِ لَكَ مَنْ يَكَابِدُ مَعَكَ ، وَدِهَاهُ
 مِثْلُ الَّذِي دِهَاكَ ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْأَبَاعِدِ ؛ فَلَا تَسْتَرْحِ إِلَّا إِلَيْهِ ؛ وَلَا تَشْكُ
 ٢٠ هَمَّكَ مَعَ مَنْ لَمْ يَفْنِهِ مَا عِنَّاكَ : فَإِنَّمَا سَأَلَ عَنْ حَدِيثِكَ ، وَقَدْ أَكْثَرَتْ

عليه ، وَإِنَّمَا مُخَالَفٌ لِمَذْهَبِكَ ، قد استهدفت إلى عداوته ، وأحدثت في نفسه ما كنت غنياً عنه .

- هذا طبع البشريَّة : فلا تسمع مَن يُريك التحقيق بكلامه ؛ فإنَّ الحقَّ ثقيلٌ على النفوس ، والباطل إليها أسرع ، وعليها أخفُّ . ولَمَّا علم الشيطانُ حِيلَ الإنسان ، لمَجْرَاهُ منه بمنزلة النِّمِّ ، أتاه من قِبَلِ هَوَاهُ . ٥ ولا سبيلَ أن تلتقي أحداً عديمَ العقل : كلُّ قد أخذَ من التجربة حصَّته ، وحاز اختياره ؛ وعرضك عليه ما يبتدو إليك عجزٌ وكلفةٌ : فإن كان رَيْضاً ، فهو بشأنه أبصر ؛ ولعلَّ له عذراً ، وأنت تلوم ؛ فتولد عليه انقباضاً منك وتحفظاً لئلا يُريك الخِلافَ حتَّى يأتي بما اعزم عليه . وإن أَلْفَيْتَهُ جاهِلاً ، فن العناء رياضةُ الهرم ، لم تَزِدْهُ أَكْثَرَ من قَلِّهِ* عن ٥٨ (ب) ودَّه ، ولا يَنْتَقِلَ عن طَبْعِهِ .

- كَيْفَ ما رَوَّيْتُ في الأمرِ ، أَجِدُهُ جَهْلاً من فاعِلِهِ وكُفَّةً ، إذ لا تَأْدِيبَ يجملُ بِالْمَعْلَمِ ولا الْمُتَعَلِّمِ . اللَّهُمَّ إِلَّا من شُورٍ في أمرٍ ، فعليه أن يعطى ما عنده من غير إلحاح ، ولا يتمرَّن في انتظار طاعة ؛ فيكون الناصح ، إن سُمِعَ منه ، تمادى على صداقته وخولفَ في غِشٍّ . فاقام خَيْرُكَ ، ١٥ يا زَمان ، بِشَرِّكَ ا

- لو أُنِّي أَعْلَمُ أَنَّ بِخِلَافٍ يَسِيرٍ على القائلِ يُنْتَقَلُ إلى حِزِّ العداوة ، لم أَشاورْهُ في أمرٍ أَبداً : وأكونُ قَبْلَ مُشاورَتِهِ مُخاطِراً حَدِيراً الذي تَخْشَى منه ، أَتَدَّ عَلَى من عاقبة الأمرِ المعروض عليه . فالعاقِلُ يقيسُ على هذه العاني ويحز بها صديقه . فَرُبَّ عداوة تتولدُ بِأَرْقٍ سَبَبٍ ، أو عداوةٍ ٢٠ تعود إلى مُوَدَّةٍ ، عند الحاجة إلى التعاون أو الانخراط في سلكٍ واحدٍ

من عارضٍ يعمُّ أو مرغوبٍ يُرامُ ؟ تكون الحاجة فيه سواء .
ولا خَيْرَ في عقلٍ لا يتصرف تارات ؛ وللذهب السرمدي ركبٌ
طريقة الجهل ، واقعٌ في الورطات . ومن الحق ما يسمج ، فلا تقوم
حلاوته وفرضه بما يعقب من المشقة ؛ والعاقِلُ يتخير الأمور ؛ فيتجنب معسورها ،
ويتوخى ميسورها . ٥

٦٧ - رجع الحديث عن زواج الأميرتين أختي المؤلف

وللقائل ، إن محتج على هذا التكاح : ما ألقى أريد به ؟ إن كنا
غالبين ، فقد استغفنا عنه ؛ وإن كنا مغلوبين ، لم يَفِدْ ذلك ! يعترض
هذا بعد تبیان ما وقع !

١٠ وإنما أردنا اكتساب الحسنة مع السر ؛ وإنه ، متى عرض عارض ،
كان البعلُ مكتفياً بامرأته ، يُقلِّمها إذا أخرج ما تكون فيه عند ذلك ،
وتكون لنا منهم عُدَّةٌ ، ويُقلُّ طمعُ كلٍّ من يشره إلى خطبتها . فقد
كان كثيرٌ من سلاطين الأندلس رامَ ذلك ؛ وتوقعنا العاقبة إن فعلنا :
تنشئنا فيما لا مردَّ فيه ، ولا يُنفك عنه إلا بالأموال الجسيمة التي هي
١٥ أولئ بالبدل في إقامة أود الملكة وما كنا بسيله من الجهاد ؛ وإن أبينا ،
وقع الخلافُ والحقْدُ من الطالب ، بحيث لا يوافق ؛ على أنه لم نحسب

حساب ما جرى * . لو كنتُ أعلم الغيب ، لاستكثرْتُ من الخير . وكان ٥٩ (١)
زماناً لم نحسب فيه حساب خَيْرٍ خرج منه مثقالُ ذرَّةٍ ، ولا قِسْنا على
شيء من الشرِّ إلا ولم نبلغ معشاك ما يكون منه ، بل يدهى منه أمره وأفظمه .
٢٠ ولقد قال المطالبون إن أمير المسلمين كان أحقَّ بها ، وإنما فعلنا

ذلك فراراً منه . وهذا من المحال أن يكون أحدٌ يتبع الشرف ، ويدعى إلى ما فيه حياته ، فيأباه ! ولو أثنى أشعر بشيء من ذلك ، ونرى أن المذهب في هذا ، لكنت أشد الناس اغتباطاً بالأمر ، وإليه مسارعة ، وعليه حرصاً .

٥ ولم يكن من ألح في ذلك أكثر من المعتصم — رحمه الله — ؛ فبادرت إلى ما تقدم ذكره ، خوفاً من كل ما ذكرناه . وإنه ، لما تواترت على أمير المسلمين هذه الأنباء ، وصورت عنده على غير ما هي ، عملت في نفسه .

١٠ وانقطع رجاء مؤمل بلوثة من أن يجيبه سلطان من الأندلس ؛ وعند ذلك ، خاطب أمير المسلمين ؛ فلم يصل الخطاب ، وهياً المسكر إليها مع نعمان ، حتى انقضى خبرها ، على ما وصغناه .

٦٨ — تدخل عبد الله في مسألة مرسية وغضب المعتد

واعتقد المعتد دخول النصارى بلده ومحاشاتهم لجهاتي ، مع ما كان في نفسه من أمر مرسية . فإن ابن رشيقي قال لي مشافهةً ، ونحن على لييط : « أريد أن أكون صديقك وأدخل في مجلتك . » وقال لي رسولُه بعد ثقافه : « لو أنك تقبل من تخلف فيها ، لأقام الخطبة باسمك ، وكانت في طاعتك ! تجده ويمدك ! فأيت هذا القول جملةً ، وقلت في نفسي : « هذه نصبة لم يكذب أصحابنا يتخلصون منها إلا بعد المرام الشديد والكذب العظيم ! رد منهم هذه المشقات ! فلا يقرضها هذا الوقت إلا جاهل بالزمان ! وليت لو سلطنا من هذا كله ! وإنه من أمل

٢٠

أَنْ يُبْقَى بَلَدَهُ يَدَهُ ، فَقَدْ شَرِهَ إِلَى كَثِيرٍ ، فَكَيْفَ لِفُضُولِ الْعَمَلِ الَّذِي كُنْتُ أَرَى وَأُمَيِّرُ ؟

وَلَمَّا فَاثَمَتْ عَلَيْنَا الْيُسَانَةُ ، عَلَى مَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ ، كَانَ ابْنُ الْأَحْمَرِ يُدَاخِلُهَا ، وَيَعِدُّهُمْ وَيَأْمُرُهُم بِالْتَّخَبُّتِ ، حَتَّى تَبْدُو إِلَيْهِمُ الْأَحْوَالُ ؛ وَيَبْلُغُنِي * ٥٩ (ب) مِنْ ذَلِكَ مَا يُغْلِقُ . فَأَرَدْتُ بَعْضَ الْمَكَافَأَةِ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنْ نُوَجِّهَ إِلَى مُرْسِيَّةٍ مَنْ يَعْقِدُ مَا ابْتَدَأْنِي بِهِ رَسُولُهُمْ ابْنُ يَكُونُ ، الْمُتَصَرِّفُ فِي خِدْمَتِهِمْ ، وَيَقُولُ لَهُمْ أَنْ يُبَيِّنُوا كَيْفَ يَرِيدُونَ مُحَاوَلَةَ هَذَا الْأَمْرِ : إِنْ أَرَادُوا الْقِيَامَ بِدَعْوَتِنَا لِمِلَّةٍ مَتَى كَانَتْ ، نَغِيثُهُمْ فِيهَا بِأَمْوَالِنَا وَرِجَالِنَا ؛ وَمَا فَائِدَةُ ذَلِكَ وَثَمَرَتُهُ فِيمَا نَشْتَرِطُ نَحْنُ بِهِ ؟

١٠ وَلَمَّا تَوَجَّهَ مِنْ ثِقَاتِنَا لِذَلِكَ مَنْ أَنْفَذْنَاهُ ، اعْتَقَدَهَا الْمُعْتَمِدُ فِي نَفْسِهِ ؛ عَلَى أَنَّنَا لَمْ نَكُنْ نَفْرَمُ عَلَى ذَلِكَ أَبَدًا أَكْثَرَ مِنْ طَلَبِ التَّعَلَّاتِ عَلَيْهِ آخَرَ ذَلِكَ بَأَنْ نَسْمَعَ مِنْهُ مَا لَا يُوَافِقُ ؛ فَيَنْتَقِضُ الْعَمَلُ بِسَبَبِهِ ، أَوْ تُوقَفَ الْحَالُ إِلَى أَمْدٍ مَا ؛ كَالَّذِي يَقَعُ بَيْنَ الْمُلُوكِ مِنَ الْمُدَاخَلَاتِ وَالْأَعْمَالِ : فَتَنْهَا مَا لَا يَتِمُّ ، أَوْ يَتِمَّ إِلَى حِينٍ .

٦٩ — إِرْسَالُ سَفَارَةٍ إِلَى يُوسُفَ بْنِ تَاشَفِينِ

١٥

بِسَبَبَةِ مَنْ قَبَلَ عَبْدُ اللَّهِ وَإِيقَاعِ الْخَوْفِ فِي نَفْسِهِ بَعْدَ رَجُوعِهَا

وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ ، لَمَّا أَتَى سَبَبَتَهُ ، وَهُوَ قَدْ أَحْشَدَ وَأَعَدَّ ، قَاصِدًا إِلَى جِهَتِنَا ، لَا يَرِيدُ غَيْرَهَا ، أَرْسَلْنَا إِلَيْهِ رُسُلًا مُقَدِّمَةً ، بَعْدَ عِتَابِ (١٠)

كبير جرى بيننا وبين المعتد على خبر مرسية ، لم يرد به مفاسدة أكثر مما وصفناه .

وحان وصول أمير المسلمين إلى سبقة ، وقدم رسلنا عليه ، وهم : ابن سهل القاضي المتقدم ذكره ، المستعمل للعملة الموصوفة ، وباديس بن وازوي من تلكاتة ، يهتونه على سلامته ويتلقون بالرحب قدومه ومسارعتنا إلى ما يذهب إليه في جهاده ، وما أشبه ذلك .

فانصرف الرسولان المذكوران ، يعلنان أن أمير المسلمين قابل لكل ما ذكرناه ؛ قد أعرض عليهما من الجليل ولطيف القول ما لا شك في تحبته . فسرنا ذلك . وكان فيما قال لهم : « يصنع ما شاء ! لست ممن يكلف أحدا إلا طاقته ! » فكان ذلك منه دهاء وحذقا ، مع ما نبه عليه قبل ، من قبل ابن سهل بالمخاطبة وغيره ، أن نفارنا عنه إنما كان من خشونة الكتبة الواردة من عنده ، وأن للدارة بالقول أولى ، حتى يظهر ما شاء ويمهد لعمله بذلك .

وإن ابن سهل* . لما رأى من خلاف الجند ، واطلع عليه من أنفـس (١) ٦٠
 ١٥ أهل البلد ما اطلع ، قدم لنفسه ، ورأى ألا يخل من عمل يقر به فيمن تقرب . وأعلمه أن البلدة ليس عليه فيها مخـتلف ، ونفث بذلك باديس المذكور . وصح عندي وقت انصرافهما أن ابن وازوي قال : « أرسلنا للخدمة له في زعمه ، ولم نصنع غير أني كتفتـه ، والقاضي ضرب عنقه ! » إلى أن وصل أمير المسلمين قرطبة .

الفصل العاشر

إمارة عبد الله بن مُبَلِّق بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

(٦) استسلامه للسلطان المرابطي . مسجنه .

إخراجه من الأندلس ونفيه

٧٠ — عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس

وبدء مقاتلته إياه

[وعند وصوله قُرطُبة ،] اجتمع [أميرُ المسلمين] بالمُعْتَمِد ، وسأله عما لِهَجَّ الناسُ به من مُدَاخَلَةِ الروميِّ ؛ فشهد بذلك ، للذي كان في نفسه من كلِّ ما وصفناه . وأرسل أميرُ المسلمين إلينا كتاباً يقول فيه : « اقبلُ إلينا ، ولا تتأخَّر ساعةً واحدةً ! »

١٠ فرائبى ذلك ، وهو موضعُ الانقياض ، لِمَا تقدَّم من الطلب ، وأنَّ بمَحَضَرِهِ جميعُ أعدائنا ، وإلحاحُهُ علينا في الوصول . واعتذرتُ إليه بتَوَجُّيهِ رُسُلٍ : أحدهما وَلَدٌ حَجَّاجٌ ، والآخر ابنُ ما شاء الله . فساعةً وصولهما ، قرَّعَهما بكلِّ ما نُقِلَ إليه ، وأمر بتماقضهما في الحديد على المقام ؛ وقال لهما : « بالله ! إني غَزَوْتُهُ كما نَفَزُوا الْفُونْشَ ! والذي يقدر عليه ، فَلْيَصْنَعْ ! »

١٥ وأتاني بعضُ الفُرسانِ الناهِضين مع الرُّسُلِ على أسوأِ حالَةٍ ، مضرويين

ملهوفين ، أطلقهم قَرُورٌ لِيُعْلِمُونِي بِالْقِصَّةِ ، ويقول : « بالله ! أن أطلقهما الأميرُ حتَّى ينطلق مؤمِّلٌ وأصحابه ! » فذهمني من هذا الأمر ما لا مَرَفَع فيه ولا حيلة . ولا ظَنَنْتُهُ أن يجري على هذه الرتبة .

وأرسل على المقام كُتُبًا إلى اليُسَّانة — فأول ما طاعت له — وإلى جميع حصون الغرب ، على يدى ثمان المذكور ، الساعى فى مُداخلتها قديمًا .
 ٥ وكان من كُتُبِهِ إليهم : « أما بَعْدُ ، فقد جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ^(١) » . إن لم تُطَوِّعُونَا ، فَأَذْنُوا بِمَجْرَبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ^(٢) . وإنَّ خِطَابَهُ لم يَرِدْ على مَعْقِلٍ منها إِلَّا وأَلْقَى بِيَدِهِ ، وقام أهلُه على إخراج فائدهم ، حتَّى تَنَافَرَتِ الْمَعَاقِلُ كُلُّهَا كَانْتِشَارِ الْعِقْدِ ؛ إلى أن وصل الأمير إلى بَيْلِيشْ ؛ ومن امتنع منها ، قَاتَلْتُهُ الرِّعْيَةَ معهم ، حتَّى يلقى يده .

فلم نَدْرِ ما * نصنع ، « وأتسع الْخَرَقُ على الرَاقِعِ » ؛ وقلتُ : ٦٠
 « لا طاقة لى بجميع أهل البلاد ، إذ غلروا وخرجوا عن الطاعة ! فَيَبْحَنُ نَفْسُكَ الْخِضْرَةُ ؟ ليس فيها خلقٌ من غير جنسٍ مِمَّنْ كان فى الْمَعَاقِلِ .
 ١٥ « ولا يَتِمَكَّنُ لِلْخِباءِ أن يَتَقَفَ دُونَ أَوْتَادِ ! » ولا فى الأمر من مُداراةٍ ولا حيلةٍ مع الرَّجُلِ أَكْثَرَ من رَغْبَتِهِ فى خَلْعِنَا ! ولا نَمُّ غَيْرُهُ يُسَنِّدُ إليه ، فتستريح فيه من هذه الداهية الْعُظْمَى والطامة الْكُبْرَى ! ولا فى الْمُمْكِنِ أن نَوَجِّهَ إلى الروى ، فيكون ذلك فساداً فى الدين ، واستعجالاً لِلْمَكْرُوهِ ؟ وإن شعر بذلك أهلُ حَضْرَتِنَا ، كانوا أوَّلَ من يقاتِلُنَا قبل

(١) سورة الإسراء : ٨١ .

(٢) سورة البقرة : ٢٧٩ .

المُرَابِطِينَ ! ما دام السُّتْرُ يَنْتَنَّا وَبَيْنَهُمْ ، فيكشفون لنا القِنَاعَ على بصيرة ! »
فما عَهَدْنَا أَيَّامًا وَلِيَالِي كَانَتْ أَفْجَعَ لِقُلُوبِنَا ، وأَذْهَى لِنَفُوسِنَا مِنْ تِلْكَ الْأَيَّامِ .

٧١ - وصول الجيش المُرابطي قبالة غرناطة

وقدَّم أمير المسلمين عَسْكَرًا إلى غرناطة ، ما دام مُحَاوَلَتُهُ لِلْحَصُونِ ،
٥ يحرسونها من دخول عَسْكَرٍ بَرَّانِيٍّ ، إلى أن يَرِدَ عليها بنفسه . وأرسل
القَوَادُ إلينا أن نُبَيِّحَ لَهُمُ الْقُوتَ والْمَلْفَ بِالْمَدِينَةِ ؛ فَأَجَبْنَاهُمْ ، لثَلَا يَقَعُ
مِنَّا شَيْءٌ مِنْ الْخِلَافِ ، يَتَسَبَّبُ بِهِ إِلَى مَا هُوَ أَكْثَرُ .

وأرسلتُ آخَرِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِمَالٍ ، وَيُفْلِحُونَهُ أُنَى
ابْنَهُ ، وَغَيْرُ مُخَالِفٍ عَلَيْهِ ، وَالطَّاعَةُ مِنَّا لَهُ عَلَى مَرْغُوبِهِ ، دُونَ أَنْ يَحْجُجَ
إِلَى هَذَا التَّعَبِ كُلِّهِ . فَأَرْسَلُ إِلَيْنَا النِّقِيَّةَ ابْنَ سَعْدُونَ ، يَقُولُ لَنَا : « لَا طَاعَةَ
١٠ وَلَا صُلْحَ إِلَّا بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِ ! وَهَذَا أَمَانُهُ : كِتَابٌ بِخَطِّ يَدِهِ ، يَتَضَمَّنُ
الْأَمَانَ فِي النَّفْسِ وَالْأَهْلِ دُونَ الْمَالِ . » فَأَيَّقَنْتُ بِالْفَرَضِ . وَكَانَ فِي آخِرِ
كِتَابِهِ لَنَا : « إِنْ كُنْتَ اسْتَوْحِشْتَ مِنَ النُّزُولِ إِلَيْنَا ، فَخَافَ مِنْ بِلَادِكَ
مَوْضِعًا تَصِيرُ فِيهِ ؛ وَلَتَكُنْ غَيْرَ غَرْنَاطَةَ ، لِنَرَى فِيهَا رَأَيْنَا ! عُدَّةٌ فَاتِرَةٌ
١٥ لَا تَمُوتُ ! »

فَرَوَيْتُ هَذَا الْأَمْرَ ، وَعَلِمْتُ أَنِّي بِمَالٍ وَمَكَانٍ لَا اخْتِيَارَ لِي فِيهِ ،
وَأَنَّ الْمَذْهَبَ فِيَّ إِلَّا أَلِيَّ مَعْقِلًا ، وَأَنَّهُ لَا مَهْرَبَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ . فَقُلْتُ :
« مِنَ السَّخْفِ يَكُونُ أَنْ أَقُولَ : « قَدْ اخْتَرْتُ مَوْضِعَ كَذَا ! » فَإِنْ
كَانَ لَهَا كَارِهًا ، لَمْ أَلْبِثْ أَنْ أُرَدَّ مِنْهُ بِتَعَلُّلٍ وَحُجَّةٍ لِقُوَى عَلَى الضَّعِيفِ !
٢٠ وَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ الْعِوَضُ ، فَبِخُرُوجِي إِلَيْهِ يُزَيِّبُ مَا يَمْتَقِدُهُ * مِنْ إِحْسَانٍ . ٦١ (١)

ولا حيلة غير الخروج والتَّرامى عليه ؛ فإن كان قد أجمل وقبل ، فَلَهُ الْفَضْلُ ،
وعلى الشُّكْرِ آخِرَ الدَّهْرِ . وإن كان قد غدر ، كُنَّا وَاثِقِينَ بِالْقَدَرِ ، وَأُبْلَيْنَا
عند الله وعند الناس العَذْرَ ! »

٧٢ - الحالة داخل حضرة غرناطة

٥ ولما التفتنا إلى أهل مدينتنا ومذاهبهم وحرّكاتهم ، اطلعنا على أمورٍ
دليّةٍ على الانتقال ، مؤذنةٍ بالزوال ؛ وقسمناهم أصنافاً على القياس والرتبة ،
مع المعاينة لما عَمِيَ قَبْلُ ، وإظهار ما خَفِيَ ، إذ لا حَرَجَ ولا هيبة ولا
صَوْلَةَ تَتَّقَى . أمّا الجُنْدُ من البربر ، فكانوا مُعْتَبِطِينَ بهم ، طامعين في
الزَّيَادَةِ على أيديهم للجنسية . واتفق رأيهم على ألا يلقوه بِحَجَرٍ ، وقدّموا
١٠ كُتُبَهُم بالطاعة ؛ وراجعهم عليها ، يَعِدُّهُمْ بأن يُبْقِيَهُمْ في أُمَاكِهِمْ على
أَفْضَلِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ ؛ فمن كان منهم بالمدينة القويّ ، تَقَلَّعَ إلى الشَّفَلَى
بأهله وماله ، وبقي هو بِسَمْتِهِ مُنْفَرِداً متأهبّاً للشرِّ ، إمّا بالخروج إليه من
الطاعة ، أو بإسلامنا إليه والتبرؤ^(١) منا .

١٥ ومن كان من التجار وأهل البلد ، فكانوا على نِيَّةٍ أَنَّهُمْ مع مَنْ سَبَقَ ،
ولا طاقَةَ لَهُمْ بالحرب ، ولا هُمْ أَهْلُهُ ؛ وَأَكْثَرُهُمْ خرج من البلدة يقول :
« لَأَيِّ وَجْهِ نَحْتَمِلُ الْحِصَارَ ؟ تَاجِرٌ هُنَا وَصَانِعٌ كَمَا فِي غَيْرِهَا ! » وأمّا
الرعيّة ، فَبَنَحَ بَنَحَ ذَلِكَ مَا كَانَتْ تَبْغِي ، طمعاً منها في الحرّية ، وأنها
لا يُلْزِمُهَا غير الزكاة والعُشْرِ .

وأمّا الرّقاصة من المغاربة ، الذين كانوا عِمَادَ الحضرة ، وبهم كُنَّا

نُفْسِكَ الْحَصُون ، فَهَمَّ أَوَّلُ مَنْ طَاعَ ، وَأَعَيْنُ مَنْ بِالْحَضْرَةِ إِلَيْهِمْ يَقُولُونَ :
« مَا الَّذِي خَالَفَ بَنَّا عَنْ صَنِيعِ بَنِي عَمَّنَا ؟ » فَلَمْ تَجِدْ فِي صِنْفٍ مِنْهَا
رَاحَةً يُرْجَى مَعُونَتُهَا !

وَأَمَّا الْعَمِيدُ وَالصَّغَالِبَةُ ، فَالْعَمِيدُ الْأَعْلَاجُ ، أَوَّلُ مَنْ عَصَا ، كَمَا ذَكَرْنَا ،
بَلَوْشَةُ ، رَجَوْنَا أَنْ يَكُونُوا عِنْدَهُ فِي أَعْلَى مَرْتَبَةٍ ، وَلَمْ يَفَكِّرُوا فِي طَاقِبَةٍ
أَنْ يَخْطُؤُوا عِنْدَهُ ، فَيَقُولُ : « مَا نَصَحُوا مَوْلَاهُمْ رَبَّ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ !
فَكَيْفَ غَيْرُهُ ؟ » إِلَّا أَنْ كُلَّ وَاحِدٍ بِشَهْوَتِهِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، لِلَّذِي شَاءَهُ
اللَّهُ — لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ وَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ !

حَتَّى الْعُذَمَةُ مِنَ النِّسَاءِ وَالْخِصْيَانِ : كُلُّ طَامِعٍ فِي إِقْبَالِ الدُّنْيَا عَلَيْهِ ،
وَالْخُرُوجِ عَنْ تَقَافِ الْقَصْرِ إِلَى رَاحَةٍ* التَّسْرِيجِ ، وَالِاسْتِهْتَارِ بِالرِّجَالِ ، وَمَا ٦١ (ب)
أَشْبَهَ ذَلِكَ . فَجَعَلُوا الْخِصْيَ مِنْهُمْ وَلَبِيبٌ كَانَا زَعِيمِي الْمُدَاخَلَةِ وَرَأْسَ
الْقَتَكِ ، يَقُولَانِ : « نَحْنُ لَا وَلَدَ لَنَا وَلَا تَلَدَ ! فَعَلَى أَيْ شَيْءٍ نَصْبِرُ عَلَى
الْقِتَالِ ؟ وَمَا عَسَى نَطْمَحُ أَنْ نَصِيرَ إِلَيْهِ : هَلْ يَجْمَلُ بَنَّا سُلْطَنَةً أَوْ قِيَادَةً
أَوْ قِضَاءً أَوْ قَهْرًا ؟ إِنَّمَا نَحْنُ بِمَنْزِلَةِ الْعِيَالِ : مِنْ سَبَقَ اسْتَمْتَعَ بِنَا ، وَكُنَّا
عِنْدَهُ مِنْ جَمَلَةِ الْقَتَمِ ، نَرْزُقُ كَسَائِرَ الْكَسْبِ ، فَلَا نَضِيعُ ! تَعَالَوْا بَنَّا !
نُقَدِّمُ لَأَنْفُسِنَا ! » فَوُرِدَتْ عَلَيْهِمْ كُتُبُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِنْزَالَاتِ الْقَوِيَّةِ ،
وَالثَّقَائِلِ ، وَالْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ ، يَبْدُو بِذَلِكَ عِنْدَ إِكْمَالِ حَاجَتِهِ وَإِسْلَامِهِمْ لَنَا ،
حَتَّى اتَّفَقَتْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ .

٧٣ — لَا يَجِدُ عَبْدُ اللَّهِ مَخْرَجًا إِلَّا بِالتَّسْلِيمِ

٢٠ وَلَمَّا اتَّسَقَ لَهُ مَا أُمِّلَ ، وَعَلِمَ بِمَا مَعَهُ فِي الْبَلَدَةِ ، بَعْدَ تَقْدِيمَةِ عَسْكَرِهِ ،

كما ذَكَرْنَا ، إلى فَخْصِ غَرْنَاطَةِ ، وكان أهلُ البلدِ يَتَقَلَّمُونَ من المدينة إلى البادية ، ويخرجون منها^(١) أفواجا ، رأينا إمارة الشرِّ وعلامة السوءِ . فإذا بأُمير المسلمين في أثر ذلك العسكر مُقْبِلًا إلى الحضرة . فهاج الناسُ وجزعوا . واتفق رأي ، مع مَنْ نصحنى ، أنْ الخروجَ إليه أوْلَى ، والتزامى عليه ٥ أنجأ من هذه النار الموقدة . فلعلَّه ، إذا رأى براءتنا مما نقله العدو ، ولم يَجِدْ في المدينة نصارى كما قيل ، فلا بُدَّ له من وَجْهَيْنِ : إمَّا صَرَفْنَا إلى أوطاننا ، وإمَّا إخراجنا . فلنْ نعدم معه جيلا ، إذ لم نُهَيِّجْ عليه حربا ، ولا اتَّعَبْنَاهُ في أمرٍ .

- وَكَمْ عَسَا الْعَيْشُ في هذه الدنيا ! والنجاة بالنفس في دار الدنيا ١٠ وتخليصها من الأوزار في الآخرة ، لا يُبَالِغُ ذلك شيءٌ ولا يمدله ! فاستمعنا القتل الذى جعله الله أميرا على كلِّ شيء ؛ وكلُّ قُوَّةٍ لا يتأنيها القتلُ ضُفِفَتْ وسُكِّرَتْ ، مع سوءِ العاقبة . ولا سيما أننا بحال لا بُدَّ من إسقاط الرُّومِ بإرضاءِ المسلمين بإرضاءِ الرُّومِ ! فالآن يبرئها المسلمون أوْلَى وأَجَلٌ للعاقبة ، إذ هي نُشْبَةٌ لا مَلْجَأَ منها إلَّا بما ذكرنا .
- ١٥ اللَّهُمَّ إِنْه لو امْتَسَكْنَا فيها بنفقة الأموال ، ولا يمكن استبْدادُ دون انتظار قُوَّةٍ من النصارى ، ثُمَّ أتَى الرومُ ، فينحاش عَسْكَرُ المسلمين إلى الجزيرة أو إلى قُرْطُبَةٍ ، *مُرْتَقِبًا لما يكون منه ، فيقول لى الرومى : « قد ٦٢ (١) أَقْلَعْتُ عَنْكَ من أَرَادَكَ ! هَاتِ من الأموال ما نَسْتَحِقُّ من المكافأة ! » فلو قلتُ له : « اتركْ عَسْكَرًا معى ، وابقَ أنتَ لثَلَا يُعَاوِدُنَا ! » ٢٠ ما كان يفعل ، ويخشى على عسكره البوارَ بين أهلِ البلدة والعسكر الخارج .

(١) أصل : « يخرجونها » .

ولو انصرف دون أن يترك قُوَّةً ، فساعة انصرافه وإقبال المرابطين ، لم ترتقد لهم ساعة ، وينقطع الرجاء عن معونة أخرى : فهناك النكال الأكبر ، وصحَّ لهم قتلنا بالكتاب والسنة .

- ولو أن عند إقبال الرُومى ، يقول لنا : « إن كنت تتقى من المرابطين ، ولا يمكننا السكنى معك من أجلهم ؛ فخل لنا عنها ، وتصير إلى كل ما تحبُّه مع النجاة بنفسك وحشيك وذخايرك ، كالذى صنعت بجفيد ابن ذى النون ، إذ عاوضته بلفسية ؛ وإلا ، فلا استيطان لك عندنا ، إذ لا تقيدنا بالبلدة ، وما يغنى بخروجك إلينا وتركك لمدينتك مطيبة للمرابطين ؛ فيدخل علينا الحزم منها . » فلو أطعناه ، لارتكبنا من الأوزار والخروج عن الدين ما يلعبنا الله عليه والناس أجمعون ، وكُنَّا نترك غرناطة حبساً للرُوم ، يُضربون منها للمسلمين ؛ فلا دماء تُسفك منها ، ولا داخلة تُدخل إلا وكانت في صحائفنا . ولا خير في أثر الدنيا على الآخرة !
- ولو أن يتربص المرابط عند إقبال الرُومى ، ولا ينحاش له ، كما وصفنا ، ويبقى على لقائه^(١) ، فلو التقت الفِئتان ، فلا بُدَّ من أن يكون للطائفة الواحدة على الأخرى ؛ فلو أنها على الرُومى ، ففي إثر ذلك ، لم يقدم على قتلنا شيئاً بالحجة أننا أجلبناه ؛ ولو أن الرُومى يغلب ، فبقى بعد ذلك في الملك ما شاء الله ، لم يطب لنا مُلك ، ولا استحينا من الله والناس أن يكون ذلك ببوار المسلمين وهلاكهم ! ثم إنه لا يصح لنا ثبوت معه ، وأى شيء كان يحجره عنا ، ولا شيء نرتجى به نزع أنفسنا منه ، ولا بمن
- ٢٠ نتنصر لو هم بأخذ الكل .

كَيْفَ مَارَوْنْتُ فِي هَذِهِ الْوُجُوهِ ، لَا خَيْرَ فِيهَا لِمَنْ تَعَقَّبَ الْأَمْرَ
وَتَدَبَّرَهُ ، إِلَّا مَا صَنَعْنَاهُ مَعَ حَكْمِهِ* الْأَقْدَارُ الَّتِي لَا تَجْرِي عَلَى إِهْمَالٍ ! فَخَرَجْنَا (ب) ٦٢
إِلَى الرَّجُلِ ، كَأَنَّمَا نُسَاقُ إِلَى الْمَوْتِ ، لَا نَذَرُ مَا نَتَلَقَى ، إِلَّا كَالْخَاطِرِ
بِنَفْسِهِ ، مَتَوَكِّلِينَ عَلَى الْقَدَرِ .

٧٤ - تسليم الأمير عبد الله ونهب أمواله

وَلَمَّا لَقِينَاهُ ، سُرَّ بِذَلِكَ ، وَأَقْسَمَ لَنَا عَلَى الْأَمَانِ فِي أَنْفُسِنَا وَأَهْلِنَا ، وَلَنَا
مِنَهُ الْمُرَاعَاةَ وَالْكَرَامَةَ مَا بَقِيَ . ثُمَّ أَشَارَ عَلَى قُرُورٍ بِالْتَرَقِيبِ عَلَيْنَا ، إِلَى أَنْ
يُثَبِّتَ خَبَرَنَا ، وَيَقِفَ عَلَى أَمْوَالِنَا .

فَاتَّعَدْتُ [قَبْلَ ذَلِكَ] أَهْلَ دَوْلَتِنَا ، يَطْلُبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يُودَعَ
عِنْدَهُ شَيْئًا ؛ فَلَمْ تَفْعَلْ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « هَؤُلَاءِ يَطْلُبُونَ مَا يَتَزَوَّدُونَ
بِهِ ؛ وَلَيْسَ ذَلِكَ شَفَقَةً مِنْهُمْ عَلَيَّ ! وَلَيْسَ يُخْلِي مِنْ دَفْعِ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ مِنْ
وَجْهَيْنِ : إِمَّا فَاسِقٌ يَسْتَأْثِرُ بِهِ دُونِي ، فَتَكُونُ حَسْرَتُهَا فِي نَفْسِي ، وَلَا تَقْبَلُ
بِهَا عَنْ وَجْهِ ؛ وَإِمَّا مُتَبَشِّلٌ بِبَعْضِهِ ، يَحْمِلُهُ إِلَى الْأَمْرِ لِيَتَهَيَّأَ بِهِ مَا يَبْقَى
لَهُ ؛ وَعِنْدَ ذَلِكَ تَفْتَضِحُ عِنْدَهُ ، وَلَا يَقْبَلُ لِي صَرْفًا وَلَا عَدْلًا ؛ وَرُبَّمَا
يُحْنِقُ عَلَيَّ ؛ فَيُؤَذِّبُنِي بَعْدَ الْأَمَانِ ، مَعَ حُبِّهِمْ فِي الْمَالِ . وَإِنَّهُ لَا شَيْءَ نَرْجُو
بِهِ بَعْدَ اللَّهِ التَّقَرُّبَ إِلَيْهِمْ إِلَّا بِالْأَمْوَالِ ؛ وَلَوْ أَمَكْنِي أَنْ أَزِيدَ فِيهَا ، فَضْلًا
أَعْنِيَهُمْ ! وَأَنَا لَا أَبْتَغِي إِلَّا الْعَيْشَ خَاصَّةً نَفْسِي وَأَهْلِي . وَقَدْ خَفَّفَ اللَّهُ
عَنِّي يِقْلَةَ الْعِيَالِ ؛ وَلَا خَيْرَ فِي الْفَرَرِ بِمَالٍ لَا أَدْرِي إِنْ يَبْقَى مَعِي ، مَعَ
اِخْتِلَاطِهِ وَكَثْرَةِ شُبُهَاتِهِ ؛ وَكَثْرَةَ الْمَالِ إِنَّمَا يَحْتَاجُ لِلْمَمْلُوكَةِ وَالْأَجْنَادِ . فَالآنَ
٢٠ قَدْ أَزَاحَ اللَّهُ ذَلِكَ عَنِّي ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا طَلَبُ السَّلَامَةِ بِخُشَاةِ النَّفْسِ ،

وهي غنيمة في مثل هذا الوقت الحاد !

- فخرّجتُ إلى الرجل بعد ثقاف القصر ؛ ولا خوفَ عليه ذلك الوقت ،
إذ كان الناسُ بينَ يأسٍ وطمعٍ في الرجوع ؛ فلا جرأةَ من أحدٍ في
اعتراض شيء من ساقَتينا . ولَمَّا أُتِرِلْتُ بتولّي قُرُور الأمر ، جعل الحرص
على الخِباء ، وأمر بطَرْد الداخل والخارج ؛ وحِيلَ بَيْنَتنا وَبَيْنَ عَيْسِدنا
وصنائعنا : كلُّهُ يُفْتَش عليه وَيُبْحَث على مَالِدِيهِ من مالٍ كسبه في ولايَتينا .
ثمَّ أَنَا الفقيهُ ابنُ سَعْدُون من عند أمير المسلمين ، يقول : « أَخْضِر
الأموال والأزِمّة بها ! فإنَّ مؤمِلًا قد أخبره أَنَّهُ ليس عندك دِرْهَمٌ إِلَّا بِزَمَامٍ
وَذِكْرٍ . » فقلتُ له : « نَعَمْ ! كانَ * ذلك ، قد تَرَكْتُهُ في داري ؛ ٦٣ (١)
١٠ فإنَّ أبلحَ لي السَّيْرَ بنفسِي لاستخراج الكلِّ ؛ وإِلَّا ، فهذه أُمِّي ، تتولّى
ذلك مع ثِقَاتِهِ حتّى لا يُفادِرَكُم منه خيطٌ ! »

- وكان ، عند خروجي ، قد وقع في نفسِي من خوف الثقاف ما خَشِيتُ
الفرقةَ منها إن تَرَكْتُهَا في القصر ؛ فخرّجتُ معها ، ولم أَلْتَمِثْ إلى ماسِوَاهَا .
وَأَنَا مع ذلك في حيرةٍ لا أَدْرِي لِمَا يَصِيرُ أُمْرِي ؛ قد أَشْرَبَ قلبي من الخوف
والجزع مالم أَعْهَدُهُ قَطُّ ، ولا كان فيه عزاء . فإنَّ الأمور التي يَنْبَغِي لها
الاستنباتُ والصبرُ ما كان من أَمْرٍ دون أَمْرٍ ؛ وإنَّ جُلَّ حَظَبٍ ، يُرْجَى
في غيره الراحة ؛ وبعضُ الشرِّ أَهْوَنُ من بعضٍ ؛ وإنَّمَا هذه النصبَةُ لم
يَكُنْ لها عزاء ولا استراحة إلى أَمَلٍ ورجاءٍ لِيُسْرٍ ، إِلَّا بِمَحْتَسَبٍ .
فأَذْهَلَنِي ذلك عن كلِّ مَالِي فيه صلاحٍ من تَقْدِمة النَّظَرِ في مالٍ أو غيره ؛
٢٠ بل ، كانت نفسِي أَكْثَرَ على ، لم تعمل حساباً مَنْ يَعِيشُ ، لَا سِيَّما من
لم تَجَرَّ عليه قبل ذلك مِحْنَةٌ ، ولا أَكْرَبَهُ الدهرُ بِرِزْيَةٍ . فجاءتْ بُحْلَةٌ ،

أُبْهِتَتْ وَخَانَتْ الْقِيَاسَ ، وَحَادَتْ عَنْ سَبِيلِ الْمَعُودِ .
 وَقَدْ كَانَ أُرْسِلَ إِلَى قَرُورٍ يَطْلُبُ خَطًّا يَدَى بِإِسْلَامِ الْمَدِينَةِ وَإِخْرَاجِ
 مَنْ لِي فِيهَا مِنَ الْحَشَمِ . فَبَادَرْتُ عَلَى الْمَقَامِ ، إِذِ الْاِلْتِوَاهِ عَنْ ذَلِكَ مِمَّا
 لَا يَنْفَعُ ؛ وَلَوْ فَضَلْتُ ، لَكَانَ ذَلِكَ زِيَادَةً فِي الْمَوَانِ ، وَلَمْ يَفِدْ شَيْئًا ، وَأَنَا
 ٥ قَدْ حَصَلْتُ فِي الْقَبْضَةِ .

وَكُنْتُ أُخْرِجْتُ مَعَ نَفْسِي أَسْبَابًا مِنْهَا سَقَطُ ذَهَبٍ فِيهِ عَشْرَةُ عُقُودٍ
 مِنْ أَنْفَسِ الْجَوْهَرِ ، وَذَهَبًا مَبْلَقُهُ سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ مُرَابِطِيَّةٍ ، وَخَوَاتِمَ ؛
 وَتَأَوَّلْتُ فِي إِخْرَاجِهَا مَعِيَ أَنْ قُلْتُ : « إِنْ كَانَ الْأَمْرُ يَسْدُو مِنَ الْأَمِيرِ
 بِتَقَاتِي ، فَهَذِهِ حَاصِلَةُ لَا تَنْفَعُ ، تُجَمَّلُ كَسِوَاهَا ؛ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ، وَرُبَّمَا تَأَخَّرَ
 ١٠ فِي الْأَمْرِ بَعْدَ قَضَاءِ غَزْوَتِهِ ، دَارَيْتُ مِنْهَا وَأَعَدَدْتُهَا لِمَا يَنْبُو عَلَى الْعَشْكَرِ
 وَمُتَاحِفَةِ الْمُرَابِطِينَ . »

وَلَمْ يُتْرَكْ لَنَا خَادِمٌ إِلَّا حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا . وَقُتِّشَ عَلَيْهِمْ أَلَّا تَكُنْ
 فِي أَوْسَاطِهِمْ خَيْثَةً . وَجَمَلُ قَرُورٍ يَقُولُ لِي وَلَأُمِّي : « اكشِفَا لِي عَنْ
 نِيَابِكَا . » قَدْ أَخْبَرَ السُّلْطَانُ أَنَّ خَيْرَةَ الْجَوْهَرِ عَلَى أَوْسَاطِكُمَا . « فَتَبَرَّأْنَا (ب)
 ١٥ لَهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَنَزَعْتُ لَهُ عَنِ الثِّيَابِ . ثُمَّ جَعَلُ يَنْفِضُ الْخَدَّاتِ عَنْ
 الصُّوفِ ، وَيَفْتَشُ بَيْنَهَا ، وَيُقَلِّبُ التَّوَايِيتِ عَلَى وَجُوهِهَا ، وَيَحُلُّ طَيَّ
 الثِّيَابِ ، فَتَشَا لَمْ يُعْهَدْ مِثْلُهُ قَطُّ . ثُمَّ أَمَرَ بِحُفْرِ الْأَرْضِ الَّتِي عَلَيْهَا الْخِلْبَاءُ ،
 خَوْفًا مِنْ أَنْ نُدْفَنَ فِيهِ شَيْئًا ؛ وَهُوَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ يَقُولُ لِي : « إِنْ سَلَمْتَ
 بِرُوحِكَ ، فَمَا فِي الْأَرْضِ أَوْجَهَ مِنْكَ ! »

٢٠ وَصَارَ الْكُلُّ فَيْثًا مِنْ خَادِمٍ وَغُلَامٍ ، مَا خَلَانِي وَأُمِّي . وَكُنْتُ وَقْتُ
 خُرُوجِي قَدْ أُخْرِجْتُ مَعَ أُمِّي صَبِيَّةً طَمَعْتُ أَنْ أَجُوبَهَا ، فَلَا يُؤَبِّهَ لَهَا ،

أَلَّا أَفَرِدَ دُونَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ ، لَتَكُونَ لِي عُدَّةٌ لَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ ؛ فَأَتَى قَرُورَ ، وَأَلْقَى يَدَهُ فِيهَا ، وَأَخْرَجَهَا ، وَقَشَّ ثِيَابَهَا عَلَى الْقَامِ ، وَتَحَمَّلَهَا . ثُمَّ أَتَى إِلَى أَثَاثِ الْخِجَابِ كُلَّهُ وَقَشَّهَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، فَكُلُّ ثَوْبٍ أَوْ حَاجَةٍ اسْتَحْسَنَهَا ، أَخَذَهَا لِنَفْسِهِ . وَكَادَ أَنْ يُعَرِّبَنِي مِنَ الْكُلِّ . وَأَصَابَ الدَّنَانِيرَ الْمَذْكُورَةَ ؛

٥ قَالَ لِي : « مَا أَرَدْتُ بِإِخْرَاجِهَا ؟ » قُلْتُ : « لِأَتَأَخِّفَ بِهَا الْأَمِيرَ ! » فَهَدَدَنِي وَأَدْخَلَنِي نَحْتٍ وَعِيدٍ ؛ ثُمَّ أَمَرَ بِاتِّقَالِهَا عَلَى الْقَامِ ، وَأَخَذَ السَّقَطَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْجَوْهَرِ وَالْخَوَانِمِ : هُوَ مِنْ جِهَةٍ ، وَرَبِيبُهُ مِنْ أُخْرَى ؛ وَأَنَا فِي هَذَا كُلِّهِ لَا أَرْجُو شَيْئًا إِلَّا السَّلَامَةَ فِي الرُّوحِ ، وَلَمْ نَشْكُ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَكُونُ بَعْدَ هَذَا إِلَّا الْقَتْلُ .

١٠ ثُمَّ إِنَّهُ أَمَرَ وَالِدَتِي بِالطَّلُوعِ إِلَى الْقَصْرِ لَاسْتِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ . فَتَكَدَّرْتُ لَذَلِكَ أَيَّامًا ، مَا مِنْهَا يَوْمٌ إِلَّا وَنَظُنُّ أَنَّهُ لَا تَرْجِعُ إِلَيَّ ، حَتَّى دَفَعْتُ إِلَيْهِمُ الْكُلَّ بِالْأَزِمَةِ ، لَمْ يُغَادِرْهُمْ مِنْ ذَلِكَ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ ، حَتَّى أَنَّ الْحَاجَةَ الْيَسِيرَةَ رُبَّمَا كَانَتْ عِنْدِي فِي الْخِجَابِ ، فَيُسَدَّدُ فِيهَا عَلَى الْوَالِدَةِ ، فَتَأْتِي عَنْهَا وَتَحْمِلُهَا إِلَيْهِمْ . وَلَمْ يَتَّبِعْنِي لِي خِلَافُ أَهْلِ بَلَدِي ، إِلَّا وَالْأُمُرُ قَدْ فَاتَ ، مِنْ النَّظَرِ

١٥ فِي الزَّمَامِ أَوْ غَيْرِهِ . وَلَمْ يَتَقَدَّمْنِي أَحَدٌ إِلَى مِثْلِ هَذَا ، فَنَأْخُذَ حِذْرِي وَنَتَأَقَّبَ لَهُ ؛ وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، إِذَا أُعْطِيَ ، فَلَا مَانِعَ ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَتَهَيَّأُ ، مَعَ مَا سَلِبَ وَضَاعَ ، تُبَوِّتُ وَلَا بَقَاءَ ، وَلَوْ رُفِعَ إِلَى أَعْنَانِ السَّمَاءِ .

فَلَمَّا تَقَفَّصُوا* الْجَمِيعَ ، وَتَبَيَّنَ الْحَقُّ ، جَاءَنِي قَرُورُ بِوَصِيَّةِ السُّلْطَانِ ، مَعَ ٦٤ (١)

أَبِي بَكْرٍ بْنِ مُسَكِّنَ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ عَلَى مُنْتَقِمٍ شَانِيءٍ ، وَهُوَ يَقُولُ لِي :

٢٠ « الْأَمِيرُ يُنْهِي إِلَيْكَ أَنْ لَا يَبْقَى لَكَ عِنْدَ أَحَدٍ وَدِيعَةٌ ؛ وَإِنَّ مَا فِي قَصْرِكَ

قَدْ تَنَزَّلَ عَنْهُ بِالْأَزِمَةِ ؛ وَمَا فِي خِجَانِكَ قَدْ صَارَ إِلَيْنَا وَقَشَّناهُ ؛ وَبَقِيَ لَنَا

أَنْ تَذَرِي مَالَكَ مَوْدُوعًا ؛ وَإِذَا ، لَا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، إِنْ خَرَجَ
قَبْلَكَ دِرْهَمٌ عِنْدَ أَحَدٍ ؛ وَلَا تَكُونِ عُقْبَكَ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَكَ فِي
الصَّخْرَاءِ بِحَيْثُ لَا تَرْمَحُ ذَلِكَ الْمَالَ ، وَيَبْقَى عِنْدَ مَنْ أَوْدَعْتَهُ . « فَرَجَعْتُ
إِلَى نَفْسِي أَنْ نَعْلَمَ لَهَا عِنْدَ أَحَدٍ دِرْهَمًا وَدِيعَةً ؛ فَلَمْ أَجِدْ . وَأَقْسَمْتُ
٥ لَهُ عَلَى حَقِّي .

وَرَجَعْتُ إِلَى الْوَالِدَةِ ، أَعْظَمُهَا ، وَأَقُولُ لَهَا : « أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ ! أَلَا
مَا أَشَقَّقْتَ عَلَيَّ ؟ قُرْبًا قَدْ أَخْرَجَنِي شَيْئًا لَا أَعْلَمُهُ ؛ فَيُظْهِرُ بَعْدِي ،
وَيَكُونُ فِيهِ هَلَاقِي ، وَهَلَاقُكَ ! وَالْدُّنْيَا أَقْلٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ! وَالْقَوْمُ ، كَمَا
تَرَيْنَ ، مُتَعَلِّقُونَ بِشَعْرَةٍ ، يَطْلُقُونَ مَعَنَا أَرْقَى سَبَبٍ إِنْ يَأْتِيكَ أَنْ تَشْتَقِيَ بِي !
١٠ وَإِذَا تَبَرَّأْنَا لَهُ ، لَا يُمْكِنُ لَهُ تَضْيِيعُنَا . وَلَيْسَ يُدْخِرُ الْمَالَ إِلَّا لثَلَاثٍ :

سُلْطَانٌ يَجُورُ ، أَوْ فِتْنَةٌ تَدُومُ ، أَوْ عُمرٌ يَطُولُ . وَنَحْنُ فِي نَفَرٍ يَسِيرُ ! «
فَلَمَّا تَمَيَّسْتُ ذَلِكَ ، بَكَتْ وَقَالَتْ : « نَحْشَى أَنْ يَبْقَى قُرْعَاءُ ! وَلِلْوُتْ
أَهْوَنُ مِنَ الْقُرْعَاءِ ! » فَسَهَّلْتُ عَلَيْهَا الْأَمْرَ ؛ وَقَالَتْ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ
مَنْ خَلَقَ ! » فَكَتَبْتُ تَسْمِيَةً بِمَا أَوْدَعْتُ مِنْ مَتَاعِهَا ، تِلْكَ اللَّيْلَةَ الَّتِي
حَانَ خُرُوجِي فِي غَدِهَا : ذَكَرْتُ أَنْ لَهَا عِنْدَ لَذَّةِ خَادِمِ ابْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ
١٥ كَاتِبِنَا سَيِّبَاتٍ لِبَعْضِ جَوَارِيهَا ، وَلَهَا عِنْدَ ابْنِ الزَّيْتُونِيِّ الْقَرْوِيُّ أَرْبَعَةٌ

آلَافٌ مِثْقَالٌ ، وَحَلِيًّا أَرْسَلْتُ فِيهِ عَلَى الْمَقَامِ : نَحْوُ خَمْسَةِ عَشَرَ عِقْدًا ؛
فَأَمَّا الْحَلِيُّ ، فَأَتَاهَا وَأَعْطَتْهُ لِقَرُورٍ ، وَلَمْ تَوْخَرْ بِهِ سَاعَةً ؛ وَأَمَّا الذَّهَبُ ،
فَأَنهَا ، لَمَّا جَلَبَتْهُ مِنْ ابْنِ الزَّيْتُونِيِّ ، بَادَرَ بِهِ إِلَى السُّلْطَانِ وَتَحَمَّلَهُ لِنَفْسِهِ .

٢٠ وَكَذَلِكَ قَعَلْتُ خَادِمُ ابْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ ، وَأَتَتْ إِلَى قَرُورٍ بِتِلْكَ الْأَسْبَابِ * ؛ ٦٤ (ب)
فَوَقَعَ إِلَيْنَا الْخَبْرُ ، وَزَادَنَا ذَلِكَ هَمًّا أَنْ بَدَرُوا بِهِ لِلشَّرْطِ الَّتِي اشْتَرَطَ عَلَيْنَا ؛

فأخذتُ على المقام تلك التسمية ، وأرسلتها إلى قرُور ، قبل أن يبدأ بنا ؛
 فقال : « قد أخرجوه لنا . فإياكم أن يبقى لكم شيء عند غيرهم ! »
 فاستفهمتُ والدتي ثانية ، وبكيتُ لها ؛ فقالت : « مالي شيء عند أحدٍ
 أكثر ! » فأخذنا المصاحف ، وحلقنا فيها لقرُور أنه ما لنا شيء أكثر ،
 لا مؤدع ولا مرفوع . « فأعلم السلطان بما أقسمنا به ، وجعل مع هذا
 يبحث ويستقصي . فما وجد لنا أكثر كما قالت الوالدة .

ولما لم يجز شيئاً ، أتانا قرُور ثانية ، وقال : « أنه قد ظهر أنه
 لا وديعة لكم أكثر . ولكن آياك أن يكون لكم مال مدفون ! »
 فقلتُ : « ما علمنا قطُ بدفنٍ ، ولا حسبنا هذا الحساب ؛ ولا كان الدفنُ
 شأننا ! وغيرُ متعذرٍ على الأمير أن يحفر القصر كله ، حتى يرى ! »
 فقال لي : « إياك بالمنكب ! » فقلت : « مالي بالمنكب إلا شيء من
 الأثاث عددته لنزولي فيها : جميع ذلك يزمام بخطّ يدي . يُرسل فيه
 الأمير ويأخذ به ! » فقال لي : « هاتِ خطّ يدك بإخلاء المنكب ! »
 فبادرتُ على المقام . وأصاب الزمام بالمنكب على الصفة التي وصفتُ .
 وكان الجندُ بها قد ترَبَّصوا ، وقامت الرعيّة ؛ فطلب خطّ يدي بالإخلاء .

ولما صبحَ عنده براءتنا من جميع الأشياء ، أتانا قرُور لتحصيل ما بقي . والعجبُ
 منه في تلك المدة أنه أتاني بسيفٍ كبير ، وقال لي : « أقرأه ! فإن فيه جميع
 الأعلام التي رأى الناسُ لنا بملك الأندلس ، وفيه عباراتها ! » ولا أدري ما أقرأ ،
 [ولا أسمع] ، أكثر من قوله لي بهذا اللفظ : « ليس كذا هو ؟ نجيت الأموال ،
 لا [بقي لك] منها شيء ! » ولما وقف على جميع ما في الخلاء من وطاء وثياب ،

رفع بذلك كتاباً إلى الأمير ، وأعاد الفتح ؛ يجز غير ما رآه* أولاً . ٦٥ (١)

٧٥ - نفي الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى

فلما خبر بما في التسمية أنه لا غنى للإنسان عنه ، سوَّغهُ لنا مع ثلاثمائة دينارٍ وثلاث خُدَمٍ ، أمرَ لنا بها ، وأَعَارَنا دَوَابَّ^(١) خمسةً لنقلان الأثاث كله ، وأمرنا بالنهوض إلى الجزيرة الخضراء ، وقال :
 « تَنْتَظِرُوا بها السلطانَ حتى يَرِدَ عليكم . » وأعطانا من المُرابطين مُشَيِّعينَ مَنْ يُؤَيِّسُنَا ويتكفلُ أمورَنا . فشكرنا له ذلك ، وتحرَّكنا على المقام ، إذ كان الحفرُ منه في ذلك شديداً .

وَكُنَّا طولَ طريقنا جازعين ، لا ندرى ما يذهب إليه بنا ، ولا ما الإشارة فينا . ولقد كنتُ أرى المُرابطين ينزلون بِمَنْزِلٍ ، أو يَحْتَلُونَ في موضعٍ ، فأقول : « إِنَّ ذلك لشيءٌ أُمِرُوا به ! » فكنتُ طريق ذلك تحت جزعٍ وهلعٍ ، أسألُ الله أن يُكَفِّرَ بها السيئات ، يجعلها آخِرَ مصائبنا بمرَّته ؛ إلى أن وَصَلْنَا الجزيرة .

فأرسلنا إلى سبَّته ؛ ودَخَلْنَا البَحْرَ في يومٍ عاصِفٍ ، أدركتنا فيه أهوالٌ لم نَكُنْ نَسلم منها إلَّا بالأجل الذي لم يحضر ؛ حتى خرَّجنا إلى سبَّته ، بعد أن قيل لنا : « فيها تنتظروا الأمير ! » كما قيل عن الجزيرة . فزادنا ذلك قلقاً .

ثمَّ نُقِلْنَا إلى مَكْنَسَةِ الزَيْتُون . وتلقانا الأميرُ سَيرُ ، وأنسنا ، وأخبرنا أن مُقَامنا عنده إلى أن يَرِدَ السلطانُ من الأندلس . وأرسلَ إلينا مائةَ دينار . وعند حُلُولنا بها ، أبقنا بالمقام فيها . وبقيتنا على تلك الحال ، قد

(١) أصل : دواباً .

فَقَدَ مَا كَانَ بِأَيْدِينَا ، وَأَحْوَجْنَا إِلَى بَيْعِ ثِيَابِنَا الَّتِي مُرِكَتْ لَنَا بَعْدَ أَنْ
اسْتَحْوَذَ قَرُورٌ وَحَاسِيَّتُهُ عَلَى أَكْثَرِهَا (فَكُلُّ يَدٍ وَمَا نَهَبَتْ !) ، لَمْ
يَتْرَكُوا لَنَا إِلَّا مَا لَا نَنْظُرَ لَهُ عَلَى نِزَارَةِ مَا أُبْقِيَ . وَالسُّلْطَانُ — أَيْدُهُ اللَّهُ ! —
غَافِلٌ عَنْ ذَلِكَ ، لَمْ يُمْكِنَ الشُّكْوَى إِلَيْهِ ، إِذْ كَانَ قَرُورٌ وَاسِطَةً ، وَمَا كُنْتُ
أُنَشِّقُ مِنْ ذَلِكَ أَكْثَرَ . ٥

وَمِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ أَنَّهُ ، عِنْدَ حُلُولِي بِمَكْنَسَةِ ، [كَتَبَ إِلَيَّ] يَقُولُ
لِي : « أَخْبِرْنِي عَنِ الْخَاتَمِ الَّذِي خَرَجْتَ بِهِ ! » [وَقَدْ كُنْتُ] أَخْرَجْتُهُ
مِنْ إصْبَعِي وَبَعْتُهُ بِعَشْرَةِ دِينَارٍ ؛ فَرَأَجَعْتُهُ نَعْلَهُ* بِحَاجَتِي إِلَى تَمَنُّهِ . وَإِنَّمَا ٦٥ (ب)
أَرَادَ أَخْذَهُ لَثَلًا يُبْقَى لَنَا شَيْئًا ، وَيَقْصَى الْجَمِيعُ ؛ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ
لِي غَيْرُهُ . ١٠

ثُمَّ إِنَّهُ وَافَانِي مِنْ عِنْدِ السُّلْطَانِ ثَلَاثُمِائَةِ دِينَارٍ أُخْرَى ، وَأَنَا بِمَكْنَسَةِ ؛
وَخَاطَبَنِي بِكِتَابٍ يَمْدُنِي بِكُلِّ جَمِيلٍ ، وَيَقُولُ لِي : « لَا أُنْسَاكَ مَا بَقِيَْتَ »
فَسَرَّنِي ذَلِكَ — أَحْسَنَ اللَّهُ جَزَاءَهُ ! — ؛ فَلَقَدْ كَانَ أَرْفَقَ بِي بَعْدَ اللَّهِ
مِنْ كُلِّ أَحَدٍ . وَأَعْلَمَنِي أَنَّهُ ، إِذَا وَرَدَ مَرْثُوكُش^(١) ، أَكُونُ مَعَهُ حَيْثُ
مَا كَانَ ، إِكْرَامًا لَنَا وَإِنْشَارًا . فَمَلِمْتُ أَنِّي مُنْتَقِلٌ عَنْ مَكْنَسَةِ ، إِلَّا أَنْ
الرَّوْعَ كَانَ أَفْتَرًا ، إِذْ لَمْ يُمْكِنَ أَنْ تُؤَخَّرَ الْعُقُوبَةُ إِلَى ذَلِكَ الْأَمَدِ . وَقَرُورٌ ،
مَعَ هَذَا ، لَا يَدْعُ طَلَبِي عِنْدَ السُّلْطَانِ ، عَلَى إِحْسَانِي إِلَيْهِ ، جِبِلَّةٌ قَدْ جَبَلَهُ اللَّهُ
عَلَى بُغْضِي ، مَعَ قَلْبٍ رَحِمْتَهُ ، وَقِسَاوَةٍ قَلْبِهِ ، وَدَنَاءَتِهِ وَلَوْ مِهِ .

(١) راجع أعلاه ص ١٢٥ .

٧٦ - عزل الأمير تميم صاحب مالقة وأخى عبد الله. نفيه

وَبَلَّغْنَا فِي طَرِيقِنَا ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ ثِقَافِ أَخِينَا تَمِيمٍ بَعْدَنَا ، وَأَنَّهُ ،
لَمَّا كَانَ فِي مَدَّةِ كَوْنِنَا بِغَرْنَاطَةِ إِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ ، وَتَحَنُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ
مُرَقَّبِينَ فِي الْخَبَاءِ ، كَانَ تَمِيمٌ الْمَذْكُورُ يَزُورُنَا ، وَيَتَكَدَّرُ عَلَيْنَا لِلَّذِي يَلْزِمُ
٥ مِنْ حُبِّ الْقَرَابَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ . وَكَانَ قَرُورٌ ، فِي هَذَا كُلِّهِ ، يَرْمِقُهُ بِبَصَرِهِ ،
وَيَمْتَقِدُ فِي نَفْسِهِ لِذَلِكَ شَرًّا ؛ وَصَوَّرَ عِنْدَ السُّلْطَانِ أَنَّ مَا لَا أَخْرَجْنَاهُ مِنَ الْمَالِ
مَوْدُوعٌ عِنْدَهُ ، لَيْسَلِمَ لَنَا بِسَلَامَتِهِ ، مَعَ مَا زِيدَ فِيهِ مِنَ الطَّلَبِ ، أَنَّ قِيلَ
لِلسُّلْطَانِ : « تَقَقَّتْ صَاحِبَ غَرْنَاطَةِ ؛ وَأَخُوهُ مِنْهُ ! وَإِنْ تَرَكْتَهُ يَنْصَرِفُ
إِلَى بَلَدِهِ ، طَلَبَكَ بِالنَّارِ ، وَأَفْسَدَ عَلَيْكَ مَا تَرْجُو صِلَاحَهُ ، مَعَ شَرِّهِ وَحَدَّثَهُ !
١٠ فَهُوَ بِذَلِكَ مَرْمُومٌ مَعْرُوفٌ ! فَعَاجِلٌ بِثِقَافِهِ ، يُصْنِفُ لَكَ مَا تَوْمَلُ ! »

وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ ، عَلَى مَا أَعْلَمُنِي أَخِي الْمَذْكُورُ ، قَدْ أَنْسَهُ السُّلْطَانُ ،
وَوَعَدَهُ بِصَرْفِ بِلَادِهِ إِلَيْهِ الَّتِي صَارَتْ إِلَيَّ ، وَقَالَ لَهُ : « لَسْتُ مِنْ
أَخِيكَ [بِالْمَسْئُولِ ؛ وَأَنْتَ أَظْهَرْتَ لِي] الطَّاعَةِ ، وَأَجَلْتَ الْمُعَاشِرَةَ ،
وَأَنَّكَ أَوَّلُ مَنْ ضَرَبَ الدَّرَاهِمَ [الْمُرَابِطِيَّةَ] . وَالْآنَ نَسْتَحْمِدُ عَاقِبَةَ رَأْيِكَ ،
١٥ وَنَجْعَلُ لَكَ بِتِلْكَ الْمَزِيَّةِ عَلَى أَقْرَانِكَ ! » فَطَمَعَ الصَّبِيُّ بِذَلِكَ ، وَشَرِيهَ إِلَيْهِ :
كُلُّ ذَلِكَ خِذْلَانٌ [اغْتَرَّ بِهِ] * مُلُوكُ الْأَنْدَلُسِ ، وَأَسْعَدُ مِنْ أَجَلِهِ الْمُرَابِطُونَ ؛ ٦٦ (١)
فَعَمِيَّتِ الْبَصَائِرُ ، وَقَوِيَّتِ الشَّهَوَاتُ ، وَامْتَدَّتِ الْأَمَالُ بِحَيْثُ يَنْتَبِغِي لَهَا
أَنْ تَقْصُرَ .

فَلَمَّا هَمَّ بِهِ ، أَخَذَ فُجَاءَةً لَثْلَا يَشْمُرُ ، فَيَغِيبُ الْمَالُ الَّتِي أَتَمَّهُ بِهِ ،
٢٠ وَيَنْفِرُ . وَنَالَ مِنْ قَرُورٍ هَوَانًا كَثِيرًا ؛ وَلَمْ يَتْرُكْ لَهُ سَقَطًا ؛ وَبِمَتِ أَسْبَابُهُ

في موضع محَلَّتِه : قِيمَ لَهَا قَمَمٌ سُوْقٌ . وألقى في الحديد ، وأمرَ به إلى
السُّوس . ولَمَّا كَانَ طَرِيقُهُ عَلَى مِكنَاسَةٍ ، لَقَيْنَاهُ ؛ فَأَخْبَرَ بِهِوْلَ مَا قَاسَى ،
وَبَصُرْنَا بِهِ ، وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ قَدْ شَقِيَ بِالْكَئِيلِ لِعِظَمِهِ ، لَا يَقْدِرُ أَنْ
يَتَحَرَّكَ بِهِ . فَأَوْجَبَ ذَلِكَ مَا وُصِمَ بِهِ مِنَ الشَّرِّ ؛ وَأَنَّ أَهْلَ مَالَقَةٍ رَفَعُوا إِلَيْهِ
هـ حِينَئِذٍ أَفْصَالًا قَبِيحَةً ، وَأَبَاذِي سَيِّئَةً أَسَدَاهَا إِلَيْهِمْ ، عَلَى مَا ذُكِرَ ؛ فَاتَّفَقَتْ
الْأَسْبَابُ . فَلَمْ يُرِدِ الْأَمِيرُ أَخْذَهُ إِلَّا بَيِّنَةً ؛ إِلَى أَنْ وَصَلَ السُّوسَ ،
وَوَصَّى بِهِ أَمِيرُ السُّلَاسِينَ إِلَى بَزْلَفَ ، وَبَالَغَ فِي إِكْرَامِهِ . وَكَانَ مَعَهُ فِي عَافِيَةٍ
وَرَعْدٍ مِنَ الْمَيْشِ . وَفَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَى وُلاَةِ السُّوسِ بَعْدَ بَزْلَفَ .

الفصل الحادي عشر

عزل بقية ملوك الطوائف ومصيرهم بعد ذلك

٧٧ — موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة

وَحَانَ انصرافُ أمير المسلمين إلى بلاده بالعدوة ، بعد أن أكمل ما شاءه من أمر بني عبّاد وصاحب المرية :

وَنَحْنُ ذَاكِرُونَ منها ما بَلَفْنَا منها ، بِمَا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ ، لَا بِتَخْلِيطِ النَّاسِ ؛ وَنَخْتَصِرُ مِنَ الْوَصْفِ مَا يُغْنِي عَنْهُ الْإِكْثَارُ : فَإِنَّهَا أُمُورٌ لَمْ نُشَاهِدْهَا ، فَتُخْبِرُ عَنْ يَقِينٍ وَإِطْنَابٍ ؛ وَلَا غَابَتْ عَنَّا كُلُّ الْغِيَابِ ، فَتَجْهَلُ مَصْدَرَهَا وَمَوْرِدَهَا ، أَنَّ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ أَشْغَلُ وَأَكْرَبُ مِنَ الْغِيَابِ مَا حَدَثَ بَعْدُنَا لِقَلَّةِ اللَّبَالَةِ بِمَا لَا يَغْنِينَا مِنْهَا ، وَلِشُغْلِ خَوَاطِرِنَا بِمَا دَهَيْنَا بِهِ ، عَلَى أَنْ ذِكْرُ مَا سَمِعَ ، وَنَحْنُ قَدْ أَمِينًا مِنَ الْمَوْتِ ، أَيْسَرُ مِنْ ذِكْرِ مَا عَيْنَاهُ ، وَنَحْنُ جَازِعُونَ مِنْهُ . فَحَقٌّ لَنَا أَنْ نَذْهَلَ عَنْ عِلْمِ جَلِيلَتِهِ بِالْمَعَانِيَةِ ، وَعَنْ وَصْفِهِ بَعْدَ الْأَمَانِ ؛ فَإِنَّهُ مِنْ ذِكْرِ الْهَوْلِ ، فَكَأَنَّهُ فِيهِ .

وقد كان أمير المسلمين ، قَبْلَ سَجِيئَتِهِ إِلَى غرناطة ، قد وعد المَعْتَدَ بها . ، وقال له : « أَنَا رَجُلٌ مَغْرِبِيٌّ ؛ وَلَيْسَ قَدَمَتِي أَخْذُ مَالٍ وَلَا

بلاد! * وقد ترى ما رُفِعَ على صاحب غرناطة؛ وتتوقع عليها من الروى. وليس ٦٦(ب) غَرَضِي أَكْثَرَ مِنْ تَخْلِيصِهَا؛ فَإِذَا صَارَتْ فِي يَدِي، وَلَا يُمَكِّنُنِي إِمْسَاكُهَا لِتَيْنِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْعِدْوَةِ، وَضَعْتُهَا عِنْدَ ذَلِكَ فِي يَدِكَ: فَتَكُونُ أَعْلَمَ بِمَا تَصْنَعُ بِهَا، وَأَقْعَدَ لِمَا يُصْلِحُ لِلْمُسْلِمِينَ.»

٥ فَلَمْ يَشْكُ الْمُتَعِدُّ أَنَّ ذَلِكَ مِنْهُ كَائِنْ؛ وَعَمِلَ حَسَابًا آخَرَ أَنْ قَالَ فِي نَفْسِهِ: «إِنْ لَمْ يَتَهَيَّأْ لَهُ أَخْذُهَا بِعَوْدِ صَاحِبِهَا عَنِ الْخُرُوجِ إِلَيْهِ، فَلَيْسَتْ يَمَّا تَوَخَّذُ مِنْ وَقْعَةٍ وَاحِدَةٍ! سَتَنْجَرُ الْحَالُ مِنْ أَجْلِهَا، وَتَشِينُ عَلَيْهَا لِلْحَلَّاتِ، كَمَا صُنِعَ بَلِيَّيْتُ؛ وَتَدْخُلُ الشَّوْءُ، فَيَحْتَاجُ إِلَى الْإِنْصِرَافِ، وَتَبْقَى هَذِهِ الْمَاقِلُ الَّتِي طَاعَتْ لِلْأَمِيرِ أَكُونُ زَعِيمَهَا. وَفِي خِلَالِ مَا يَتْلُوهُ أَمْرُ غَرْنَاطَةَ، اخْتِيجَ إِلَى»، وَكَانَ لِي بِذَلِكَ الصَّوْلَةُ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ، وَلَا نَخْلَى مِنْ يَرْكَتِهَا! «

وكان الحبيبُ إليه أن تَبْقَى عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ، إِذْ لَا يَلِمُ، عِنْدَ حَصُولِهِ عَلَيْهَا، مَا تَكُونُ قَرَعَتُهُ مَعَهُ، كَالَّذِي كَانَ. وَسَكَتَ عَنِّي فِي الْأَمْرِ؛ وَلَمْ يُرَ الْإِنْكَشَافُ بِسَرِّهِ إِلَى رَئِيسِ يَفْشَى عَلَيْهِ، غَيْرَ رُمُوزَاتٍ، إِذْ ذَاكَ لَا تَنْفَعُ. وَلَوْ قَالَ لِي: «امْتَسِكْ!» فَأَنَا أَحْوَطُ عَلَى حَالِي، أَوْ:

١٥ «اخْرُجْ!» لَمْ أُطِعْهُ مَا تَهَمُّهُ؛ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُعْطِنِي تَقْوِيَةً، فَيَفْتَضِحَ عِنْدَ الْمُرَاطِطِ. إِنَّمَا كَانَ صَنَعُ الْأَمِيرِ أَنْ يُطْلِعَ وَيَرَى، عَسَى يَتَهَيَّأَ لَهُ فِي النِّصْبَةِ شَيْءٌ، أَوْ يَسْلَمَ مِنْ مَعْرِتِهِ؛ قَدْ تَنَسَّبَ، وَلَمْ يَجِدْ حَيِّصًا غَيْرَ مَا كَانَ بِسَبِيلِهِ. وَكَذَلِكَ ابْنُ الْأَفْطَسِ مَعَهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ. وَصَاحِبُ الْمَرْيَةِ فِي الْمَرْيَةِ

٢٠ لَمْ يَتَحَرَّكْ: كُلُّ أَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَى مَا يَنْقُضُ مِنْ أَمْرِ غَرْنَاطَةَ؛ قَدْ أَبْهَتَهُمْ أَمْرُهَا. وَأَقْلَقَهُمْ.

ولما بصرتُ تألَّبهم علىَّ مع الأمير، خاطبتُ كلَّ واحدٍ منهم بكتابٍ
أقولُ لهم : « هذا الأمرُ مُنْجَرٌ إليكم ! واليومَ بى وغداً بكم ! » فلم
يمكنهم قراءةُ الكتبِ دونه ، وعرضوها عليه . فحنق علىَّ ؛ وكُتِبَت
الأجوبة بإملائه ، يقولون : « إنَّما تُريد أن تَلْطَخُنَا بأفعالك ،* ونحن قد
٥ برأنا الله منها ! » وما أشبه ذلك من الوعيد والتذنيب : ففعلُ من قد
وَحَلَ ، ولم يقدر على أكثر ما قدَّمنا ذِكرَه ، مع الطمع وعَمَى البصائر ،
كما وَصَفْنَا قَبْلَ :

وكان رُسُلُهُم إلىَّ قَبْلَ ذلك يحضُّونى على الامْتِساك والتَّجَلُّد . وقال
ابن الأَظْطَس : « انا أَعْتَذِرُ عنه ! » ولم يَرَوْا كَتَبَ كِتَابٍ خَوْفاً من
١٠ أن يكون ظهيراً عليهم ، غَيْرَ إهداء ذلك على الأَلْسِنَةِ . ففعلتُ أَنهم قَوْمٌ
قد أسلمونى إلى طاقى ؛ فإن كانت لى ، لم تَدْخُلْ عليهم داخلةً ؛ وإن
كانت علىَّ ، لم يُفْسِدُوا وجُوهَهُم مع الرُّابِط ؛ وحسبُه اجتهادُهم معه
بأنفسهم ورجالهم .

فرايتُ حالى فى هذا كُلِّه تالِفةً ، وَعَلِمْتُ أَنه ، طُولَ مدَّة امتساكى
١٥ لو امْتَسَكْتُ ، لكان سلاطينُ الأندلس أجمع متألِّبين على فِخْقى مع رَعِيَّتى ،
لِما يلزمهم من الطاعة للرُّابِط والطمع ، عسى يحصل لأحدٍ مزيدٌ فى بلاده ،
ولا تمكن لأحدٍ منهم مَعُونتى ولا الاستِفْسَاد من أجلي . ففَعَنْ لَمْ يُعِنْ
بَعْضُنَا بَعْضاً على الرُّومى ! فكَيْفَ على المُسْلِم ، مع حَرْب الكانون وقيام
أهل البيت ! هذا ما لا طاقةَ به لمن عقل ! ولم نَظُنْ نحن أن الأمرَ يفتق
٢٠ إلى هذا كُلِّه ، ولا تُعاجل هذه المُعاجلة . ولو عَلِمْنَا ذلك ، لم يكن أحدٌ
يقدمنى إلى الخروج إليه ، إذ ما سِوَى ذلك على هذه الرتبة لا ينفع .

وإنما طمعنا بما قصصناه قَبْلُ ، وحسبك !
وإنه ، لَمَّا آلت الحالُ إلى ما لم يُجَزَّ على قياس ، خرَجْنَا إليه ، ولم نَلتَوِ ساعة .

٧٨ — حركات المُرابطين على المَرِيَّة

- ٥ ولم يُقدِّم أميرُ المسلمين شيئاً ، وقتَ خروجي إليه ، على إرسال جيشٍ إلى صاحب المَرِيَّة ، قَبْلَ ابنِ عُبَّاد ، إذ كان بتَخْلُفِهِ مَوْسُوماً بالنفاق ، ولأنَّه مُعاقِدِي على ذلك ، وأنَّ تَخْلُفَهُ لا يكون إلا عن اتِّفاق .
- فلم يُحرِّكْ منها مَوْضِعاً إلَّا وأجاب . وتناثرتْ مَعاقِلُهُ أجمع ، حتى بلغ العسكرُ إلى باب المَرِيَّة . وكان الرَّجُلُ — رحمه الله — ساعةً ورود الخبرِ عليه بخرُوجنا ، انطبقَ له ، واعتلَّ لما رأى من هَوْلِهِ وسوءِ عاقِبَتِهِ . وقضى عليه وصول العسكرِ إلى الباب ، وهو على تلك الحال ؛ فأقْرَعَ لها ومات .
- ١٠ * وَوَلِيَ بعده ابنُهُ مُعِزُّ الدولة ، الناهِضُ إلى قَلْعَةِ حَمَّادٍ على ما نَصَفُهُ بعد هذا . ٦٧ (ب) وقد كان ، لَمَّا رأى من طَلَبِ [المُرابط لبلاده] ، قد وجَّهَ إليه ابنه الآخر ، يَعْظُهُ ويُعَلِّمُهُ بوجْهِ الحقِّ فيه ، إذ كان يَنْتَحِلُ قِتْعَهَا ؛ وذلك لما ذَكَرْنَا من قَلَّةِ المَيْزِ بالأحوال ، إذ يَرَى هذه الأمورَ مشتتةً ، ويطمع
- ١٥ إطفاءها بالوعظ ! فساعةً وصوله ، أمر الأميرُ بثقافه على المقام في الحديد . وتحيل أبوه في انطلاقه ، حتى انصرف إليه فارّاً من المُرابط : اختلَّسه من مَوْضِعِهِ رَجُلٌ له شَبَابٌ ، قذف به في البحر حتى سَلِمَ إلى والده .
- وفتر الطَلَبُ على المَرِيَّةِ للشغل بما حدث بأمر ابنِ عُبَّاد ، وأنَّه أوكَّد الأشياء . وإنَّ ابنَ صَمَاحٍ ، لما حضرته الوفاة ، وصَّى ابنه هذا المستخلف ،
- ٢٠ وقال له : « أَمْتَسِكْ في هذه القصبة طولَ مقام ابنِ عُبَّاد في مُلْكِهِ

بِإِشْبِيلِيَّةَ مَا اسْتَطَعْتَ ! فَإِنْ رَأَيْتَ ابْنَ عَبَّادٍ قَدْ خَرَجَ ، فَلَا تَتَرَبَّصْ سَاعَةً وَاحِدَةً ، وَأَنْجُ بِنَفْسِكَ إِلَى الْقَلْعَةِ ، وَأَدْخُلِ الْبَحْرَ بِمَا قُدْرَتُهُ عَلَيْهِ مِنْ ذَخَائِرِكَ ، إِذْ لَا مَطْمَعَ لَكَ فِي الْبَقَاءِ بَعْدَهُ ! »

فَحَفِظَ وَصِيَّةَ أَبِيهِ ؛ وَسَاعَةً مَا انْقَضَى فِي إِشْبِيلِيَّةَ مَا انْقَضَى ، تَخَيَّرَ قِطْعَةً أَشْحَنَ فِيهَا جَمِيعَ مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ مِنْ ذَخَائِرِهِ ، وَكَتَمَ أَمْرَهُ ، وَخَرَجَ بِاسْمِ أَنَّهُ نَاهَضٌ إِلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِهَدِيَّةٍ لِيُهْدِنَا بِذَلِكَ أَهْلَ الْمَرْيَةِ ؛ فَسَرُّوا بِفِعْلِهِ ، وَقَالُوا : « هَذَا هُوَ الصَّوَابُ ، قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ بِكَ مَا حَلَّ بِفَيْرِكَ ! » حَتَّى تَوَسَّطَ الْبَحْرَ ، وَأَعْطَى لِلنَّوَاتِيَّةِ مَالًا جَسِيًّا ، وَأَخْبَرَهُمْ غَرَضَهُ . وَخَرَجَ بِالْجَزَائِرِ ، وَأَكْرَمَهُ صَاحِبُ الْقَلْعَةِ ، وَأَمَّنَهُ فِي ذَخَائِرِهِ ، وَأَكْرَمَ ضِيَاقَتَهُ ، وَخَيْرَهُ حَيْثُ يَحِبُّ السُّكْنَى ؛ فَاخْتَارَ تَدَلُّسَ ، لِأَنَّهَا عَلَى الْبَحْرِ ، وَلِيُغَيِّبَ عَنْ عَيْنِ السُّلْطَانِ ، خَوْفًا مِنَ الطَّلَبِ . وَانْخَمَلَ فِي ذَاتِهِ ، وَأَخَذَ لِنَفْسِهِ بِالْأَرْجَحِ فِي أَكْثَرِ أَخْوَالِهِ .

٧٩ - تَوَثُّرُ الْعَلَاقَاتِ بَيْنَ الْأَمِيرِ الْمُرَابِطِيِّ وَالْمُعْتَمِدِ

وَإِنَّ الْمُعْتَمِدَ بْنَ عَبَّادٍ ، لَمَّا بَصَرَ بِدُخُولِ الْأَمِيرِ غَرْ نَاطَةَ ، وَأَسْتَنْجَزَ وَعْدَهُ ، فَلَمْ يُلْتَفِتْ ، وَرَأَى تَقَافَهَا بِالْمُرَابِطِينَ وَإِخْرَاجَ مِنْ فِيهَا مِنَ الْحَشَمِ وَكُلِّ مَنْ طَمِعَ بِالْبَقَاءِ عَلَى حَالِهِ ، جَزَعَ جَزَعًا شَدِيدًا ، وَخَافَ أَنْ يَثْنَى بِهِ ، إِذْ رَأَى الْأَمِيرُ مَذْهَبَهُ فِي الْبِلَادِ وَاسْتَصْرَاخَهُ . * وَلَمْ يُمْكِنَ لِلْأَمِيرِ أَنْ يَأْخُذَهُ بِغَيْرِ ذَنْبٍ : ٦٨ (ب) فَيَقْبَحُ ذِكْرَهُ . وَأَشَارَ إِلَيْهِ الْمُرَابِطُونَ بِتَقَافِهِ ؛ فَأَبَى حَتَّى يُلَوِّحَ قَبْلَهُ ذَنْبٌ يُوْخِذُ بِهِ . مُنْهُمُ مَنْ ، بَعْدَ أَنْ نَهَضَ وَاتَّبَعَهُ قُرُورٌ يَقُولُ لَهُ : « الْأَمِيرُ يَحْتَاجُ إِلَى تَذْكَارِكَ بَعْضُ الْأُمَرَاءِ » فَأَبَى ، وَمَضَى لَوَجْهَتِهِ ، فَأَرَا بِنَفْسِهِ ؛ وَأَطْوَى الْمَرَا حِلَّ ، حَقَّقَ وَصَلَ قُرْطُبَةَ . وَقَالَ فِي طَرِيقَةِ إِلَى ابْنِ الْأَفْطَسِ : « أَنْجُ

بَنَفْسِكَ ! قَدْ تَرَى مَا حَلَّ بِصَاحِبِ غَرْنَاطَةِ ، وَغَدًا بَنَا !
 نَمَّ إِنَّهُ ، بَعْدَ أَنْ ظَهَرَ لِلْأَمِيرِ نُفُورُهُ ، وَجَّهَ إِلَيْهِ يَأْمُرُهُ بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ ،
 وَيَقُولُ لَهُ : « نُرِيدُ الْاجْتِمَاعَ بِكَ فِيمَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ . » : لِيَقُولَ : « لَا ! »
 فَيَجِدَ السَّبِيلَ ، كَمَا فَعَلَ . فَرَاغَهُ ابْنُ عَبَّادَ : « إِنْ ذَلِكَ كَانَ وَتَقَتَ
 ه كُنْتُ ضَيْفًا ، وَتُرِيدُ الْقَزْوُ ؛ فَلَزِمْتَنِي مَعُونَتُكَ بِنَفْسِي وَجَمِيعِ أَمْوَالِي ! وَالْآنَ
 لِمَا أَنْتَ لِي جَارٌ مِثْلَ بَادِيَسٍ وَحَفِيدِهِ ؛ وَأَنْتَ أَقْدَرُ مِنِّي عَلَى الشَّرِّ بِمَجْنُونِكَ !
 فَلَا يُمْكِنُنِي التَّغْرِيرُ بِنَفْسِي ، عَسَى أَنْتَ تُرِيدُ أَخَذَ بِلَدِي ، إِذَا لَا تَصْغَحُ لَكَ
 غَرْنَاطَةُ إِلَّا بِمَا يُضَافُ إِلَيْهَا مِنَ الْأُنْدُلُسِ ! » فَشَرَطَ عَلَيْهِ أَمِيرُ السَّلْمِينَ أَنْ
 يَلْتَزِمَ الرُّبَاطَ ، وَيَقْطَعَ الْقِبَالَاتَ ؛ وَتَحَامَلًا كَثِيرًا عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ ؛ وَفِي تَرْكِهِ
 ١٠ أَوْ فَعَلَهُ قَطْعُهُ . فَامْتَنَعَ ابْنُ عَبَّادَ جَهْدَهُ ، وَبَنَى عَلَى الشَّرِّ .

وَبَدَأَ [الرُّبَاطُ] بِمُدَاخَلَةِ مَعَاقِلِهِ ؛ فَانْتَشَرَتْ ، كَمَا جَرَى لِنُفُورِهَا ؛ وَقَامَتْ
 عَلَيْهِ الرِّعَايَا بِكُلِّ قَطْرِ . فَأَرْسَلَ إِذْ ذَاكَ إِلَى الرُّومِيِّ ، يَسْتَعِيثُ بِهِ ؛ فَقَعَدَ عَنْهُ ،
 خَيْفَةً مِنَ التَّغْرِيرِ ، وَهِيَ حُجَّةُ أَمِيرِ السَّلْمِينَ عَلَى ابْنِ عَبَّادَ ، أَنْ قَالَ لَهُ :
 « ظَهَرْتُ بِكِتَابِكَ إِلَى الرُّومِيِّ وَإِسَالِكَ عَنْهُ ! » فَقَالَ الْمُعْتَمِدُ : « لَوْ قَتَلْتَهُ
 ١٥ قَبْلَ أَنْ تُوْخَذَ بِلَادِي بَطْرًا وَأَشْرًا ، كُنْتُ أَلَامٌ ! وَأَمَّا بَعْدَ أَنْ رَأَيْتُ
 طَلَبِي فِي الرُّوحِ ، اضْطَرَرْتُ الضَّرُورَةَ إِلَى ذَلِكَ لِلدَّفَاعَةِ ، وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا ! »
 وَهِيَ كَانَتْ عِلَّةَ الْجَمِيعِ ؛ وَبِذَلِكَ هَلَكَ ابْنُ الْأَفْطَسِ ، وَمِنْهُ أُتِيَ .

٨٠ — الِاسْتِيْلَاءُ عَلَى قُرْطُبَةَ وَإِشْبِيلِيَّةِ وَتَقَى ابْنُ عَبَّادَ

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لِلْأَمِيرِ خِلَافُهُ وَقَعُودُهُ عَنْهُ ، شَاوَرَ الْفُقَهَاءَ فِي أَمْرِهِ ؛ فَأَشَارُوا
 ٢٠ عَلَيْهِ بِغَزْوِهِ . فَكَانَ غَزْوُهُ بَعْدَ إِبْلَاءِ عُذْرٍ ؛ وَلِهَذَا مَا آخِرُ ^(١) بِهِ لِيُيَهِّكَ

من هلك عن يَنَنَةٍ وَلِتَكُونَ لَهُ الْحُجَّةُ عَلَى مَنْ يُرِيدُ إِخْرَاجَهُ . فَأَمَرَ الْأَمِيرُ سِيرَ* بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِ . وَنَهَضَ ، وَتَحَنُّنٌ يَمَكْنَسَةً . وَنَازَلَهُ مُدَّةً طَوِيلَةً ؛ ٦٨ (ب) وَمَعَاقِلُهُ قَدْ ذَهَبَ أَكْثَرُهَا بِالطَّاعَةِ .

وافتتح الأميرُ بجلال هذا مدينةَ قُرْطُبَةَ ، واستشهدَ فيها ابنُه للآمون ووزيراهُ ابنُ زَيْدُونِ وابنُ بَكْرٍ — رحمهم الله — بِمُدَاخَلَةٍ مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ ، مع انخراق المدينة ، وأنه لم يمكن ضَبْطُهَا إِلَّا بِأَهْلِهَا . وكان الْمُعْتَمِدُ حَذِرًا عَلَى قُرْطُبَةَ ، يرجو بقاء حاله بثبوتها ، ويوصى ابنه بالصبر ، ويقول له : « لَا تَجْزَع ! فَاَلْمُوتُ أَهْوَنُ مِنْ الدَّلِّ ! وَلَيْسَ السُّلْطَانُ إِلَّا مِنْ الْقَصْرِ إِلَى الْقَبْرِ ! »

١٠ فَلَمَّا أُخِذَتِ قُرْطُبَةُ ، انقطع الرجاء . وضاعتْ إَشْيَئِيَّةٌ ؛ وفقد ما كان بيده من أجل النفقات ، إلى أن دخلها الأميرُ سِيرَ غُنُوةً بِمُدَاخَلَةٍ مِنْ بَعْضِ أَهْلِهَا . وهلك فيها عالمٌ ، وانكشف الحَرَمُ ، إِذْ لِلجَيْشِ مَرَّةٌ لَا تُمَلَّكُ بَعْدَ صَبْرِهِمْ عَلَى مَلِكِهِمْ . وظهر لِسِيرٍ مِنْ اجتهادهم فى القتال ما أعجبه ذلك ، وقال : « لَوْ أَنِّي أَقْصَدُ^(١) مَدِينَةَ الشُّرْكِ ، لَمْ تَمْتَنِعْ هَذَا الْاِمْتِنَاعُ ! »

١٥ وكان دخولها من ناحية الوادى ، وهو أَسْهَلُ الْأَمَاكِنِ . ولولا صَبْرُ أَهْلِهَا وَكَثْرَةُ أَقَارِبِ ابْنِ عَبَّادٍ ، لَمْ يَسْتَطِعْ [الْمُعْتَمِدُ] عَلَى شَيْءٍ ؛ فَكَانَتْهُ غُلِبَ بِالْثَغَاتِ الَّذِينَ كَانَتْ الْأَبْوَابُ بِأَيْدِيهِمْ ، وَوَكَّلَهُمْ بَيْنَ سِوَاهِمَ ، إِلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَ الْقَضَاءِ مَدَقِّعٌ . وكان دُخُولُهَا يَوْمَ الْأَحَدِ فِي [٢٢] رَجَبِ [سَنَةِ ٤٨٤] ، فِي التَّارِيخِ الَّتِي دُخِلَتْ فِيهِ غَرْنَاطَةُ بَعْدَهَا بِعَامٍ كَامِلٍ .

(١) أصل : « تَقْصِدُ » .

وَدَخَلَتْ قَبْلَهَا قَرْمُونَةَ ؛ ومات فيها عالمٌ كثيرٌ . ثُمَّ التَوَى أَمْرُ
رُنْدَةَ ؛ ونازلها قَرُور ، إلى أن ظفر بالراضى ، وخدَعَهُ ، وحصل على
أمواله ؛ ثُمَّ قَتَلَهُ ، خَوْفًا من أن تفتضح تلك الأموال ؛ وقيل إن ذلك
لم يكن عن رأى السلطان . وأمرَ بِقَتْلِ كُلِّ من ظفر به في رُنْدَةَ
المذكورة من الأحرار والجنود القاتلين . وقُتِلَ فيها رَجُلٌ من العرب يُعرف
بأبي السُّنْصَم ، جرّاءَ على الله ، ليأخذَ بنتَهُ ؛ ونكحها من بعده ،
وحصل على ماله . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ ﴾ ^(١) . وانتسك بالعبيد ، وصيرهم
إلى السلطان .

ولما ظفر بابن عباد ، فَيَا الأميرُ سيرُ خدمتهُ وعبيدهُ ، حاشى أمهات
الأولاد . وأمره أميرُ المسلمين بإرساله إليه . قدم إلينا بمكناسة مع دخلته ؛
* وبقيَ فيها إلى أن سيقَ معنا إلى أغمات .

(١) ٦٩

٨١ - قول يوسف بن تاشفين إلى مراکش

وإنَّ أميرَ المسلمين ، لما فتح الله له في هذا كُلَّهُ ، أخذَ في الانصراف
إلى مرُّوكش ؛ وقد بلغ من آماله غايتهَا ، وامتَلأتْ يَدَاهُ بالأموال ؛ وقسم
على أجناده بعض من الفَيْءِ ، وأهدى إلى الصَّخْرَاوِيَّ عَمَّهُ من تلك الذخائر .
وأمرنا أن نستوطنَ أغمات ؛ فأَتَيْنَاهَا ، ولقينا من أمير المسلمين كُلَّ
جميل ، وأنزلنا بداره الصُّغْرَاوِيَّ في الحريم ، ولم يَزَلْ يَتَقَدُّنَا من إنعامه ،
كَيْفَ ما هَيَّأَ اللهُ على يديه ، ووَجَدْنَاهُ بعدَ اللهُ أَرْفَقَ بنا ، وأحسنَ
مذهبَ فينا من الناس أجمعين ، ومن كلِّ من سبق إليه مِنَّا إحسانٌ .

٨٢ - عزل المتوكل بن الأفطس صاحب بطلينوس ومهلكه

وَبَقِيَ ابْنُ الْأَفْطَسِ يَتَخَذُمُ أَمْرَهُ ؛ وَكَانَ يُدَارِي ابْنَ الْأَحْسَنِ ، وَيَنْفَعُ لَهُ فِي كُلِّ مَا أَرَادَ ، طَبْعًا مِنْهُ فِي الْبَقَاءِ لِحَيِّهِ ؛ وَهُوَ ، فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، يُنْهَشُ ، وَيُرَى آيَاتُ تَدُلُّ عَلَى الشَّرِّ ، وَأَنَّ الْمَذْهَبَ فِي أَخْذِهِ . وَدَاخَلَ عَلَيْهِ ابْنُ الْأَحْسَنِ فِي بَلَدِهِ ؛ فَشَعَرَ بِذَلِكَ ، وَتَقَيَّظَ لَهُ ، وَاسْتَوْحَشَ مِنَ الْمُرَابِطِينَ ، وَدَاخَلَ الرُّومِيَّ ؛ فَخَفَّتْ عَلَيْهِ الْمُطَابَّاتُ ؛ وَسُئِيَ عَلَيْهِ جَهْرًا ، بَعْدَ السَّغَى سِرًّا ؛ وَهُوَ ، فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، مِثْلُ السَّمَكَةِ الْعَاجِزَةِ الْمَوْصُوفَةِ فِي « كِتَابِ دِرْقَتَةِ » : لَمْ تَزَلْ فِي تَقَلُّبٍ وَتَرَدُّدٍ ، حَتَّى أَخَذَهَا الصَّيَّادُ ؛ وَهُوَ كَذَلِكَ يُرِيدُ أَنْ يُخَلِّطَ : يُخَاطِبُ الْأَمِيرَ بِإِظْهَارِ الطَّاعَةِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي أَمْرِ الرُّومِيِّ ، وَيُخَاطِبُ الْقُنُوشَ لِيَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى مُلِمَّةٍ ، إِنْ دَهَتُهُ مِنَ الْمُرَابِطِينَ . وَكَانَ ابْنُهُ الْمَنْصُورُ دَاهِيَةً بِالْأُمُورِ ، قَدْ أَشْرَبَ قَلْبُهُ الْحِذْرَ وَالْخَوْفَ ، وَقَدْ رَأَى طَرِيقَةَ ابْنِ الْأَحْسَنِ ، وَسَعْيَهُ عَلَى أَبِيهِ ؛ وَهُوَ رَجُلٌ سَجِلْمَاسِيٌّ قَفِيهٌ ، مُتَصَرِّفٌ فِي أُمُورِ الْأَمِيرِ ، اسْتَوَظَنَ بَطْلَيْنُوسَ ، وَاکْتَسَبَ فِيهَا مَالًا ؛ يَرَى أَنَّ كَوْنَهُ فِي الثَّغْرِ لِمَا يَنْفَعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَهُوَ يَعْمَلُ فِي خَلْعِ صَاحِبِهَا .

وَكَانَ ابْنُ الْأَفْطَسِ الشَّيْخُ مُتَّبِعًا لِهَوَاهُ ؛ لَوْ سَأَلَهُ رُوحُهُ مَا لَا يَحِلُّ عَلَيْهِ ، [عَمَلٌ] بِهِ ، مُتَوَقِّعًا لَشَرِّهِ . وَكُلُّ شَيْءٍ يَحْذَرُهُ الْإِنْسَانُ وَيَكْرَهُهُ بَقْلُهُ ، وَلَا يَكُونُ عَلَيْهِ بِالْخِيَارِ ، فَهُوَ مُتَوَرِّطٌ لَا تَحَالَةَ ، فِيهِ ؛ فَإِنَّ الْمُدَارَاةَ فِيهِ مِمَّا لَا تَنْفَعُ ، وَالِاسْتِهْمَالَ مُنْقَطِعٌ ؛ وَلَا خَيْرَ فِي مُجَاوَرَةِ عَدُوِّكَ عِنْدَ

* الحاجة إليه ، إلا أن تدرى عند ذم العاقبة معه أنك مُستغنى عنه بغيره ؛ ٦٩ (ب) وإلا ، فانت له طعمة .

فقال له ابنه المنصور : « هذا التردد لا يجزئك ، ولا يغنى عنك ما ترى من إظهار الطاعة للمرابط ! ولا طاعة أهل بلدك لك ومحبتهم التي كانوا يمرضون عليك ! فلو أنهم يرون بعض حقيقة في عزيمة ، كما أبقوا عليك ؛ كالذي رأيت صنع بغيرك ! فإما أن ترضى للمرابط ، فلن تبلى مرضاته إلا بالاخلاع له ووضع البلد في يديه ؛ ونقنع بأن تكون متحرراً ، متخلياً عن الرياسة ؛ فمأجل ذلك ، تجد عنده الأمان ! وإن فرت نفسك عنه ، فلا تتأخر عن الفرار منه بنفسك وأهلك وجميع أموالك ! يجعلك الرومي في أي بلدة شئت ؛ ورُبما سوغها لك ، كما قتل بابين ذى الثون في بلنسية ؛ وترك مدينة بطليوس ، لا تدخل على المسلمين داخله ؛ فيحصل لك النجاة بمهجتك ، وسلامة البلد للمسلمين ! » فقال له أبوه ، وسفه رأيه : « لا أترك موضعي ! وعسى أن تهني الأقدار ضد ما تظن ! » فخرج عنها ابنه ، وتجا بماله وأهله ، وأخذ لنفسه بالرأى الذي أشار به على أبيه . وبقي الشيخ لحينه ، حتى نفذ أمر الله فيه .

وإن الأمير سير ، لما أراد من التخدم لأمر بطليوس والحيلة فيها ، لم يثق بنفسه في ذلك ، لحدوث ولايته الأندلس ، ورأى أن الداء لا يعانى إلا بدوائه ، ولا يلقى أحداً إلا بحجره ؛ فتخير لذلك ابن رشيقي ، لأنه أندلسي ، عالم بالمكايد في الفنون ، مع ما كان له عليه من الأيادي قبل في لييط ، وأن ثقافته ذلك الوقت لم يكن إلا على رغم منه بمصادرة قرور

له . فانهز القرصة فى إطلاقه ، والكافأة له على صنيعة بما يأمره من أمر بطليوس .

وخاطب السلطان فى أمره ، بعد أن أظنّب فى صفة حاجته إليه . فقبل قوله ، وأمر بإرساله ، وألطف له القول ، واعتذر إليه بما جرى ، وأمر له بمالٍ جسيم . ونهض ، بعد أن حدّ له الوقوف عند أوامر سير ، وأنه مستحييه ؛ فضى . ونفى الناس من انطلاقه* ما تعجبوا منه وخططوا القول (١) ٧٠ فى ذلك ، كلّ أحدٍ على مقدار عقله أو شهوته .

فلما وصل ، تخدم أمر بطليوس بكلّ وجه من الدخلة لأهل البلد ومن معه فى القصة من الحرس وغيرهم ، حتى وقع الاتفاق على أن يطرقها ليلاً ، ويفتحون له [الباب] . فكان من ذلك ما حاولوه ، وتعلقوا بالشور عند الإمارة التى كانت مع من داخله . وتقبض على الشيخ وابنيه الفضل والعباس ، واحتوى له على أموالٍ جسيمة . وأمر سير بإخراجه للقتل ، بعد أن رأى فى نفسه هواناً عظيماً ، وشده على المال ، ونقم عليه ما كان من عمله مع النصارى والمعاقل التى أعطاهم ؛ فأمر بقتله مع ابنيه الفضل والعباس — رحمهم الله — . ١٥

وطاع جميع ذلك الثغر المرابطين ، كأنه لم يكن قطّ لغيرهم . وفى أهله وبناته ، وجميع ما تركه . ثم صار ابنه المنصور فى جملة الروم ، حنفاً لما جرى على أبيه ، يطلب الثأر ، ويتطرق معهم بلاد المسلمين .

٨٣ — نشاط المرابطين ضد النصارى .

استيلاء « السيد » لُدْرِيق على بِلَنْسِيَّة

وصرف المرابطون وجوههم إلى فتنة الروم ومقاصاتها ، بعد إكمالهم
لأخذ سلاطين الأندلس ؛ يقولون : « إنّه لا ينبغي لنا قتالُ الروم ، وترك
وراءنا^(١) الأعداء ، يَمْنُ يَبْرَأِي عَلَيْنَا مَعَهُمْ ! » فكلُّها تَهَيَّأتْ بلا مَشَقَّةٍ
غير إشيبيَّة ؛ فوقع فيها بعض التندُّر ، كما قدَّمنا ذِكْرَهُ . فسُبْحان المقدّر
الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له : « كُنْ ! » فيكون . هذا نصُّ ما كان
ولا نعلم ما يكون ، كما قال بعض الشعراء :

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَنْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمٍ مَا فِي غَدٍ عَمِ
ثم نشأ بعد ذلك من أمرِ بِلَنْسِيَّةِ ما لم يَذْبُلْجَ بها ما يوصف ؛ فإنَّ
الحديث لا يَحْسُنُ ذِكْرُهُ إِلَّا بَعْدَ تَفْصِي آخِرِهِ ؛ والقوسُ لا تُكَبَّدُ إِلَّا
بِقَبْضِ طَرَفَيْهَا ؛ فإذا استكمل الخبر ، طابَ إرادُهُ وحسُنَ مَوْقِعُهُ ، ونَمَّقَ
بَعْضُهُ بَعْضٌ . ولو أننا ندَّعُ هذا التأليف إلى مُدَّةٍ يَتِمُّ فيها خبر بِلَنْسِيَّةِ ،
لَأَتَيْنَا بِهِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ الظَّهْرُ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَتُرِكَ* هذا الديوان مخروماً ، ٧٠ (ب)
انتظاراً لِمَا يَكُونُ فِيهِ أَتْلٌ بَعِيدٌ . ١٥

واستئنافُ تاريخ له فصولٌ لا يُعْنَى ، لا سيما أننا أخذنا اتَّقَسْنَا في
حَيْزِ تَمَامِهِ بما يليق بالزمان ، ورَضْنَاهَا بما تستمرُّ عليه من ترك الشَّرِّهِ
والتَّعَزُّهِ عما فات ، وإعمال قَطْعِ اليأس عما قيل ؛ واليأس عما فات يُعْتَبَرُ
راحةً ؛ وَلَرُبَّ مُطَمَّئَةٍ تَعُودُ دُرَّاحًا .

(١) أصل : « وَتَرَكَوا ورائنا » .

فإذا كان ذلك كذلك ، فأول ما يجب أخذ أنفسنا به إخلاصُ النية
لأمير المسلمين — أيدهُ الله ! — وتمنى الخير له ، لأنَّ صلاحَ المسلمين
بصلاحه . ومن الديانة اعتقاد ذلك ، لما أمر به من طاعة الأئمة والنصح
لكلِّ مسلم ، لا سيما أنه مُحسِنٌ إلينا . ثمَّ اقتصرنا على النظر فيما يخصنا
وأنزلنا أنفسنا بمنزلة من لم يكن قطُّ إلا على هذه الحالة ، واعتبرنا بمن كان
قبلنا ، ونظرنا لمن هو دوننا .

٨٤ — تأملات في تقلب الأقدار

وما حلَّ بابن الأفطس ، فشكرنا الله على ما نجانا منه ، وصرَّفنا وجهه
اهتبالنا إلى ما ننتفع به ، وعَلَّبتنا النفسَ الناطقةَ على الحيوانية ؛ فإنها
تحمل على الفضائل والإنصاف ، ومعرفة حقائق الأشياء ، كما أنَّ الحيوانية
تحمل على الغلبة ، وإثارة الشهوات ، والحيدة عن سبيل المعرفة .
ورأينا أنَّ شغل البال بما مضى لا يبرُدُّ شيئاً غير الهمِّ والكرب اللذين
يُنحلان الجسمَ ويذهبان اللَّبَّ ، وأنَّ الحرجَ على ما لا يكون تعبٌ للبدنِ
ومشقةٌ للإنسان ؛ لأنَّ قولُ الفلاسفة : لا يُلتدُّ بما مضى ، ولا يُدرى
ما يكون فيما بقي ؛ وإنما له لذةُ ساعته التي هو فيها ، أو عمله الذي يجده
لِمَعادِهِ . فإنَّ أعقبَ اللهُ بخير ، فلنَّ نخسرَ ما سلفَ من أيامنا ، فتهرمَ
قبلَ أوانِ الهرمِ ؛ وإن كان الذى يأتى أشدَّ من هذا ، فيحقُّ اغتنامُ
ما نحنُ فيه ، ونمُدُّها أعياداً ، ونُحدثُ اللهَ عملاً يرضاهُ ؛ وإن كُنَّا أبداً
على هذه الرقبة بلا انتقال (وغير متمكِّن من ذلك) ؛ فتوطينُ النفس
على ما يعلَمُ أنها عليه دائمةٌ ، أخرى وأرواحُ البال .

- ثم إني اعتبرتُ جميع ما في الدنيا، التي إليها يسعى الناسُ؛ فوجدتُ
نفسِي مُبْلَغَةً منها كلَّ أَمَلٍ؛ * وإن انْقَطَعَتْ، فلم نصحبها، ونحنُ منها ٧١ (١)
على يقينٍ بِتَخْلِيدِهَا. بل، لكلِّ شيءٍ مُدَّةٌ، ولا بُدَّ من تَرْكِهَا.
والخروجُ منها في مُدَّةِ العُمُرِ خيرٌ من مَبِيتَةٍ على فِتْنَةٍ أو غَرَقٍ، عَسَى
بذلك أن يُعْظِمَ اللهُ الأَجَرَ، وَيُكْفِرَ السَّيِّئَاتِ. ويكون ذلك للإنسان زاجراً
عن الآثام، ويعتبرُ قَدْ مَالِهِ كَأَنَّهُ لم يَكْتَسِبْهُ بِرَزِيَّةٍ نفسه إذ حان حينُهُ،
فَيُقَدَّمُ لها النظرُ، بتوفيقِ الله تعالى، قبل الموت وحلولِ القوت. والله
المُسْتَعْمَنُ لا شريكَ له !
- سُئِلَ النَّبِيُّ — عليه السلام — عن علامةٍ انْشَرَّاحِ الْقَلْبِ للإسلام؛
١٠ فقال: « هو التَّجَافِي عن دارِ القُرُورِ، والإِنَابَةُ إلى دارِ الخُلُودِ، والاستِعْدَادُ
بالموت قبل لقاءِ القوت. »

الفصل الثاني عشر

تأملات أخيرة بعد النفي

٨٥ - المؤلف والشعر

وَإِذْ قَدْ أَتَيْنَا عَلَى وَصْفِ بَعْضِ الْحَادِثَاتِ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَرَبِّهِ دَوْلَتِنَا ،
وَمَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ فِيهَا أَحْكَامُنَا ، حَسْبَا سَاعَدَتْنَا عَلَيْهِ أَذْهَانُنَا ، وَنَالَتُهُ
مَقْدُورَتُنَا ، إِلَى انْصِرَامِ الْأَمَدِ ، فَلَنَرْجِعَ الْآنَ إِلَى ذِكْرِ بَعْضِ مَا يَتَعَلَّقُ
بِذَلِكَ مِنْ شِعْرِ نَظَمْنَاهُ وَقْتَ فَرَاغِ الْبَالِ وَجَهِمِ النَّفْسِ ، مَعَ مَا أَعَانَ عَلَى
ذَلِكَ مِنَ النَّظَرِ إِلَى كُلِّ مُسْتَحْسَنِ ، وَالشُّرُورِ بِطَيْبِ كُلِّ خَبَرٍ .
عَلَى أَنَّي لَمْ أَنْتَحِلْهُ قَبْلُ ، وَلَا كَانَ مِنْ شَأْنِي الْأَخْذُ بِهِ ، إِلَّا عَلَى
سَبِيلِ الْإِسْطِرْفَاعِ وَالْإِطْنَابِ فِي وَصْفِ شَيْءٍ أُرِيدُ نَعْتَهُ . قَرَّبًا صَنَعْتُ
١٠ فِي الْبَيْتِ أَوِ الْبَيْتَيْنِ آيَاتًا ، أَخْضَرُ لَهَا ذَهْنِي ، وَأَحَدُ فِكْرِي ؛ فَتَصْدَعُ
بِدَ كَدِّي ، وَمَا أَكَادُ ، كَالشَّيْءِ الْمُسْتَعْرَبِ مِنْ غَيْرِ مَعْدِنِهِ . فَيُنْشِدُهَا
الْكُتَيْبَةُ فِي مَجَالِسِ الْإِحْتِفَالِ لِلرَّاحَاتِ ، تَقْطَعُ بِذَلِكَ الزَّمَانَ عِنْدَ الْفَرَاغِ
مِنَ الشُّغْلِ ، كَالَّذِي يَأْخُذُ بِهِ الْمُلُوكُ أَنْفُسَهُمْ فِي سَاعَاتِ الدَّعَاةِ ؛ وَنُضِيفُ
مَعَهَا لَمَعًا مِنْ آدَابٍ وَسِيرٍ مُخَضَّرِي ، مِمَّا يَخْتَلِجُ فِي الْخَاطِرِ وَيُجْرِيهَا الْإِنْسَانُ
١٥ بِصُحْبَةِ الزَّمَانِ وَتَنْقِيلِهِ فِي الْحَالَاتِ . وَقِيلَ لِرَجُلٍ : « مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا
الْعِلْمُ ؟ » قَالَ : « قَلْبًا عَقُولًا ، وَلِسَانًا سَوًّا وَلَا ! »

٨٦ — استطراد المؤلف إلى الكلام عن طالعه ومصيره

وكلُّ شيءٍ إِنَّمَا يَنْطَبِعُ فِي النِّشَاءِ وَحِينَ الْمَوْلِدِ . ولقد طالعتُ من مَوْلَدِي
 أشياء مَبْرُتْهَا من طبائعي وأخلاق ، على أَنَّ واضِعِيهِ الْقُوَّةُ وَتَحْنُ فِي حَالِ
 الطفولية ، * لم يُوَصَّلْ إِذْ ذَاكَ إِلَى مَعْرِفَةِ شَيْءٍ مِنْ أَحْوَالِي . وَكَتَمَهُ ٧١ (ب)
 ٥ عَنِّي سِمَاجَةً مُدَّةً ، حَتَّى وَقَعَ السَّفَرُ إِلَى يَدِي عَلَى غَيْرِ ظَنٍّ ؛ فَشَقَّ ذَلِكَ
 عَلَيَّ ، خَوْفًا عَلَى مِنَ الْعُجْبِ بِمَا كَانَ فِيهِ مَنْصُوصًا مِنَ السَّعَادَةِ . فَطَالَعْتُ
 مِنْهُ عَجَائِبَ وَغَرَائِبَ ، إِذْ كَانَ الْمَوْلِدُ رَصْدِي ؛ وَكَانَ الطَّالِعُ الْحَوْتَ
 بِأَرْبَعِ دَرَجٍ ، وَصَاحِبُهُ الْمُشْتَرَى فِي الْحَادِي عَشَرَ مِنَ الزُّهْرَةِ ؛ وَسَقَطَتْ
 الشَّمْسُ فِي الدَّلْوِ مَعَ عُطَارِدِ ؛ وَانْفَقَتِ النَّحْسَانُ فِي الثَّوْرِ بَيْتَ الْأُخُوَّةِ
 ١٠ وَالْقَرَابَةِ ؛ وَصَارَ الْقَمَرُ هَيَلَاجًا إِذْ كَانَ فِي السَّابِعِ مِنَ الْبُرُوجِ ، فَصَلَحَ
 لَتِلْكَ لِأَجْلِ سَقُوطِ نَيِّرِ التَّوْبَةِ ؛ وَالزُّهْرَةُ كَدَخْدَاهُ ، دَلَّتْ بِمَكَانِهَا
 — وَاللَّهُ أَعْلَمُ — عَلَى قَوْلِهِمْ ، عَلَى سِنِّيهِا الْوُسْطَى خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً
 يَزِيدُهَا الْمُشْتَرَى سِنِّيهِ الصُّغْرَى اثْنَيْ عَشَرَ عَامًا ؛ فَجَمِيعُ ذَلِكَ سَبْعَةٌ
 وَخَمْسُونَ عَامًا . وَاللَّهُ بِغَيْبِهِ أَعْلَمُ !

١٥ وَتَكَلَّمَ (الطَّالِعُ) عَلَى أَرْبَابِ مُثَلَّثَاتِ النَّيِّرِ الدَّالَّةِ عَلَى تَقْسِيمِ
 السَّعَادَةِ لِلْمَوْلُودِ ؛ فَكَانَ رَبُّ الْمُثَلَّثَةِ الْأُولَى زُحْلًا ، وَمَعَهُ الْمَرْيُخُ فِي
 بَيْتِ غُرُوبِهِ ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الثَّلَاثَ الْأَوَّلَ فِيهِ بَعْضُ التَّقْدِيرِ وَالتَّنْغِيصِ
 وَالتَّكْدِيرِ ؛ وَمِثْلُهُ الثَّلَاثُ الثَّانِي الَّذِي لِعُطَارِدِ ، إِذْ كَانَ فِي بَيْتِ الشَّقَاءِ
 وَالْمُحُومِ ، مُحْشُورًا بَيْنَ النَّحْسَيْنِ ؛ فَدَلَّ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ وَأَشَدَّ ،
 ٢٠ كَالَّذِي تَبَيَّنَ الْآنَ ؛ وَالْقِسْمَةُ الثَّلَاثَةُ لِلْمُشْتَرَى ، وَهُوَ فِي بَيْتِ الرَّجَاءِ

وَالسَّعَادَةِ ؛ فَذَلِكَ عَلَى ضِدِّ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَأُطْنَبَ فِي وَصْفِ السَّعَادَةِ فِيهِ ، لَا أَدْرِي كَيْفَ هُوَ ، إِذْ هُوَ بَعِيدٌ فِي الْقِيَاسِ ، قَرِيبٌ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ .

ثُمَّ وَصَفَ خَيْرَ الْأَمْرَاضِ ؛ فَذَلِكَ عَلَى الْأَمْرَاضِ النَّفْسَانِيَّةِ مِنَ السَّوْدَاءِ وَحِدَثَانِ النَّفْسِ بِأَشْيَاءٍ مُخَوِّفَةٍ .

وَذَكَرَ خَيْرَ الْبَنِينَ ؛ فَقَالَ : بَحِثْ شَهِيدَ شَاهِدٍ ، يَكُونُ الْوَلَدُ ؛ وَشَهِيدَ آخَرُ بَأَنَّ لَا وَلَدَ . وَذَكَرَ عَلَى الْقِلَّةِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ كَوْتِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ مَا ذَكَرْنَاهُ دَلِيلًا عَلَى قِلَّتِهِمْ ؛ وَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي نِصْفِ الْعُمُرِ . فَظَهَرَ ذَلِكَ بِنَشَأَتِهِمُ الْآنَ .

١٠ وَذَكَرَ خَيْرَ الزَّهَادَةِ فِي الْحَرَامِ كُلِّهِ ؛ وَحَقَّ ذَلِكَ لِكُلِّ أَحَدٍ ، غَيْرَ أَنَّ الَّذِي يَنْتَهِيًا فِي نَصْبَةِ الْمَوْلِدِ أَغْلَبُ عَلَى الطَّبْعِ ؛ ثُمَّ نَظَرَ فِي وَجْهِ التَّعَفُّفِ ، وَابْتَحَثَ عَلَى مَا أُوجِبَ ذَلِكَ ، وَأَنَّ تِلْكَ الزَّهَادَةَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ مَعَ سَلَامَةِ الْمُتَعَدِّ ؛ فَإِنَّ الزُّهْرَةَ ، إِذْ كَانَتْ فِي أَحَدِ بَيْتِ زُحَلٍ ، ظَهَرَ عَلَى الْمَوْلُودِ قُبْحُ ذَلِكَ الشَّرِّ ؛ فَتَعَفَّفَ . وَقَالَ إِنَّ حِكْمَتَهُ فِي يَدَيْهِ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي لِسَانِهِ .

وَرَأَى صَاحِبَ بَيْتِ الْعُرْسِ ، وَهُوَ عَطَارِدٌ ، فِي بَيْتِ زُحَلٍ ؛ فَذَكَرَ عَلَى الْمَيْلِ إِلَى الصَّخَارِ ذَوِي الطَّبَائِعِ الْمَطَارِدِيَّةِ ، مَعَ مُنَافَرَةٍ لَا تُبَيِّحُ الشَّرِيْعَةَ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ صَاحِبِ الْعُرْسِ وَصَاحِبِ الطَّالِعِ مُوَاصَلَةً وَلَا مُتَاكَلَةً .

٢٠ كُلُّ هَذَا قَدْ عَلِمْنَاهُ مِنْ أَنْفُسِنَا ، كَأَنَّهُ حَاضِرٌ مَعَنَا ، وَمُطْلَعٌ

علينا . فلم نَشْكُ في صَحَّتِهِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، فَسُبْحَانَ مُصَرِّفِ الْأَيَّامِ وَمُجْرِي
الْأَفْلاكِ !

(فَلَاكُ مَا اسْتَدَارَ مِنَ الْأَشْيَاءِ ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « كُلُّ فِي فَلَاكِ
يَسْبَحُونَ » ^(١) . وَسَمَّاها سَمَاءً ؛ فَإِنَّ الْعَرَبَ تَدْعُو كُلَّ مَا ارْتَفَعَ سَمَاءً ؛
• فَهِيَ ، لَارْتِفَاعِهَا عَلَيْنَا ، سَمَاءٌ ؛ وَهَيِّنَمْتُهَا : فَلَاكُ ، لَا سَمَاءٌ .)

٨٧ — أراء المؤلف في التنجيم

وَلَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ، غَيْرَ أَنَّ أَهْلَ الْقُلُوبِ مِنْهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا هِيَ
دَلَالَةٌ عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَلَا يُعْلَمُ بِهَا الْجَلِيَّةُ ، كَالْقَيْثِ الْمُنْزَلِ دَلِيلٌ
عَلَى نَبَاتِ الزَّرْعِ بِهِ ، أَوْ كَالنَّارِ الْمُشْتَعِلَةِ بِمَكَانٍ عَلِمَ أَنَّهَا مُحْرِقَةٌ . وَيَحْتَجُّونَ
١٠ بِمَحْدِثِ الزُّسُولِ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — فِي قَوْلِهِ : أَقْبَلْتُ بِمَحْرَبَةٍ ، فَتَشَاءَمْتُ ،
فَتَلَكَ عَيْنٌ غَدِيقَةً . وَمُعَانَاةُ الْحَكِيمِ الْمَاهِرِ دَلِيلٌ عَلَى بُرْهَانِهِ ، يَرْجَى لَهُ
ذَلِكَ إِنْ أَخَّرْتَهُ الْمُدَّةَ . وَجِئْتُ بِطَيْبِ عَالِمٍ إِلَى أَحَدِ الْعُظَمَاءِ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ ،
فَلَمَّا شَكَا الْمَرِيضُ إِلَيْهِ ، قَالَ لَهُ الْحَكِيمُ : « قَدْ بَرِيتَ بِمَحْوِلِ اللَّهِ ! » فَلَمَّا
أَعْلَمَهُ التَّرْجُمَانُ بِقَوْلِهِ ، قَالَ الْعَلِيلُ : « إِنْ شَاءَ اللَّهُ ! » ، فَأَجَابَهُ الْحَكِيمُ :
١٥ « إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَدْ شَاءَ : لَمْ يَسْفُنِي إِلَيْكَ مِنْ أَرْضِ الْهِنْدِ إِلَّا وَقَدْ قَضَى
بَصَحَّتِكَ ! »

وَقَدْ أَغْلَى ^(٢) أَهْلُ الْهِنْدِ فِي هَذَا الْعِلْمِ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ اتَّخَذَهُ شَرْعًا ، حَتَّى

(١) سورة الأنبياء : ٢٣ = سورة يس : ٤٠ .

(٢) أصل : « اغلوا » .

إن فيهم من لا يؤلّي تملكتهم إلّا من شاكل طالع الدولة ؛
 وهم يزعمون أنّ طالع الملك ، إن لم يكن وتدًا من أوتاد المملكة ،
 أو كان منها ثلثي عشر أو سادسًا ، وأمكنته الكواكب غير متفقة*
 (٧٢) (١) لملك ، فإنه ينحسها ، ولو بلغ الجهد من الاحتياط عليها : إمّا تهلكه ،
 أو يهلكها ، ضرورة تسوقه الأقدار إليها . فكانوا يتخيرون الطوالع قبل
 اختيار العقول والمذاهب ، يزرون أنّ القدر أغلب من الرأي ، ويقولون :
 « لك سعادة الدولة ومساعدة الأقدار هيأت لنا هذِهِ الآراء لطول
 المدد . »

ثمّ إنهم يزعمون أنّ العمر الطبيعيّ مائة وعشرون عامًا ، وأنّ القواطع
 التي تكون قبله إمّا هي من أحداث داخلية على الإنسان ، عرضيّة ،
 إمّا من فساد المزاج ؛ فخور الطبيعة ، إذ جعلوا الأربع طبائع التي في
 الإنسان قوامه كأركان البيت ، فتى فسدت منها طبيعة ، اعتلّ
 الجسم ؛ وإن تغيرت كلّها ، مات . وجعلوها مشاكلة للأزمنة : فالدم
 ربيعيّ ، والبلغم شتويّ ، والصفره صيفيّة ، والسوداء خريفية ؛ فنّ
 عالج كلّ زمانٍ منها بضده من الأغذية والأدوية ، فقد أصاب . ولا
 ١٥ باقى مع الله !

و[لَمَّا] احتجّ عليهم بالذى يموت فجأة ، أو فى زحّة ، أو بآرق
 سبب ، وهو يظهر صحيح الجسم ، أضافوا إلى الطب من علم النجوم ،
 وأنفق رأيهم أن لا فلسفة تتمّ حتى يجمعها ، وأنّ لا قوام لأحد العليّن
 ٢٠ دون الآخر ؛ قالوا : إمّا ذلك من الهياليج الساقطة ؛ فإنّ المولود ، إذا
 كانت هياليجه ساهرة ، صحّ ارتباط نفسه بجسمه ؛ فلا تخرج إلّا عن

مَشَقَّةٌ مع تمامِ المَدَّةِ التي تدُلُّ عليها العَطِيَّةُ . وإن كانت هَيَالِجُهُ ساقِطَةً كُلَّهَا ، عرض للموت بأَرْقٍ سببٍ . فإن لم يكن له هَيَلَجٌ ، سَيَّرَتْ المَطْلَعِيَّةُ وَعُدَّةً لها أعوامٌ ؛ ويكون القَطْعُ عند تَمَامِهَا ، وقد يكون في تَحَاوِيلِ السَّيْنِ ؛ وإن تَمَّ العَطِيَّةُ عند انْتِهَاءِ صَاحِبِ حَدِّ الدَّرَجَةِ إلى موضعِ نَحْسٍ ، قَطْعٌ أو شبه القَطْعِ ، إن لم تُسَاعِدْهُ النُجُومُ السَّعِيدَةُ .
وَسَمَوُهُ الجَمَانُ بِخَتَانٍ ، وهو دليلُ الحَيَاةِ بإِذْنِ اللَّهِ .

ومِنْهُمْ مَنْ رَأَى ذَلِكَ قُوَّةً لِنَفْسِهِ* ، وَرَضِيَ بِمَا قَسَمَ لَهُ الْبَارِئُ — عَزَّ ٧٢ (ب) وَجَلَّ — ؛ فَلَا يَنْقُدُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَعِيشُ طَيِّبَ الْعَيْشِ ، يَدْرِي أَنَّ لَا قَاطِعَ يَقْطَعُ بِهِ فِي تِلْكَ المَدَّةِ ، وَيُسَجِّعُ لِقَوْلِ عَلِيٍّ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ —
١٠ لِرَجُلٍ قَدْ أَسَنَّ : « آيَةُ شَجَاعَةٍ قَدْ فَاتَتْكَ ! » يَعْنِي : لَوْ أَنَّكَ قَبْلَ الْيَوْمِ تَدْرِي أَنَّ هَذَا يَكُونُ عُمرُكَ لَمْ تُبَالِ .

وَأَمَّا أَنَا ، فَأَقُولُ إِنَّهُ تَأْنِيسٌ مَا لَمْ تَقْرُبِ المَدَّةَ ، وَزِيَادَةٌ فِي أَلَمِ اللَّيْثَةِ إِذَا اقْتَرَبَتْ . وَلَا يَكُونُ الطُّبُّ إِلَّا لِيُصَحَّ الْبَدَنُ مُدَّةَ الحَيَاةِ لِكِرَاهِيَةِ الْعَيْشِ فِي نَكَدٍ . وَأَمَّا لِدَفْعِ أَجَلٍ ، فَلَا يَنْفَعُ شَيْءٌ .

٨٨ — آراء طَبَّيَّةٍ فِي الْأَغْذِيَةِ وَالنَّبِيدِ

١٥

قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : « النَّاسُ يَعِشُوا^(١) لِيَأْكُلُوا ، وَتَحَنُّ نَأْكُلُ لِنَعِيشَ ! » فَتَأَمَّلْ مَعْنَاهُ .

وَجَمَعَ أَحَدُ الْمُلُوكِ أَطِبَّاءَهُ ، فَقَالَ لَهُمْ : « أَعْلِمُونِي بِالْإِدْوَاءِ الَّذِي لَا دَاءَ مَعَهُ ! » فَكَأَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا عَلَى الْأَدْوِيَةِ وَالْمُعَانَاةِ بِهَا ، غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَانَ

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ .

أَكْبَرُ سَنًا ؛ فَرَدَّ عَلَيْهِمْ أَنْ : « لَيْسَ عَنْ هَذَا سَأَلَكُمْ الْأَمِيرُ ! وَلَكِنَّهُ
يَأْذَنُ لِي فِي الْكَلَامِ ؟ » قَالَ : « قُلْ إِنْ أَنْتُمْ مَعْدِنُ الْحِكْمَةِ وَالْفَلَسَفَةِ ! »
قَالَ « أَيُّهَا الْأَمِيرُ ! إِنَّ الدَّوَاءَ الَّذِي لَا دَاءَ مَعَهُ أَنْ تَكُونَ ، عِنْدَ
أَخَذِكَ لِلغَدَاءِ ، تَتْرُكُ مِنْهُ بَقْدَرٍ مَا تَمُّ بِهِ الشُّبْعَةُ ، وَلَوْ لُفِّمَتَيْنِ ، وَلَا
تَمَلًّا ! فَذَاكَ دَوَاءٌ لَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى طَيِّبٍ ! »

وَذَكَرَ هَذَا عَنِ الرَّشِيدِ ، إِنَّهُ قَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ قِصَّةَ بَطْطَامٍ ؛ فَلَمَّا أَكَلَ
قَالَ : « هَذَا غَدَاءٌ وَدَوَاءٌ ! فَمَا زِيدَ عَلَيْهِ كَانَ دَاءٌ ! » وَعَلَى أَنَّهُ لِكُلِّ
أَمْرٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَ .

وَقَالَ النَّبِيُّ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « أَصْلُ كُلِّ دَاءٍ الْبُرُودَةُ ، وَأَصْلُ
كُلِّ دَوَاءٍ الْحُمَّى ! » وَقِيلَ : « أَقْلِلْ طَعَامًا ، تَحْمَدُ مِنْهَا ! » وَقَالَتْ
الْحُكَمَاةُ : « إِنَّ الْكَثْرَةَ وَالْقَلَّةَ عَدُوَّ الطَّبِيعَةِ . »

قَدْ نَرَى^(١) فِي الْخَمْرِ مَا ، إِذَا اعْتَدَلَ مَزَاجُهُ مِنْهُ بِالْكَثِيرِ ، لَمْ يَجِبْ أَنْ
يُقَالَ لَهُ : « قَلِّلْ ! » وَلَا مِنْ شَارِبِ وَاقَّةِ الْقَلِيلِ ، أَنْ يُقَالَ لَهُ :
« ازْدَدْ ! » غَيْرَ أَنَّ الْعَاقِلَ يَرَى ذَلِكَ بِحُسْنِهِ ، وَيَعْلَمُ مَا لَمْ يُوَافِقْ طَبْعَهُ ؛
فَلَا يَزِيدُ عَلَيْهِ شَيْئًا .

وَسُئِلَ حَكِيمٌ عَنِ الْخَمْرِ ؛ فَأَعَابَهَا ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ : « إِذَا أَخَذْتَ
كَيْفَ يَنْتَبِغِي وَمَعَ مَنْ يَنْتَبِغِي ، فَلَا بَأْسَ بِهَا : تَفْرِحُ النَّفْسُ ، وَتَذْهَبُ
بِالْهُمُومِ ، وَتَشْجَعُ ، وَتَحْمِلُ عَلَى الْفَضَائِلِ . وَالتَّزِيدُ مِنْهَا شَرٌّ كَثِيرٌ ،
* كَمَا أَنَّ التَّقْلِيلَ مِنْهَا خَيْرٌ كَثِيرٌ ! »

(١) ٧٣

وشبهوا كثيرها في الأبدان مثل الترموس الذى إذا أُكثِرَ عليه بالماء وطل مَكثُه ، استحال وذهب نوره .

وقيل فيها :

سَأَلْتُ الشَّيْخَ بُقْرَاطًا وَبُقْرَاطٌ لَهُ عَقْلٌ
فَقَضَّلَ مَا لَهُ شَبَهُ وَطَبَّ مَا لَهُ مِثْلُ
قُلْتُ : الْحَمْرُ تَعْجِبُنِي ! قَالَ : كَثِيرُهَا قَتْلُ !
قُلْتُ : كَمْ تَقْدُرُ لِي ! قَالَ ، وَقَوْلُهُ فَضْلُ :
وَجَلْتُ مِنْ طِبَائِعِ أَرْبَعَةٍ هِيَ الْأَصْلُ
فَأَرْبَعَةٌ لِأَرْبَعَةٍ لِكُلِّ طَبِيعَةٍ رِطْلُ

٥

١٠ هذا ما قاله الناس . ولا خيرَ فيما لا تبيحُهُ الشريعة . ولا بأسَ يعلمُ الشيء عند الحاجة إلى وضعه ؛ وبفض الشراً أهونُ من بفضه لمن ابتلي بها أن يأخذها على حَقِّها .

وقالوا إنه مما يؤلِّد فرحَ النفس الشربُ بآنية الذهب وشمُّ الزَّجِيسِ ، كما أنَّ الشربَ بآنية القَزْدِيرِ وشمُّ البَنْفَسَجِ مما يؤلِّدُ الحزنَ .

١٥ وقالوا إنَّها من أكبر أدوية السَّوداءِ فى تلك الساعة ؛ وتعقبُ سَوْدَاءُ أشرَّ من الأولى إن أُكثِرَ منها . والعلةُ فى ذلك أنه لا خيرَ فيها إلَّا ما رَقَّ منها ، وحالَ عليها الحولُ ، وعطرت رائحتهُ ، وهى حارَّةٌ يابسةٌ ، ثمَّ تستحيلُ إلى البردِ عن شربِ الماء للضرورة ، وتجدُّ الرطبة منها ، كَبِدِيَّةَ اللَّوْنِ ، غليظةَ الرَّوْتِ ، مَوْلدةً لِلدَّمِ والنَّوْمِ ؛ وهى الموافقةُ ٢٠ لزمان الشتاء . وليتَّخذ منها لكلِّ زمان ما يوافقُ طَبِيعَتَهُ ، ويخالفُ هَوَاهُ .

ورأوا أنَّ أخذها بعد الغداء بساعةٍ ، لينامَ الإنسانُ قبلها ويُرْوَى

من الماء أَنْجَعُ لَهُ وَأَنْفَعُ . وكذلك الْجَمَاعُ أَنْفَعُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ سَكُونِ
الأعضاء وتَوَدُّعِهَا بالنوم بعد الطعام ، في صَبِيحَةِ تلك اللَّيْلَةِ ، عند تَمَلُّ
الأعضاء ، واحتياجِهَا إلى إِخْرَاجِ الفضول ، ونشاطِهَا . ولا يَكُونُ ذلك عن
* تَكَلُّفٍ ، حَتَّى تَعْمَلَ الطَّبِيعَةُ إِلَيْهِ ، لَا سِيَّامًا إِنْ سَاعَدَتْهَا النَّفْسُ ؛ وَيُؤَافِقُ ٧٣ (ب)
ذلك الشَّخْصُ هَوَاهَا ، إِذِ النَّفْسُ وَالْجِسْمُ شَكْلَانِ مُرْتَبِطَانِ : مَتَى اعْتَلَّ
أحدهما ، تَضَعُضَعُ الْآخَرُ ؛ وَمَتَى صَحَّأَ جَمِيعًا ، قَوِيَتْ الثَّقَّةُ وَتَكَامَلَتْ
الصَّحَّةُ . وَيَكُونُ ذلك أَسْرَعَ فِي الْبَاهِ ، كَمَا أَنَّ الْمَعِدَّةَ مَتَى اشْتَهَتْ
شَيْئًا ، قَدْ ضَمِنَتْ هَضْمَهُ .

قال جَالِينُوسُ : « إِنَّ الْمَرِيضَ الَّذِي يَشْتَهِي أَرْجَى مِنْهُ لِلصَّحِيحِ
الَّذِي لَا يَشْتَهِي ! » أَلَا تَرَى أَنَّ الطَّيِّبَ الْمَاهِرَ ، إِذَا عَانِيَ الْعَلِيلَ ،
وَقَامَ بَيْنَ دَوَائِنِ يَكُونُ بَعْضُهُمَا وَاحِدًا ، قَصَدَ إِلَى الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ النَّفْسَ
عَلَيْهِ أَقْبَلُ فِي حَالِ الصَّحَّةِ ؛ فَيَعْتَمِدُهُ . أَلَا تَرَى أَنَّ شَرَابَ السَّقَرَجَلِ
وَشَرَابَ السَّكَنْجَبِينَ فِئْلُهُمَا وَاحِدٌ ؛ غَيْرَ أَنَّ شَرَابَ السَّقَرَجَلِ أَلْيَقُ بِالنَّفْسِ ،
وَهِيَ إِلَيْهِ أَشْوَقُ ؛ فَيَرَى الْحَكِيمُ تَوَقَّاتَهُ إِلَيْهِ زَائِدًا عَلَى فِي الدَّوَاءِ ، وَيَنْجَحُ
١٥ فِيهِ بِالشَّهْوَةِ .

وَلَمْ يَرَوْا لَشَرْبِ الْخَمْرِ عِنْدَ الْعَطَشِ شَيْئًا أَنْفَعَ مِنْ شَرْبِ الْمَاءِ ،
لِلتَّوَقُّانِ وَإِطْفَاءِ الْحَرَارَةِ وَقَمْعِ الْأَبْخَرَةِ .

وَلَيْسَتْ تَعْمَلُ مِنَ الطَّعَامِ مَا خَفَّ ، وَلَوْ عَاوَدَهُ فِي النَّهَارِ مَرَّاتٍ ؛ فَهُوَ
أَسْرَعَ لَهْضِهِ ، وَأَشْهَى لِمَعِدَّتِهِ ، وَأَخَفَّ عَلَى جَوَارِحِهِ . قَالَ بَعْضُ
٢٠ الْحُكَمَاءِ : لِأَنَّ أَمَلًا شَرَابًا أَحَبُّ عَلَى مَنْ أَنْ أَمَلًا طَعَامًا ! فَإِنْ
النُّخْمَةُ ، إِنْ تَعَقَّدَتْ ، قَلَّتْ ؛ وَإِنْ تَحَلَّلَتْ ، أَقْسَمَتْ . « قَالَ بَعْضُ

الْقَلَّاسِفَةَ : « خَفِّفُوا هَذِهِ الْأَنْفُسَ مِنْ أَوْقَارِ الشَّهَوَاتِ ، لِتَصْعَدَ إِلَى عَالَمِهَا
الْأَكْبَرِ ؛ فَتَأْتِيَكُمْ بِجَانِبٍ مَا هُنَاكَ ! »

وقالوا في الشراب إنه يُسَلِّيَ الهموم . وأنا أقولُ إنها تَهَيِّجُ الهموم ،
إنما هو ما نزل عليه : إِنْ أَلْقَتْ سُرُورًا ، حَرَّكَتْ مِنْهُ مَا سَكَنَ الْإِنْسَانُ
عنه ؛ وَإِنْ أَلْقَتْ هُمُومًا ، ذَكَرَتْ بِمَا هُوَ فِيهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ ، وَفَقَّتْ إِلَى
طُرُقِ السُّوءِ . وَالْهَمُّ إِنَّمَا يَكُونُ بِمَا يَنْتَظِرُ الْإِنْسَانُ مِنْ سُوءٍ ؛ فَذَلِكَ الَّذِي
لَا يُسَلِّوْهُ عَنْهُ شَيْءٌ ، وَلَا يَأْتِيهِ مِنْهُ نَفَاسٌ ؛ وَالنِّعَمُ إِنَّمَا يَكُونُ بِمَا مَضَى ؛
فَرُبَّمَا سَلَّتْ أَلْخَمُورُ عَنْ بَعْضِ ذَلِكَ . وَلَا شَيْءٌ يُولِّدُ النَّوْمَ مِثْلَ النَّعْمِ بِتَذْكَارِ
مَا خَلَفَ ، أَوْ النَّظَرِ فِي كِتَابٍ لَا يَنْبَغِي مِنْهُ تَكَلُّمًا أَكْثَرَ* مِنْ مِطَالَعَةٍ ٧٤ (١)
١٠ ما مَضَى .

وَمِنَ الْجُهَالِ مَنْ يَتَعَقَّدُ أَنَّ الْعِشَاءَ قَرِيبَ النَّوْمِ يُؤَلِّدُ الرِّقَادَ مِنْ أَجْلِ
التَّسْلِيَةِ ؛ وَأَنَا أَقُولُ إِنَّهُ يَمْنَعُهُ ؛ فَإِنَّ الْحَرَارَةَ تَصْعَدُ إِلَى السَّمْعِ مِنَ الْأُبْخِرَةِ
وَكُلُّ حَارٍّ مَانِعٌ لِلنَّوْمِ ، كَمَا أَنَّ الْبَرْدَ فِي السَّمْعِ مُؤَلِّدُهُ . أَلَا تَرَى أَنَّ
الْأَدْمِغَةَ الْبَارِدَةَ كَثِيرَةُ الزَّلَازِلِ مِنَ الرُّطُوبَاتِ ، وَتَوَلَّدُ التَّسْيَانُ ؟ وَالسَّرِيعُ
الْحَفِظُ قَدْ يَكُونُ فِي دِمَاغِهِ مَرَارَةٌ وَيُبْؤَسَةٌ ؟ وَقَلَّ مَا تَرَاهُ يَنْزِلُ ، وَإِنْ
كَانَ ، فَلَا يَدُومُ ذَلِكَ بِهِ ؛ فَإِنَّهَا مِنْ فَضَلَاتِ السَّمْعِ . وَكَذَلِكَ الْجَا حِظُّ
الْعَيْنَيْنِ يُعْرِضُ عَنْ ذَلِكَ ، وَقَلَّ مَا يَسْلَمُ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالتَّعَرُّقِ . وَالنَّائِرُ
الْعَيْنَيْنِ عِنْدَهُمْ أَصَحُّ بَصَرًا ، مَعَ أَنَّهَا مِنْ صِفَاتِ الْجَمَالِ ، إِذَا قَالُوا : « هُوَ
النَّائِرُ الْعَيْنَيْنِ ، الْأَسِيلُ الْخَلْدَيْنِ ، الْمُشْرِفُ الْحَاجِبَيْنِ »

٢٠ كَذَلِكَ قَوْلِي ، وَإِنَّهُ لَا يَتِمُّ لِأَحَدٍ جَمَالٌ إِنْ خَشِنَتْ أَطْرَافُهُ وَامْتَلَأَتْ
خَدَاهُ . وَكَانَتِ التَّرَبُّ تَمْدَحُ فِي الْإِنْسَانِ كِبَرَ رَأْسِهِ ، وَتَقُولُ إِنَّهُ عَلَامَةٌ

الشؤدُد . وَيَمْدَحُ الْغُلَامَ الْأَبْلَهَ الْعُقُولَ .

وقيل : الجمال في اللسان ، ما كان ناطقاً بالصواب ، ولا خيراً في
التهور والإكثار بما لا يحتاج . ووَصَفَ بعضُ الشعراء رجلاً فيما رثى
به ؛ فقال :

لَقَدْ وَارَى الْمَقَابِرُ مِنْ شَرِّكَ كَثِيرَ تَحْلُمٍ وَقَلِيلَ عَابِ
صَمُوتًا فِي الْمَجَالِسِ غَيْرَ عَمَى جَدِيرًا حِينَ يَنْطِقُ بِالصَّوَابِ

٨٩ - رجع الكلام إلى التنجيم

ومَّا وَصَفْنَاهُ مِنْ عِلْمِ التَّجِيمِ ، احْتَجَجْتُ يَوْمًا بِبَعْضِ الْمُنَجِّمِينَ أَنَّهُمْ
عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ ؛ قَالَ : إِنْ كُنْتَ تَقْتَضِي بَأَنَّنَا نَزَعْنَا أَنَّ الْكَوَاكِبَ فَاعِلَةٌ
أَوْ يَعْلَمُ أَحَدُ الْغَيْبِ ، فَمُحَالٌ ذَلِكَ ، لَا يَدَّعِيهِ أَحَدٌ ، غَيْرَ أَنَّا قَوْلُ بَأَنَّنَا
مُصْرَفَةٌ . أَلَسْتَ تَقُولُ فِي الشَّمْسِ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَهَا ضِيَاءً ؟ فَكذلك أقول
فِي النُّجُومِ السَّعِيدِ أَوْ النَّجِيسِ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ لِنَاكٍ ؛ ثُمَّ لَا يَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ هَذِهِ
السَّعَادَةِ وَصُورَتِهَا غَيْرَ الْحَمَلَةِ ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَنْهَيَّا مِنْهَا .

« وَلَيْسَ مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا مُوَافِقٌ لِلشَّرَائِعِ إِذِ النَّصْبَةُ كُلُّهَا مَخْلُوقَةٌ مِنْ مَدَبِّ
وَاحِدٍ ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ؛ فَتَنَى كَانَ فِي الْعَالَمِ دَوَّلَةٌ أَوْ مِلَّةٌ ، لَمْ تَدُلَّ النُّجُومُ
عَلَى غَيْرِهَا ، إِذِ الْحُكْمُ مِنْ لَدُنِ الْوَاحِدِ* . فَأَوَّلُ مَا نَبْتَدِثُكَ بِهِ أَنَّهُ (٧٤)
مَا مِنْ طَالِعٍ الْقِرَانِ مِلَّةٌ وَمَوْلِدٍ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ شَا كَلَّ ، وَاتَّفَقَتْ لَهُ مِنَ
السَّعَادَةِ فِي الْهَيْئَةِ مَا خَرَجَ بِهِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ .

« وَأُخْرَى . أَلَيْسَ تَقُولُ الْيَهُودُ إِنَّهُمْ زُحَلِيُّونَ ؟ لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ !

٢٠ أَلَا تَرَى اتَّخَذَهُمُ السَّبْتُ عِيدًا ؛ وَهُوَ لَزُحْلٍ ، وَأَخْلَاقُهُمْ كُلُّهَا مُطَابِقَةٌ لِمَا

يدلُّ عليه زُحَلُ من البُخْل ، والقَدَّارَة ، والخُبْث ، والمَكْر ، والخَدِيعَة ؟
 ثُمَّ الرُّومُ من بَعْدِهِمْ شَمْسِيُّون ، لا امْتِرَاءَ في ذلك ! أَلَا تَرَى أَنْ يَوْمَ
 الْأَحَدِ جُعِلَ لَهُمْ عِيداً ، وهو يَوْمُ شَمْسِيٍّ ، وطبائِعُهُمْ مُوَافِقَةٌ لِلشَّمْسِ ،
 وَصُورُهُمْ فِيهَا : الْبَيَاضُ وَالْحُمْرَةُ وَالشُّقْرَةُ ، وَالرَّهْبَانِيَّةُ فِي عُبَادِهِمْ لِقَمِّ
 الشَّمْسِ ؟ ثُمَّ الْمُسْلِمُونَ : أَلَيْسَ هُمْ زَهْرِيَّيْنِ ؟ وَالزَّهْرَةُ دَالَّةٌ عَلَى الدِّينِ ،
 وَالنِّظَافَةِ ، وَالْمَرْوَةِ ، وَالضَّوْءِ ، وَالطَّهَرِ مِنَ الْجَنَابَةِ ، وَإِبَاحَةِ النِّكَاحِ ، وَالْإِمَاءِ ،
 وَالطَّيِّبِ وَالزَّيْنَةِ ؟ ثُمَّ أَمَرْنَا بِاتِّخَاذِ الْجُمُعَةِ عِيداً ، وهو يَوْمُ الزَّهْرَةِ !

« ثُمَّ انْظُرْ إِلَى بَرُوجِ الْفَلَكَ . تَقُولُ إِنَّ السَّابِعَ بَيْتُ الْعُرْسِ .
 وَأَكْثَرُ مَا يَسْتَعْمِلُ النَّاسُ التَّكْلَاحَ فِي شَهْرِ رَجَبٍ ، وهو السَّابِعُ مِنْ أَشْهُرِ
 ١٠ الْعَامِ الْمَوْزَنِ بِهِ ، الَّذِي أَوَّلُهُ الْمُحَرَّمُ ؛ وَالثَّامِنُ مِنَ الْبُرُوجِ بَيْتُ الْمَوْتِ
 وَالْمَوَارِيثُ ، وَشَهْرُ شَعْبَانَ الثَّامِنُ مِنَ الْأَشْهُرِ الَّذِي تُنْسَخُ فِيهِ الْأَجَالُ ؛
 وَالتَّاسِعُ مِنَ الْبُرُوجِ بَيْتُ الدِّينِ وَالسَّفَرِ ، وَشَهْرُ رَمَضَانَ الْمُعْظَمِ ، تَاسِعُ
 أَشْهُرِ الْعَامِ . وَجِبَ فِيهِ الصَّوْمُ وَمَحَافَظَةُ الشَّرْعِ ؛ وَالْعَاشِرُ بَيْتُ الْمُلْكِ
 وَالسُّلْطَانِ . وَاتَّخِذَ الْعَاشِرُ مِنَ الْأَشْهُرِ عِيداً يَظْهَرُ فِيهِ بَهَاءُ الدِّينِ وَعِزُّهُ .

١٥ « وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ ﴾ ^(١) . وَأَقْسَمَ
 ﴿ بِالْخُنُوسِ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ﴾ ^(٢) وَهِيَ الْكَوَاكِبُ السَّيَّارَةُ . وَيَزْعُمُونَ
 أَنَّ زُحْلَ هُوَ النَّجْمُ الثَّاقِبُ . لِأَنَّهُ يَفْتَقُ بِضَوْئِهِ سَبْعَ سَمَوَاتٍ . وَأَنَّهُ أَعْظَمُ
 مِنَ الْأَرْضِ سِتَّةً وَتِسْعِينَ مَرَّةً ؛ وَغَيْرُهُ مِنَ الْكَوَاكِبِ قَدْ وَصَفُوا قِسْمَتَهَا
 مِنَ الْعَظَمِ عَلَى الْأَرْضِ . غَيْرَ الْقَمَرِ وَعُطَارِدِ ، فَإِنَّهَا أَصْغَرُ مِنَ الْأَرْضِ . وَأَنَّ

(١) سورة البروج : ١ .

(٢) سورة التكويد : ١٥ - ١٦ .

الشمس أعظم من الدنيا مائة وثمانون ضعفًا. ولكل كوكب منها مدة*
يقطع فيها الفلك. وربته هيأها له باريته — عز وجل — ؛ وإن العالم ٧٥ (١)
السفلى متعلق بالعلوى. مؤثر به بإذن ربه .

ومنها من قال : لأى شيء تُنسب إلينا الرزقة ؟ ولم تُفكر الخالق ؛
وإنما تكلمنا فى المخلوقات ؛ فيوصف كل مخلوق بما يذكركه علم الإنسان .
كواصف رجلٍ أو شجرٍ أو جبل !

وذكر عن حكيم أنه رنى بالمصحف عن يمينه . والأسطرلاب عن
شماله ؛ فستل ما الذى أوجب جمعها لديه ؛ قال : « أتلو فى المصحف
كلام الله . واعتبر فى الأسطرلاب خلق الله ؛ وعلم الهيئة عبادة ! »

وإنه لما نص على هذه المقالة ؛ كان جوابى عنها : « كل ما تقول

يشبه يكون من موازنة أهل السنة بما احتججت به ؛ غير أنكم خالفتم
القرآن فى قولكم « يكون » و « لا يكون » ؛ والله يقول ^(١) ﴿ قُلْ
لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ . ﴾ قالوا : « لسنأ
نقطع عن الأمر أنه يكون ؛ ولا نقول إلا أنه يدل . ونأى بحجة إلا يتم

شرحها . اللهم ! إذ قلنا : هذا مولد سعيد ، هل تدر على شرح تلك السعادة

والكائن فيها . ومنا من يتحرى ، فيعدل ولا يتكلم على شيء . وقولنا هذا
كقول من رأى سحاباً قالاً ؛ فيقول : « هذه تدل على الماء الكثير . هل
قائل ذلك ملحد ؟ ثم الله يفعل ما يشاء .

وهذا أيضاً مما قدمنا ذكره صدر الكتاب أن كل مفتون ملقن

حجته ؛ والله يقول ^(٢) : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ ؛ على أن الحق

عليه نورٌ لا يخفى ؛ تقول العرب : « الحقُّ أبلج ، والباطل لجلج . » .
قال المأمون : « لم أَعْتَبِطْ بأيَّامِ السرور مُذْ عَلِمْتُ التَّجِيمَ ، ولا استمرِيتُ
الطعام مُذْ عَلِمْتُ الطَّبَّ ، ولا طابَ لي النوم مُذْ عَلِمْتُ عبارة الروايات ! »

٩٠ - مسائل فلكية

٥. ويزعمون أَنَّ الليلَ ظِلُّ الأرض ، ولا ضياءَ غير الشمس ؛ فيأشراقها
على الأرض عند طلوعها ، كان النهار ؛ وبدخولها تحت الأرض ، رجع
الظِّلُّ طالعا ، فأظلمَ الليل .
- وبعضهم من قرأ أَنَّ الشمس تجري ، لا مُسْتَقَرٌّ لها ، إذ يقولون إِنَّ
الشمس لا تَسْتَقِرُّ* بمكان ، إذ لا يصحُّ أَنْ يكون المكان إِلَّا أعظم من ٧٥ (ب)
الذي تحِلُّ فيه ؛ ولا أعظم من الشمس إِلَّا الفلك ، والفلكُ دَوَّارٌ .
١٠. وقالوا في الكسوف إِنَّ الكلام فيه ما يمكن إِلَّا بالوقوف على صورة
الهيئة ، ولو لا ذلك ، لم يَجِدِ القول . وقد أثبت قوله بما ظهر من الكسوف
الذي حُدَّ أمرُهُ وَقْتَ انْجِلَالِهِ وَمَبْلَغِ الْمُنْكَسَفِ منه ؛ وإن الشمس في
ذاتها لا يمرضها شيءٌ غير أَنَّ جرم القمر يحول بينها وبين الأرض متى
قابَلها ؛ وكُسوف القمر من مُقَابلة الأرض .
١٥. وزعموا أَنَّ ضوء الكواكب والقمر من الشمس ، وَأَنَّهَا أَجْرَامٌ شَفَافَةٌ
تَكْتَسِي النور من النِّيرِ الأعظم ؛ فيبدو ضوءها بغيرها ، ويطمس عليها
طلوعها . وهو قول الشاعر في ذلك :
- لِأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُمْ كَوْكَبُ

٩١ - تحديد العلوم الطبيعية والطب

وقال أهل الطبيعة : إنَّ لا حيوان إلَّا بالحرارة والرطوبة ، فأين ما كان الماء والشمس تولد فيه الحيوان ، وقد يكون من غير نسل . ونرى حيواناً يكون في جوف صخرة صماء مملعة ؛ والله يخلق ما يشاء . قال تعالى ^(١) : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ، عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وذكر عن الحجاج أنه رى في المنام على حالة حسنة ؛ فسئل عن ذلك ، على ما كان من جوده ؛ قال : « رَحِمَنِي رَبِّي بِكَلِمَةٍ قُلْتُهَا : مَرَزْتُ يَوْمًا عَلَى زَرْعٍ ؛ قُلْتُ : لو شاء الله ، لأنبتهُ في النار واليَفَاعِ ! » (أى في الصحارى التى لا ماء فيها) وقال تعالى ^(٢) : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

ولم يبلغ الإنسان بعلمه أكثر من معرفة الطبيعة : علاج ضعيف لا يرفع قدرًا أكثر من تقويم المزاج عند انحرافه ؛ فعالجوا الأبدان بما أدركته ، عقولهم ، وجربوه بأعمارهم ، وتركوه سلفًا في الأواخر . فكلُّ يمانى على مقدار تجربته ^(٣) ولا يوافق القراءة خطأ حسنًا ومعرفة بهذا الشأن ، قد أخطأ وتكلف . * وقالوا إنَّ الهواء المُسهَّل للجسم بمنزلة الصابون للثوب : ^(١) ٧٦ (١) يُنقى ويحلقه ؛ فاستعماله في زمان الخريف أولى في سلطان السوداء فيه ، كما أنَّ استعمال القصد في زمان الربيع تخفيف لا يحظى من أخرج فيه الدم . وإنَّ أشبه شيء الأغذية بمزاج الإنسان : فالخبز النقي واللحم النقي والشراب

(١) سورة الواقعة : ٦٠ - ٦١ . (٢) سورة النحل : ٨ .

(٣) بياض نحو كلمة في الأصل .

الْحَوَلِي؛ فَمَنْ اقْتَصَرَ عَلَى هَذِهِ دُونَ تَحْلِيلِطٍ لَمْ يَزَلْ صَحِيحَ الْجِسْمِ، قَوِيَّ الْبَنِيَّةِ .
وقيل لجالينوس الحكيم ، وكان في زمان المسيح — عليه السلام — :
« إِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ نَبِيًّا يَبْرِي الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ! » فقال : « وَأَنَا
أُعَالِجُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ! » فلما قيل : « يُخَيِّ الْمَوْتَى » لم يُصَدِّقْ
ذلك حتى رآه مُعَايِنَةً حَقًّا .

٩٢ — تقض قول من ينكر أن الجن تتكلم

وَتُنْكِرُ الْحُكَمَاءُ مَا يَزْعُمُ النَّاسُ مِنْ رُؤْيَا الْجِنِّ، وَتُكَذِّبُ مَنْ يَقُولُ
بِسَمَاعِ نُفُثِهِمْ أَوْ كَلَامِهِمْ عَلَى أَلْسِنَةِ الْبَشَرِ، وَقَوْلُ إِنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا مَنْ لَهُ
لِسَانٌ وَآلَةٌ تُعِينُهُ، وَإِلَّا، فَكَيْفَ تَنْطِقُ رِيحٌ تَهْبُ؟ إِنَّمَا هُوَ بِرِسَامٍ
يَعْرِضُ فِي دِمَاحٍ مَن يَدَّعِي ذَلِكَ؛ فَيَتَصَوَّرُ فِي دِمَاحِهِ أَمْرًا مَا يَخِيلُ لَهُ بَفْسَادِهِ
أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ وَيَسْمَعُ، مَا لَيْسَ مِنْهُ شَيْءٌ عَلَى حَقِيقَةٍ؛ فَيَهْدِي هَذَا نَا، ضَرْبًا
مِنَ الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي يَكُونُ الْإِنْسَانُ، مُفَكِّرًا فِي بَلَدٍ أَوْ شَخْصٍ أَوْ صُورَةٍ
مِنَ الصُّوَرِ: إِذَا حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِهَا، صَارَ كَالنَّاظِرِ إِلَيْهَا، وَإِنْ سَدَّ عَيْنَيْهِ،
أَوْ كَالنَّائِمِ يَرَى مَا تُحَدِّثُهُ بِهِ نَفْسُهُ، أَوْ كَالنَّاظِرِ فِي الْمِرْآةِ يَرَى مَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ.
هذا، لِعَمَرَى مَذْهَبُ خُولَفَ بِهِ طَرِيقُ السُّنَّةِ. وَاللَّهُ يَقُولُ^(١): ﴿ قَالَ
عَفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ وَقَوْلُهُ^(٢): ﴿ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْتَهُمْ ﴾؛
وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَكُونُ النَّطْقُ إِلَّا بِلِسَانٍ، وَلَا الْمَرْوِيَّةُ إِلَّا بِبَصَرٍ
لَيْسَ عَلَى خَلْقَةِ الْإِنْسَانِ، كُلُّهُ عَلَى جَبَلَةٍ، يَرَى وَيَسْمَعُ وَيَعْقِلُ .
وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ تَدْنِ، وَلَا سَبَّحَتْ، وَلَا اهْتَدَتْ لِمَا يُسِّرَتْ لَهُ .

(٢) سورة الأعراف: ٢٧ .

(١) سورة النمل: ٢٩ .

إِنَّ الطَّيْرَ الَّتِي هِيَ عِنْدَنَا لَا تَعْقِلُ وَصَفَّاهَا اللَّهُ بِمَعْرِفَتِهِ ، قَالَ ^(١) : ﴿ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ ؛ وَقَالَ تَعَالَى ^(٢) : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ . وَوَصَفَ بِالسُّجُودِ النِّجْمَ * وَالشَّجَرِ وَالذُّوَابَ ^(٣)) ٧٦
الَّتِي هِيَ عِنْدَنَا جَوَائِدُ . فَكَيْفَ أَحَدُ الثَّقَلَيْنِ الَّذِينَ بَشَّرَا بِالثَّوَابِ ،
وَأَنْذَرَا بِالْعِقَابِ ، وَخُوطِبَا بِمَا خُوطِبَ بِهِ الْإِنْسُ . وَقَالَ تَعَالَى ^(٤) : ﴿ يَا مَعْشَرَ
الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ .
فَمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِأَنَّهُمْ لَا يَتَكَلَّمُونَ وَيَعْقِلُونَ ، فَلَا يُؤْمِنُ بِالْمَلَائِكَةِ ،
وَيَحْتَاجُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ هَذَا نَسَقًا فِي كُلِّ مَنْ لَيْسَ لَهُ لِسَانٌ وَجَوَارِحُ أَنَّهُ
لَا يَتَكَلَّمُ بِجَوَارِحِ الْإِنْسَانِ ؛ فَالْمَلَائِكَةُ لَا تَوْصَفُ بِيَدٍ وَلَا لِسَانٍ ؛ وَهُمْ
الْمَنْزُورُونَ بِالْوَحْيِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُخَاطَبُونَ لَهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ : فَلَا يُؤْمِنُ
بِالرَّسَالَةِ مَنْ يَتَمَذَّهَبُ بِهَذَا .

٩٣ - حديث عن المسرعة وعن هموم الهوى والشباب

وَقَالُوا إِنَّ الْجَمَاعَ مِنْ أَكْثَرِ أَذْوِيَةِ السَّوْدَاءِ لَسُرُورِ تِلْكَ السَّاعَةِ ؛
وَدُخُولِ الْحَمَامِ ، لَمَّا يَمْرُضُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْإِنْطِرَابِ فِيهِ . مَنْ سَرَّهُ أَنْ
تَقَرَّ عَيْنُهُ حَيَاتِهِ ، فَلْيَتَمَتَّعْ مَا وَجَدَ سَهْوَةً شَهْوَتِهِ ؛ وَمَنْ اغْتَنَمَ سَاعَةً
لِدُنْيِهِ ؛ فَقَدْ عَنِمَ ؛ وَمَنْ أَخَّرَهَا ، فَقَدْ عَدِمَ ! فَإِنَّ الْإِنْسَانَ ابْنُ الْآنِ !
وَقَالُوا فِي الْجُلُوسِ عَلَى الْمِيَاهِ وَالرِّيَاحِينَ مِمَّا يُسَلِّيُ الْعَاشِقَ وَيَتَلَاوَى مِنْ
أَحْزَانِهِ بِهِ . وَأَمَّا أَنَا ، فَأَقُولُ إِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ فِي تَذْكَارِهِ ؛ وَنَقِيمُ الْبُرْهَانِ
عَلَى ذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ لَا تَوَلِّعُ إِلَّا بِمَا اسْتَحْسَنَتْ ؛ فَكُلُّ مُسْتَحْسِنٍ تَرَاهُ

(١) سورة النور : ٤١ . (٢) سورة الإسراء : ٤٤ . (٣) سورة الأنعام : ١٣٠ .

يُخْرِجُهَا إِلَى ذِكْرِ الْأَشْيَاءِ فِي خَاطِرِهَا ، وَكُلُّ حَدِيثٍ إِنَّمَا يَسُوقُهُ إِلَيْهِ ؛
وَكُلُّ مَا زِيدَ تَذْكَارًا زَادَ شَوْقًا ، فَأَعْقَبَهُ سَهْرًا وَقَلَقًا . وَالشَّيْءُ لَا يُعَانِي
إِلَّا بِضَدِّهِ : فَكَيْفَ يَشْفَى بِحُسْنٍ وَيُسَلِّهِ حُسْنٌ ؟ بَلْ يُوقِظُهُ وَيَشْغَلُهُ !
أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَكْرُوبَ يَتَفَرَّجُ بِالسُّرُورِ ، وَالسُّرُورَ ، يَضْمَحِلُّ بِالْكَدَرِ ؟
وَلَيْسَ لِعَاشِقٍ مُرَزَّإٌ بِمَالٍ وَلَا أَهْلٌ ، فَيَتَسَلَّى بِمَا يُذْهِبُ غُصَمَهُ ؛ بَلْ
هُوَ مِنْ شَأْنِهِ فِي لَذَّةٍ حَلَاوَتِهَا مَشُوبَةٌ بِحَرَارَةٍ : وَهُوَ حُكْمُ الْحُلُوكَةِ فِي
الْمَذَاقَةِ ، لَا يَكُونُ إِلَّا مَائِلًا إِلَى الْحَرَارَةِ ؟ وَكَذَلِكَ فِي الْمُشْتَهَاتِ : كُلُّ
مَا نَمَتْ حَرَارَتُهُ ، طَابَ رِيحُهُ .

- وإذا قاس حالَ أزمِنَتِهِ التي كانت تَسْرُهُ على ضروب من حالات
الصبوة ، لم يَجِدْ فِيهَا مَدَّةً كانت عنده أَفْضَلَ ، وَأَبْلَغَ فِي السُّرُورِ ، وَأَهْشَّ
لِلنَّفْسِ وَاللِّبْقِ * بِالْحِسِّ وَأَذْكَى لِلْقَلْبِ ، وَأَصْنَفَى مَشْرَبًا ، وَأَهْنَأَ طَعْمًا ، مِنْ (١) ٧٧
تِلْكَ الْمُدَّةِ ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا بَعْضُ جَرَى ؛ فَإِنَّهُ « لَا بُدَّ بَعْدَ الشَّهْدِ
مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ » ، وَدَوَاؤُهُ ، مَا لَا يَرْضَاهُ ، وَلَا يَخْتَارُهُ بَدَلًا مِمَّا هُوَ
فِيهِ ؛ إِنْ يَشْغَلُهُ مِنْ ذَلِكَ خَطْبٌ كَبِيرٌ ، يَنْسَى بِهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ ، وَالَّذِي
١٥ هُوَ بِسَبِيلِهِ عِنْدَهُ أَوْلَى .

٩٤ — تأملات نظرية وأمثلة يضرها المؤلف

من قصّة حياته عن الطموح وزوال خيرات الدنيا

- وَالصَّبْوَةُ تُحَدِّثُ لِلإِنْسَانِ هَيْجَانًا وَهُمُومًا : كَالْمُهَمِّمِ بِالنَّظَرِ فِي مَالِهِ ،
أَوِ الْمُشْغَبِ بِمُحَاوَلَةٍ مَا يُصْلِحُهُ ؛ فَلَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ ضَارًّا ، بَلْ يَوْمٌ مِنْهُ
٢٠ مُكَابَدَةُ الْأَعْدَاءِ وَمَقَاسَاةُ طَلَبِ الْعَيْشِ ، الَّذِي ، إِنْ فُتِرَ عَنْهُ شَيْءٌ ، لَا طَلَبَ

الزيادة في الرزق . فإن ذلك يسعى كالطير الذي هو بالخيار في الكد والراحة .

- والنفس تَوَاقَّةٌ : متى سَمِعَتْ إلى مَرْتَبَةٍ ، تَأَقَّتْ إلى ما فوقها ؛ فالعاقِلُ يَرَى أَنَّ كُلَّ كَيْدٍ وَطَلَبٍ دُونَ السَّعْيِ فِي طَلَبِ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ مِنْ قِوَامِ الْعَيْشِ فَخَرٌ وَأَشْرٌ وَرَغْبَةٌ وَحِرْصٌ . ولذلك هو الإنسانُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مَسْئُولٌ ، إِلَّا عَنْ ثَلَاثَةٍ : طَعَامٌ يَسُدُّ جَوْعَهُ ، وَثَوْبٌ يَسْتُرُ عَوْرَتَهُ ؛ وَبَيْتٌ يَكُنُّهُ مِنَ الشَّمْسِ . وَلَوْ أَنَّ لَهُ الدُّنْيَا أَتَّجَعَ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهَا زَائِلًا إِلَّا حَظُّ التَّيْنِ الَّذِي يَسْتَوِي بِهِ فِيهِ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِطِينَ ، فَسَلِمَ مِنْ تَبَاتِهِ ، وَتَوَرَّطَ هُوَ فِي حِسَابِهِ وَأَوْزَارِهِ ، وَمَا كَانَ إِلَى انْقِطَاعِ وَفَادِهِ . فَحَقِيقٌ عَلَى الْيَسِيبِ أَنْ يَزْهَدَ فِيهِ ؛ لَوْ آلَتْ حَالُهُ إِلَى السَّلَامَةِ بَعْدَ ذَهَابِهِ ، لَا عَلَيْهِ وَلَا لَهُ ؛ فَكَيْفَ ، وَهُوَ قَدْ أَتَقَّنَ بِالْفَنَاءِ وَبَعْدَهُ الْحِسَابُ وَالْجَنَّةُ أَوْ النَّارُ ؟ وَقَالَ الْمَسِيحُ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « الدُّنْيَا فَنَظْرَةٌ : فَاعْبُرُوهَا وَلَا تَعْمُرُوهَا ! » عَلَى أَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَحَدٌ يَزْهَدُ فِي حَالِ كُلِّ الزَّهَادَةِ ، حَتَّى يَبْلُغَ مِنْهُ أَمَلُهُ أَوْ بَعْضُهُ ؛ فَإِنَّ الزَّهَادَةَ الطَّبِيعِيَّةَ إِنَّمَا تَكُونُ فِيمَا تَكْرَهُهُ النَّفْسُ ، وَلَا بُدَّ مِنْ مَيْلِهَا إِلَى مَا فِيهِ أَذَى مُرَوِّرٍ . وَاللَّهُ يَقُولُ فِي الْإِنْسَانِ ، لِعَلِمِهِ بِهِ ^(١) : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ ؛ فَكَأَنَّ الشَّيْءَ ، إِذَا أُدْرِكَ ، انْصَرَفَتْ عَنْهُ النَّفْسُ لِبُلُوغِ نَهْمَتِهَا ؛ وَمَتَى تَمَنَّعَ عَلَيْهَا ، كَانَتْ بِهِ أَشَدَّ (ب) كَلَفًا .

- وَلَقَدْ بَلَّوْتُ مِنْ نَفْسِي بَعْضَ ذَلِكَ ، إِذَا الطَّبَعُ الْبَشَرِيُّ وَاحِدٌ ، لَا يَكَادُ يَخْتَلِفُ إِلَّا فِي الْأَقْلُ ؛ وَلِذَلِكَ أَمَرَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَحِبَّ لِأَنْبَاءِ

جنسه ما يجبُ لنفسه ، حظاً على العدل والإنصاف .

وأجدني في كثرة المال ، بعد تملكى عليه مع ذهابه ، أزهّد منّي فيه قبل اكتسابه ، مع سُفوفِ الحال إذ ذاك على ما هي عليه الآن . وكذلك شأني كلّ في كلّ ما أدركته قبل من الأمر والنهي ؛ واكتساب الذخائر ، والتأقّي في المطاعم والملابس والمرائب والمباني ، وما شاكل من الأحوال الرفيعة التي نشأنا عليها ، حتّى إنّه لم يبق من ذلك ما تتمناه النفس ، وما لا تظنّه ، إلّا وقد بلغتنا منه الغاية ، وتجاوزنا فيه النهاية ؛ ولم يكن عند الحصول عليه ينقطع وينهب وشيكاً ، فتطول عليه الحسرة ، ويُعدّ من جملة الأحلام ! بل ، تمادى برهةً من عشرين عاماً ؛ وما كان قبله يكاد أن يؤاخره ؛ إذ ربّينا في حِجرٍ .

ووجدتني ، بعد فقد هذا كلّ ، على الولدِ أحرص منّي على ما سواه من كلّ ما وصفتنا ، لقدم ذلك الوقت ؛ وقلتُ في نفسي : « الغاية التي إليها يسعى الناسُ من أمر دُنياهم ، قد أدركناها ، وشهرنا بها في الآفاق ؛ ولا بُدّ من قعدها ، باكراً كان أو مؤخراً ، ببقاء أو موتٍ ! فنحسب هذه العشرين عاماً هي مائة عام ، إذا تمت ؛ سواء ، وكأن لم تغن بالأمس ! ونحن الآن جدّراء بالنظر فيما تبتغيه . والله أن يقضي ما شاء ! » وقيلَ لرجلٍ حرّاثٍ : « هل زرعتم ؟ » فقال : حرثنا . والله الزارع ! » وكذلك ذكّر أنّه لم يبق من المتوكّلين على الله غير المزارعين ؛ فإنهم يدفنون في الأرض أقواتهم ويطلبون فضل الله وبرّكته .

٩٥ - يتحدث المؤلف عن أولاده

وكان تديبرنا هذا إلهاماً لينفذ القدر ، بكون من نشأ لنا من الولد .
لم يتبعه وقته ، ولا كان في غير مكانه .

(وذكر * الفلاسفة أن الوحي يتجراً على ثلاث : كلام وإلهام ، ٧٨ (١) ومنام ؛ وهو قوله تعالى ^(١) : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ . وقيل في قوله ^(٢) - عز وجل - ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ إنما كان وحي إلهام . وكان النبي - عليه السلام - يقول في بعض أقسامه : « لا ا ومقلب القلوب ! » فإنها بين يدي الرحمن يُقلبها كيف شاء لينفذ فيه أحكامه وتجري عليها أقداره .)

١٠ فما بقي لنا من الآمال غير مالٍ حلالٍ للعاش ، يعني عن السؤال ، وعملٍ صالحٍ للمعاد ، يُنجي من العقاب ويوجب الثواب .

وقد كان مشراط الحكيم يكره الوطأ مدة عمره ، يعتقد بذلك أنه مهزوم للجسم ومُسرعٌ إلى الفناء ، قد قيل إن فاعل ذلك مُقتبسٌ من حياته ؛ فمن شاء ، فليقل ، ومن شاء فليكثر ! ولهذا أرجح الجاحظ في « كتاب الحيوان » بأن الخصى إنما طال عمره من أنه لا يجامع . ١٥

وأما أنا أقول إن تلك الساعة التي يستحيل فيها عن الإنسانية بقطعه إلى ^(٣) أشد استغراباً ، وأذهب لجوهرية ، وأقطع لثروقه من أن لو جامع كل يوم في عمره عشر مرات ؛ لأن المجامع مُخرجٌ

(٢) سورة القصص : ٧ .

(١) سورة النحل : ٦٨ .

(٣) بياض كلمة في الأصل ؛ ولعله : « الحيوانية » .

للفضول ، وهذا خُرج منه الجَوْهَرُ ، وفُرِّغَتْ عروقه ، ولُبِّتْ لحمه ، وأضعِفَتْ عَصْبُهُ ، وأرَخَتْ جِلْدَتُهُ .

ولمَّا كَبِرَ سِنُّ سُقْرَاطَ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ الْكِبَرِ إِلَّا الْمَوْتُ ، جَامَعَ مَرَّةً مِنْ عُمرِهِ ، آخِرَ زَمَانِهِ ، وتَأَوَّلَ فِي ذَلِكَ إِنَّمَالًا لِحِكْمَةِ الْبَارِئِ — عَزَّ وَجَلَّ — ؛ وَقَالَ : « لَمْ تَكُنْ حِكْمَةُ النِّسْلِ إِلَّا بِهَذَا الْقَعْلِ ؛ وَإِنْ أَنَا مُتُّ تَارِكًا لَهُ أَضْلًا ، كُنْتُ كَالسَّائِطِ أَوِ الْمُعْتَبِ لِمَا رَتَّبَهُ الرَّبُّ ، وَعَسَى بِذَلِكَ نَسْتَوْجِبُ عِقَابَهُ ! » ثُمَّ قَالَ ، إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ : « مَا أَظُنُّ عِيًّا عَلَى إِلَّا مُجَامَعَةَ تِلْكَ السَّاعَةِ ! »

وكان من نعمة الله على أن رزقني بكثر أولادي ابنة ، لم يزل قَبِلْنَا كُلَّهُ يَتَبَرَّكُ بِهَا ، وَيَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ بِكْرُهُ ابْنًا ذَكَرًا . وقد رأينا في سَيَفِ الدَّوْلَةِ أَيْنًا — رَحِمَهُ اللَّهُ — أَنْ لَمْ تَمْ لَهُ فَرَحُهُ بِذَلِكَ ؛ عَلَى أَنَّ هَذَا * لَيْسَ ٧٨ (ب) عَلَى الْعُموم ؛ وَإِنَّمَا ذَكَرْنَاهُ لِلتَّعَاوُلِ ، إِذْ قَالَ نَبِيُّنَا — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « تَفَاءَلُوا وَلَا تَطَيَّرُوا ! » فَتَحَنُّ قَدْ تَفَاءَلْنَا ، لَا سَبَبًا بِمَا شَهِرَ عِنْدَ أَهْلِنَا وَقَالُوهُ قَدِيمًا ؛ وَلَوْ كَانَ ضِدَّهُ ، مَا ذَكَرْنَاهُ ، لِلنَّهْيِ عَنْهُ .

١٥ ثُمَّ رَزَقْنَا بَعْدَ هَذَا ابْنَيْنِ ؛ فَلَمْ تُبَشِّرْ بِالْأُنثَيْنِ ، كَتَّى لَا يَجْتَمِعَ عَلَيْنَا حَزَنُ ذَلِكَ مَعَ مَا نَحْنُ فِي سَبِيلِهِ ، لُطْفًا مِنَ الْوَهَّابِ وَإِنْعَامًا وَإِحْسَانًا . فَتَعَدَّادُ رِئَمِ اللَّهِ شُكْرُهَا ، وَالْإِعْلَانُ عَلَى وَجْهِ الشُّكْرِ وَالتَّقْوَى ، لَا عَلَى الْفَخْرِ وَالْخَيْلَاءِ ، مِنْ أَوْجَبِ مَا يَأْخُذُ بِهِ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ . قَالَ النَّبِيُّ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ، وَلَا فَخْرَ ؛ وَأَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ ، وَلَا فَخْرَ ! »

٩٦ - توجه المؤلف الحديث إلى قراءته ، راضين عنه أو ساخطين عليه

ثم انصرف وجهُ اهْتِبَالِنَا إلى وَضْعِ هذا الكتاب ، وهو لَعْمَرَى بِمَنْزِلَةِ
الابْنِ الَّذِي يُبْقَى ذِكْرُ أَبِيهِ فِي الْعَالَمِ ، لِنُبَيِّنَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِنَا مَا أَشْكَلَ عَلَى
الْجَاهِلِ مِنْ مَقَالَةٍ سَوَاءٍ [فِي دَوَلَّةٍ ،] زَعَمَ الْحَاسِدُونَ أَنَّ مِنْهَا كَانَ سَقُوطُنَا .
ولن نعدم مع هذا بَرَكَتَهَا لِمَا نَرْجُوهُ مِنْ ثَوَابِنَا ، وَحَسَنَاتِهِ لِبُعْدِنَا مِنْهَا
وَنَزَاهَتِنَا عَنْهَا . وَإِنَّمَا وَضَعْنَا هَذَا الْكِتَابَ لِمَنْ أَشْكَلَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ مِنْ أَهْلِ
الْفَضْلِ وَالْحَقِّ ، الْمُجِبِّينَ ^(١) اللَّهُ فِينَا ، الْوَادِّينَ ^(٢) الْخَيْرَ لَنَا ؛ وَلَا يَزِيدُ
الْبُغَاةُ إِلَّا طَغْيَانًا وَتَعْنِيَةً .

١٠ فَرُدُّ عَلَى أَهْلِ الْإِنصَافِ وَضَوْى الْأَلْبَابِ :
« إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الْخَاطَبُونَ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ! فَعَلَيْكُمْ اعْتِدَادُنَا ، وَإِنَّا كُمْ
خَاطَبُونَ ، وَلَكُمْ مَا تَكَلَّفْنَا ! فَلَا عَمَى بَكُمِ عَنِ الْمَعْرِفَةِ تَحِيدُكُمْ عَنِ الْمِنْهَاجِ ؛
وَلَا شَتَانَ لِرَثَرَةٍ سَلَفَتْ تُحَرِّقُكُمْ إِلَى نَفْثَاتِ الْحَاقِدِينَ ! وَاللَّهُ يَجْلَسُنَا فِي الْجَنَّةِ
إِخْوَانًا ، كَمَا جَلَسْنَا عَلَى الْخَيْرِ أَعْوَانًا ! »

١٥ وَفَرُدُّ عَلَى مَنْ اعْتَرَضَ جَهْلًا أَوْ حِقْدًا :
« اخْصَأْ بِجَهْلِكَ ، وَمُتْ بِغَيْظِكَ ! فَلَيْسَتْ الْأَقْدَارُ جَارِيَةً عَلَى
اخْتِيَارِكَ ، وَلَا أَنْتَ الْمُخَاطَبُ ! بَلْ تَأْخُذُ بِأَدَبِ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ — عَلَيْهِ
السَّلَامُ — فِي قَوْلِهِ ^(٣) : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ
السُّلُوءِ ﴾ .

(٢) أصل : « الْوَاحِدُونَ » .

(١) أصل : « الْمُجِبُّونَ » .

(٣) سورة الْأَعْرَافِ : ١٩٩ .

الجاهِلين ﴿ . وهل تنقم ، أيها الطاعين لنا ، أن ورثنا مُلكاً عن آباء
 كرام ، يَوْمٌ منه خَيْرٌ من عُمرِكَ كُلِّهِ ؟ إِذْ قَالَتْ * الْعَلَمَاءُ إِنَّهُ من عاش ٧٩ (١)
 ذا فَضْلٍ على نفسه وأصحابه ، فهو ، وإن قَصُرَ عُمرُهُ ، طويلُ العُمرِ ،
 مع أَنَّهُ كان في طاعةٍ لم تُوصَفْ مقدماً ، بحمد الله ، بجورٍ ولا ظُنيانٍ ،
 ولا مَنَعْنَا دَمًا ، ولا غَصَبْنَا مالاً . وكانت مُدَّتُنَا فيه نحو من عشرين
 عاماً خَيْراً من سِنينَ ، إِذْ كَيْلَةُ القَدَرِ خَيْرٌ من أَلْفِ شهرٍ . وتَمَامُ اللدِّ
 على قديم الدهر عادةٌ لا تُستَغْرَبُ لنا خاصَّةً . ولا بُدُّ من الفراقِ ! فَلَلهُ الحمدُ
 إِذْ لم نَفْقدها بِفَقْدِ عقولنا ولا أدياننا ، ولا تَمَّتْ بِنِقادِ أعمارنا : فَيَوْمٌ من عُمرِ
 الإنسانِ يَذْكُرُ الله فيه خَيْرٌ من تمامِ عَمَلِهِ ؛ وَمِثْلُهُ على بلاءٍ وتذكُّرٍ
 خَيْرٌ من مِثْلِهِ على فِتْنَةٍ غَفَلَةٍ .

٩٧ - يدفع المؤلف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه
 من أخطاء حياته الخاصة .

ثُمَّ أَضْرَبْتُ عَنْ وَصْفِ كُلِّ جَمِيلٍ قَعْلَنَاهُ ، وَحَزَمَ اسْتَشْرَعْنَاهُ ،
 وَخِدْمَةُ لِلدَّوْلَةِ تَكَلَّفْنَاهَا .

١٥ وَطَلَبْتُ بُنْيَاتِ الطَّرِيقِ ، وَتَنَبَّعْتُ مَا لَا عَارَ فِيهِ عَلَى الْمَلِكِ . وَلَا تَقْصَانِ
 فِي الْمَمْلَكَةِ ، مِنْ رَاحَةٍ تُخْتَلَسُ عِنْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الشَّغْلِ كِي تَعْقِبَ نَشَاطًا ،
 وَعَمَّا دُفِعْنَا إِلَيْهِ تَسْلِيَةً . فَقَدْ قَالَتِ الْحُكَمَاءُ : « تَرَكَ الذَّاتَ يُعْقِبُ
 الْبَرْدَةَ ، وَيُوَثِّرُ فِي الْحِلْدِ أَدْوَاءَ مُنْكَرَةٍ . وَقِيلَ : إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلرَّءِ
 عَلَى الْبَقَاءِ مَقْدُورَةٌ ، فَلْيَتَمَتَّعْ ؛ فَإِنْ تَرَكَ ذَلِكَ لِلنَّفُوسِ .

٢٠ فَهَجَّجْنَا بِلَقْظِكَ ، وَأَخْرَجْتَهَا مِنْ حَيْزِ الْمَزَلِ إِلَى الْجَدِّ ، وَكُنْتَ كَجَارِ

سَبَبَةٌ : إن رأى حسنةً ، كَتَمَهَا ؛ وإن رأى سيئةً ، أَدَاعَهَا . فَطَفَقَتْ
وَأَرَبَيْتَ . إِنِ افْتَرَيْتَ ، وَمَا أَدَعْتَ هَذَا ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ أَكُنْ مَخْلُوعَ
الْعَذَارِ ، وَلَا أَخْلَدْتُ إِلَى رَاحَةِ تَوْجِبِ الْغَفْلَةِ ، كَالَّذِي صَنَعَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا
مِنَ الْمُلُوكِ ، وَتَعَفَّقْنَا عَنِ الدَّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَالْحُرْمِ !

• وَلَمْ يَتَّقَ لَكَ مَا تَقُولُ : « إِنَّمَا كَانَ صَاحِبُ غَرْنَاظَةٍ حَرِيصًا عَلَى جَمْعِ
الْمَالِ ، مُحِبًّا فِي الْحِسَانِ ، يُنَادِمُ الصَّبِيانَ ! » [وَإِذَا] لَمْ تُحَسِّنِ الرُّوْيَةَ ،
وَلَا ظَنَنْتَهُ فِكْرًا .

- أَلَسْتَ تَعْلَمُ ، أَيُّهَا الْجَاهِلُ ، أَنَّ الْمَلِكَ لَا يَنْتَفِعُ مِنَ الْمَالِ إِلَّا بِمَا كَانَ
أَوْقَارًا ؟ وَهَلْ اسْتَوْجِبَ الْمَلِكُ إِلَّا بِذَلِكَ ؟ وَكَيْفَ لَا يَحْرُسُ عَلَى صِيَانَةِ
عِزِّهِ وَالْعُدَّةِ عَلَى عُلُوِّهِ ؟ مَا أَنْسَاكَ لَوْ عَلِمْتَ أَنَّهُ مَنَعَ مِنْ حَقِّكَ أَوْ أُعْطِيَكَ ١٠
فِي غَيْرِ مَا يَجِبُ ؟ هَلْ مَتَى ضَاعَ مَقْفِلٌ ، أَوْ رَفُضَ جُنْدًا ، وَدَخَلْتَ ٧٩ (ب)
دَاخِلَةً مِنَ الْقَتْرِ أَوْ لِلنَّعْ ؟ أَوْ مَتَى شَكَرَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ أَخَذَ مَالًا
بَغْيًا حَقًّا ؟ لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَى تَزْوِيرِ ذَلِكَ ! فَالْأَغْلَبُ يَعْلَمُ صِحَّتَهُ . وَأَكْثَرُ
مِنَ قَوْلِكَ مَتَى خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ شَاعِرٌ بِصِلَةٍ جَزَلَةٍ ، أَوْ مَتَى خَرَجَ [مَادِحٌ]
بِكِسْوَةٍ مَنِيَّةٍ : أَمْرٌ لَا يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى اعْتِذَارٍ ، إِذِ الْعَمَلُ بِهِ مِنَ الْأَذْبَارِ . ١٥
وَأَمَّا مُنَادِمَةُ الصَّبِيانِ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ بَدًّا مِنْ اسْتِعْمَالِ شَيْءٍ مِنَ الْخَمْرِ ،
الَّتِي قَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْهَا ، فَالْإِقَارُ وَالرَّيْبَارُ ؟ لَيْسَ هَذَا بِتَجَلُّسِ حُكْمٍ :
فَيُتَخَيَّرُ لَهُ ذَوُو الْأَسْنَانِ ، وَلَا يُضَيَّعُ لِتَدْيِيرِ رَأْيٍ ، فَيُشَاوَرُ فِيهِ أَهْلُ الْعِلْمِ ،
وَلَا مَيِّدَانِ حَرْبٍ ، فَيُدْعَى إِلَيْهِ أَنْجَادُ الْفُرْسَانِ ! وَلِكُلِّ وَقْتٍ حِكْمٌ :
٢٠ مِنْ اسْتِعْمَالِ فِيهِ غَيْرِ شَاكِلَتِهِ ، قَدْ جَهَلَ . وَلَمْ نَكُنْ مَعَ هَذَا نَأْخُذُ بِهِمْ
فِي جِدِّ ، وَلَا نُمَكِّنُهُمْ مِنْ أَمْرِ ، وَلَا نُنْهَضُهُمْ إِلَى غَيْرِ طَرِيقَتِهِمْ ؟

والمُسْتَعْمَلُونَ لخدمَةِ الدولة مشهورُونَ ؛ مِمَّنْ لَهُ حُكْمَةٌ وَدَرَجَةٌ :
والخديمُ لَا يَكُونُ نَدِيمًا : كَيْفَ تَصُولُ الْيَوْمَ عَلَى مَنْ أَطْلَعَ عَلَى عَوْرَاتِكَ
البارحة ، إِذِ الشُّكْرُ عَوْرَةٌ ؟ أَمْ كَيْفَ تَأْمُرُ بِخِدْمَةِ الْجُنْدِيَّةِ وَالشَّدَقَةِ عَلَيْهِ
فِي الْخُرُوجِ مَنْ تَعَاطَى مَعَكَ الْكَأْسَ ، وَكَثُرَ مَعَكَ الْمَزَاحُ وَالْعَرَبُودَةُ ؟ ثُمَّ
٥ تَطْلُبُهُ لخدمَتِكَ ، فَتَجِدُهُ عَشُولًا عَمَّا يَصْلُحُكَ مَشْغُولًا .

وَبَقِيَ هَذَا كُلُّهُ ، فَإِنَّ الدُّوْلَةَ الْكِبَارَ لَمْ يَزَلْ فِيهَا الْعِلْمَانُ وَأَبْنَاءُ
الصَّنَائِعِ صِغَارًا وَكِبَارًا ، عَبِيدًا وَأَحْرَارًا ، وَهُمْ بَيْنَ يَدَيِ الرَّئِيسِ جَمَالًا ،
وَعَلَى خِدْمَتِهِ أَغْوَانٌ ؛ وَيتَصَرَّفُ الصَّغِيرُ السَّنَّ فِيمَا لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْنِ أَنْ
يَتَوَلَّاهُ . وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ وَرُتَبَةٍ . وَهَلِ الْمُلْكُ وَالْمَالُ إِلَّا لِلتَّزِينِ وَالتَّجَمُّلِ
١٠ بِهِ ، وَاتِّخَابُ الْحِسَانِ مِنْهُمْ تَلِيقٌ بِهِمُ الْكِسْوَةُ السَّنِيَّةُ وَالرَّارِكَبُ الْفَارِهَةُ ؟
وَأَخُوكَ مِنْ وَاتَّكَ ، إِذْ يَتَعَبَّدُ بِمَالِكَ مِنْ شَتَّى يَتَعَبَّدُ [خِدْمَتِكَ مِنْ]
حُرٍّ أَوْ مَمْلُوكٍ . وَإِنَّ ابْنَ الْإِنْسَانِ ، إِذَا لَمْ يَصْلُحْ لَهُ إِنْ يَقُلْ
هَذَا ، أَيْ عَمَلٍ وَلَيْسَ لَهُ عَلَى بَلَدِهِ ، أَوْ صَرَفْنَا إِلَيْهِ حُكْمَ رَعِيَّةٍ ؟ إِلَّا
مَا وَصَفْنَاهُ ، لَا أَدْرِي غَيْرُهُ * وَإِلَّا فَكُونَ مُجْرِحًا ، وَلِإِشَارَتِكَ ٨٠ (١)
١٥ عَاضِدًا ، أَوْ تَكُونَ قَاضِيًا مُسْتَوْجِبًا (١) !

جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ عَنِ الشَّرِّ مُعْرِضِينَ ، وَبَطَاعَتِهِ عَامِلِينَ ! إِنَّهُ أَكْرَمُ
الْأَكْرَمِينَ ! لَا رَبَّ غَيْرَهُ ، وَلَا إِلَهَ حَقَّ حَاشَا !

كل الكتاب . والحمد لله . وصلى الله على
سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

الملحق الأول

مُتَخَبَات عَنْ « كِتَابِ الْبَيَانِ الْمُغْرِبِ »^(١)

لَاِبْنِ عِذَارِي الْمُرَاكُشِيِّ

عَنْ دَوْلَةِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُبْلَقِينَ بْنِ زِيرِي

(١)

٥ وفي سنة ٤٦٥ ، كانت وفاة باديس بن حبّوس على قول المرّادى .
والأكثر على أنّ وفاته كانت ٤٦٩ ؛ هكذا ذكر ابن القطّان فى « نَظْمِ
الْجَمَانِ » .

ذِكْرُ بَيْعَةِ حَفِيدِ بَادِيسِ بْنِ حَبُّوسِ

هو عبد الله بن مُبْلَقِينَ المالك بتدبير اليهودى للتقدم ذكره . وتسمّى
١٠ بالمُظَفَّر بالله ، الناصر لدين الله . وكان غلاماً لم يبلغ الحلم ؛ فاتفق على
مبايعته ووزّراه جدّه ووجوه صِنْهَاجَةٍ . وانفرد بأمره رجلٌ منهم يُعرف
بِسِمَاجَةٍ ؛ فاستقلَّ بحاله ورياسته . وكان لباديس وَلَدٌ خلف من البنين ،
وكان قد أعطاه فى حياته مدينة جَيَّان ؛ فكان ينهمك فى شرب من الخمر ،
ويحدّث أحداثاً قبيحة من القتل ؛ وكانت له كلبه سماها لُبُونَةً ؛ فمن أحدث
١٥ له حادثاً أو استوجب عقوبةً ، أمر به ، فرُمِيَ إلى الكلبة ، فأكلته .

(١) عن مخطوط مكتبة جامع الفرويين بفاس (رقم ١٨٥٥) لم ينشر نصه إلى الآن .

فتفرق الناس عنه وكرهوه ، وانتفقوا على تقديم عبد الله بن بُلقين المذكور .
فقام بأمره سِماجةٌ خير قيام .

وطمع ابن عباد في رجوع تلك الجهة إليه لموت باديس ؛ فحشد من
كان عنده ، واستكثر من الجند ، وقدم إلى إغَرَنَاطة ؛ فبرز عليها وبنى
٥ بقرها حصناً على ستة فراسخ منها ، وملأه بالزُمامة والرجالة ، وترك الخيل
فيه مع قائده ، وأمرهم بالضرب على إغَرَنَاطة وجيَّاتها . فكان ذلك .
ثم لم يزل سِماجةٌ يخدم الصبي إلى أن بلغ مبلغ الرجال ؛ فأراد الانفراد
بجماله ؛ فنفى عن نفسه سِماجة ؛ فلهق بالمرية بمال كثير وحالة جسيمة ؛
ولم يزل بها إلى أن هلك . وبقى عبد الله بن بُلقين بغيرناطة . وسيأتي
١٠ خبره في دولة المرابطين إن شاء الله تعالى .

(٢)

وفي سنة ٤٨٢ ، طرد عبد الله بن بُلقين من غرناطة مقاتل بن عَطِيَّة
الزَنَاطي ، وكان فارسَ الإسلام ، وهو مع إخوته في ثلاثمائة فارس . فكان
ذلك ابتداء نحوس عبد الله بن بُلقين .

١٥ وفيها ، قام مؤمِّل ، مولى باديس بن حبُّوس ، في قصبة لَوْشَة ، على
حفيد موله بدعوة لَمْتُونَة ؛ فأخذه عبد الله وسجنه .

.....

فأول من شهر الخلاف على يوسف بن تاشفين صاحب إغَرَنَاطة عبد الله
ابن بُلقين ، كما ذكرنا ؛ فنظر في اختزان الأقوات ، وألحق الزُمامة
٢٠ والرجال ، وأعلى الأبراج ، وبنى الأسوار ، ووصل بعضها ببعض ، وأقام

عليها الدِّيبَانَات ، ونصب الرِّعَادَات ، وملاً بيوت السلاح ، وجدَّ في ضرب
السَّهَام ، وبذل في ذلك جهده ؛ وإذا نفدت هذه ، لم تَفْنِ العُدَّة ؛ ونقل
اللال والذخيرة ، وخرَّج اللتاع والآنية إلى قَصَبَةِ الْمَنَكَب لكَوْنِهَا في غاية
المنعة وعلى ضَفَّةِ البحر ؛ ولم يستأصل ذلك لكثرتِه ؛ وهدم حصوناً ، توهم
٥ عليه القيام منها ، ومن مَأْمَنِهِ يوثق الحذر .

وعمد على مال كثير ، وثياب قبيسة ، وتُحَفٌ جليلة ، وأعلاق رفيعة ؛
فوجه بها إلى الإذْفُونَش ، وكتب إليه متطارحاً عليه ، مستجيراً به ، وأعلمه
أنَّ البلد بلدُه ، وأنه فيه فائدة . فاهتزَّ لذلك إذْفُونَشُ ، وقبل اللال
والهدايا ، وأقسم بجميع أيمانه ومعتقد مَأْنَتِه أن يشدَّ اليد عليه في ملكه ،
١٠ ولا يتركه لضَبَمٍ ولا هضبة ، وأن ينهض إليه بنفسه ويبذل جدَّه في نصره ؛
وراجعه بمنثل ذلك من قوله . فقويت قسُ حفيد باديس بذلك .

وفي ذلك يقول السَّمْسَارِيُّ :

صَاحِبُ غَرَنَاطَةِ سَقِيَّةٍ وَأَعْلَمُ النَّاسِ بِالْأُمُورِ
صَانِعُ إِذْفُونَشٍ وَالنَّصَارَى فَانْظُرْ إِلَى رَأْيِهِ الدِّيبِ
وشاد بنيانه خِلافًا لِعَاطَاةِ اللَّهِ وَالْأَمِيرِ
يَبْنِي عَلَى نَفْسِهِ سَفَاهًا كَأَنَّهُ دَوْدَةُ الْحَرِيرِ
دَعَاؤُهُ يَبْنِي فَسَوْفَ يَدْرِي إِذَا أَتَتْ قُدْرَةُ الْقَدِيرِ

١٥

وَاتَّصَلَتْ أُنْبَاؤُهُ بِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَقِيقَتِهَا ؛ فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ ؛ وَاسْتَزَادَ

جزعه .

٢٠ وكان أبو جعفر القُلَيْبِيُّ من أهل إغَرَنَاطَةِ فريد عصره في الخير والعلم

والتلاوة ، والمُشَارُ إليه

الملحق الثاني

متنجات عن « كتاب الإحاطة في تأريخ غرناطة »
للسان الدين ابن الخطيب السلماني

(١)

ترجمة عبد الله بن بُلُقَيْن^(١)

٥ عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس بن حَبُوس بن ما كَسَن بن زِيَرِي بن
مَنَاد الصُّنْهَاجِي أمير غرناطة .

أَوَّلِيَّتُهُ : قد مرَّ ذلك في اسم جدِّه ما فيه كفاية^(٢) .

حالُه : لقبُه الْمُظْفَرُ بِاللَّهِ ، الناصر لدين الله . ولى بعد جدِّه الحاجب

المظفَرُ بِاللَّهِ في شوال سنة ٤٦٥ . وصحبه سِمَاجَةُ الصُّنْهَاجِي تسع سنين .

١٠ ﴿ قال الغافِقِيُّ : ﴾ وكان قد حاز حظاً وافراً من البلاغة والمعرفة ،

شاعراً جيِّدَ الشعر ، مطبوعه ، حسن الخط ؛ كانت بفرناطة ربعة مُصَحَّف

بخطه في نهاية الصنعة والإتقان .

﴿ ووصفه ابنُ الصَّيْرَفِيِّ : فقال : ﴾ كان جباناً ، مغمداً السيف ،

(١) مخطوطة الاسكوريال (رقم ١٦٧٣) ، ص ٢١٤ .

(٢) راجع « مركز الإحاطة » (ط القاهرة) ج ١ ، ص ٢٣٨ : ترجمة الأمير باديس بن

حبوس الصُّنْهَاجِي .

قلعاً ، لا يثبت على الظهر ، عزهاة ، لا أرب له في النساء ، هيابة ،
مفرط الجزع ، يخلد إلى الراحة ، ويستوزر الأغمار .

خلعه : ﴿ قال : ﴾ وفي عام ٤٨٣ ، تحرك أمير المسلمين يوسف بن
تاشفين لخلع رؤساء الأندلس ؛ فأجاز البحر ويَمَّ قُرْطُبَة . وتواترت الأنباء
على حفيد باديس صاحب غرناطة بما يغيظه ويحتمده ، حسباً تقدّم^(١) في
اسم مؤمّل مولى باديس . وقدم إلى غرناطة أربع محلات ؛ فنزلت بمقربة
منها ، ولم تمتدّ يده إلى شيء بوجهه ؛ فسرّ الناس واستبشروا ، وأمنت
البادية ، وتسايك أهل الحاضرة إلى القرى . وأسرع حفيد باديس في
المال ، وألحق السوق والمحاكة ، واستكثر من اللقيف ، وألح بالكتب
على إذفونش بما يطعمه .

وتحقّ يوسف بن تاشفين استشراف الحضرة إلى مقدمه ؛ فتحرك .
وفي ليلة الأحد ثلاث عشرة خلت من رجب ، اجتمع إلى حفيد باديس
صنائه ؛ فخوفوه من عاقبة التربص ، وحملوه على الخروج إليه . فركب ،
وركبت أمته ، وخرجا ؛ وتركا القصر على حاله ؛ ولقي أمير المسلمين على
فرسخين من المدينة ، فترجل وسأله العفو ؛ فعفا عنه ووقف عليه ، وأمره
بالركوب ؛ فركب وأقبل حتى نزل بالمشيحة^(٢) من خارج الحضرة .
واضطربت المحلات ، وأمر مؤملاً بثفاف القصر ، فتولّى ذلك .
وخرج الجُم من أهل المدينة ؛ فبايعوا أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ؛

(١) راجع أسفله ، ص ٢١٢ .

(٢) اسم مكان من خارج غرناطة لم نعر عليه . وإنما ثبتناه عن النسخة الثانية الاسكوريالية من
الإحاطة . وفي النسخة الأولى : « بالمشانح » .

قبلهم وأنسهم وسكن جانبهم ؛ فاطمأنوا . وسهل مؤملاً إليه دخول الأعيان ؛ فأمر بكتّيب الصكوك ورفع أنواع القبالات والخراج ، إلا زكاة العين وصدقة الماشية وعشر الزرع . واستقصى ما كان بالقصر ؛ فظهر على ما يحول الناظر ، ويروع الخاطر ، من الأغلاق والدخيرة والحلى ، ونخس الجواهر ، وأحجار الياقوت ، وقصب الزمرّد ، وآنية الذهب والفضة ، وأطباق البلّور الحكم ، والجرجانيّات ، والعراقيّات ، والثياب الرقيقة ، والأنماط ، والكال ، والستائر ، وأوطئة الديباج ، ممّا كان في ادخار باديس واكتسابه . وأقبلت دوابّ الظهر من المنكبّ بأحمال السيّك والمسبوك . واختلفت أمّ عبد الله لاستخراج ما أودع بطن الأرض ، حتى لم يبق إلا الخثرى والنقل والسقط ، وزّع ذلك الأمير على قوّاده ، ولم يستأثر منه بشيء .

﴿ قال ﴾ : ورغب إليه مؤملاً في دخول القصر ؛ فركب إليه ، وكثُر استحسانه إيّاه ، وأمر بحفظه وتقدّد أوضاعه وأمنيّته .

ونُقِلَ عبدُ الله إلى مرّاكش ، وسنّه يومَ خُلِعَ خمس وثلاثون سنة وسبعة أشهر ؛ فاستقرّ بها هو وأخوه تميم ؛ وحلّ اعتقأهما ، ورُقّةُ عنهما ؛ وأجروا المرتّب والمساهمة عليهما . وأحسن عبد الله أداء الطاعة ، مع لين الكلمة ؛ فضيّتْ مآربُه ، وأُسِفَتْ رغبته ، وخفّ على الدولة ؛ فاستراح واستريح معه . ورزق الولد في المحول ؛ فعاش له ابنان وبنتٌ جمع لهم المال ، فلما توفّي ترك لهم مالا جماً .

مولده : وُلِدَ عبد الله سنة ٤٤٧ .

(٢)

ترجمة مقاتل بن عطيّة (١)

مُقاتِل بن عطيّة البرزاليّ ، يكنى أبا حَرْب . قال فيه أبو القاسم الغافقي : من أهل غرناطة ، ويُلقَّب بذي الوزارتين ؛ وتعرف بالرُّبّة المحرقة كانت في وجهه .

حاله : كان من الفرسان الشجعان ، لا يصطلي نباره ؛ وكان معه من قومه نحو من ثلاثمائة فارس من بني برزّال . ولأه الأمير عبدالله بن بلقين ابن باديس مدينة اليُسّانة ، والتقى به ابن عبّاد وأخذ بمخنفها . وكان عبدالله يحزره . وعندما تحقق حركة اللتوتيين إليه ، صرفه عن جهته ؛ فقلّ لذلك قاصره ، وأسرع ذهاب أمره :

شجاعته : قال : وحضر مُقاتل مع عبدالله بن بلقين أمير غرناطة وقية النّيل في صدر سنة ٤٧٨ ؛ فأبلى فيها بلاءً عظيماً ، وجرح وجهه وخرق درعه بالطن والضرب . وذكر من حضرها ونجا منها ، قال : كنت قد سقط الرمح من يدي ولم أشعر ، وحملت الترس ولم أعلم به ، وحلني الله إلى طريق منبجة ، فركبتها مرّةً أقعُ ومرّةً أقوم ؛ فأدركتُ فارساً على فرس أدم ، ورمحه على عاتقه ، ودرقته على فخذه ، ودرعه مهكّةً بالطن ، وبه جرحٌ في وجهه يشعب دماً تحت منفره ، وهو مع ذلك ينهض على رسله ، فرجعتُ إلى نفسي ؛ فوجدتُ قتلاً ؛ فتذكّرتُ الترس ؛ فأخرجتُ حماله عن عاتقي

(١) مخطوطة الاسكوريال (رقم ١٦٧٣) ، ص ١٨٨ .

وَأَلْقَيْتُهُ عَنِّي ؛ فَوَجِدْتُ خَفَةً وَعُدْتُ إِلَى الْمَدْوِ ؛ فَصَاحَ ذَلِكَ الْفَارَسُ : خُذِ
 الترس ! « قلتُ : « لا حاجة لي به ! » فقال : « خُذْهُ ! » فتركته ووايتُ
 مسرعاً ؛ فهمز فرسه ووضع سنانَ رمحِه بين كَتَفَيَّ وقال : « خُذِ الترس ،
 وإلاَّ أخرجُته بين كَتَفَيْكَ في صدرك ! » فرأيتُ الموت الذي فَرَرْتُ منه ،
 ورجعت إلى الترس ؛ فَأَخَذْتُهُ ، وَأَنَا أَدْعُو عَلَيْهِ ، وَأَسْرَعْتُ عَدْوًا . فقال
 لي : « على ما كنتَ فليكن عدوك ! » فاستعذتُ وقلتُ : « ما بعثه الله
 إلاَّ لملاكي ! » وإذا قطعة من خيل الروم قد بصرت به ؛ فوقع في نفسه أنه
 يسرع الجَرَى فيسلم وأُقْتِلَ ، فلما ضاق الطلق ما بينه وبين أقربهم منه ، عطف
 عليه كاللقاب وطعنه ووطره ، وتخلَّص الرمح منه ، ثمَّ حمل على آخر ، فطعنه
 ومال على الثالث ، فانهزم منه ، فرجع إلى ، وقد هبتُ من فعله ، ورشاش
 دم الجرح يتطاير من قِنَاعِ الْمَغْفَرِ لشدَّةِ نفسه ، وقال لي : « يا فاعل ! يا صانع !
 أتلقى الرمح ، ومعك مُقَاتِلُ الرُّيَّةِ ؟ »

(٣)

ترجمة مُؤَمَّل^(١)

مُؤَمَّل ، مولى باديس بن حَبُوس .
 حاله وَحِجَّتُهُ : ﴿ قال ابن الصِّيرِيّ ﴾ وقد ذكر عبد الله بن بُلْقَيْن
 حفيدَ باديس ، واستشارته في أمره لما بلغه حركة يوسف بن تاشفين إلى
 خَلْعِهِ : وكان في الجملة من أحبابه رجلٌ من عبيد جدِّه اسمه مُؤَمَّل ، وله
 سنٌّ ، وعنده دهلاء وفطنة ورأى ونظر .

(١) مخطوطة الاسكوريال (رقم ١٦٧٣) ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

﴿ قال في موضع آخر ﴾ : ولم يكن في وزراء مملكته وأجباء دولته أصيلُ الرأي جَزَلُ الكلمة إلا ابن أبي خَيْثَمَة من كتبه ، ومؤمل من عبيد جدّه ، وجعفر من فتيانه .

﴿ رجع . قال ﴾ : فألطف له مؤمل في القول ، وأعلمه برفقٍ وحُسن أدبٍ أن ذلك غير صواب . وأشار إليه بالخروج إلى أمير المسلمين ، إذا قَرُبَ ، والتطارح عليه ؛ فإنه لا يمكنه مدافسته ولا يطاق حربه ، والاستخذاء له أحد عاقبة وأيمنُ مغبة . وتابعه على ذلك نظراؤه من أهل السنِّ والحكمة ، ودافع في صدر رأيه الغلة الأغمار ؛ فاستشاط غيظاً على مؤمل ومن نحا نحوه ، وهمّ بهم . فخرجوا ، وقد سبل بهم فرقاً منه . فلما جنَّهم الليلُ ، فرّوا إلى كوشة ، وبها من أبناء عبيد باديس فائدها ؛ فلكوها وثاروا فيها بدعوة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .

وبادر مؤمل بخطاب يوسف المذكور ؛ وقد كان سفر إليه عن سلطانه ؛ فأعجبه عقلاً ونبلاً ؛ فاهتزَّ إليه ؛ وكان أقوى الأسباب على حركته . وبادر حفيد باديس لأمره ؛ فأشخص الجيش لنظر صهره ؛ فتغلب عليهم . وسبق مؤمل ومن كان معه شرَّ سوق في الحديد ، قد أركبوا على دوابٍ هجن ، وكُشفت رؤوسهم ؛ وأردف وراء كلِّ رجلٍ من يصفعه . وتقدّم الأمر في نصب الجنوع وإحضار الرماة . ونلطفَ جعفر في أمرهم وقال للأمير عبد الله : « إن قتلهم الآن ، أطقأت غضبك وأذهبت مالك ! فاستخرج المال ، وأنت من وراء الانتقام ! » ففقههم . وأطعموا في أنفسهم ريثما شغله الهول . وأنفذ يوسف بن تاشفين في حلِّ اعتقالهم ؛ فلم تسعه مخالفته . فأطلقهم . ولما ملك غرناطة على تفتية تلك الحال ، قدّم مؤملاً على

مُسْتَخْلَصَه ، وجعل بيده مفاتيح قصره ؛ فقال ما شاء من مال وحظوة ، واقتنى ما أراد من صاميتٍ وذخيرةٍ . ونُسبت إليه بغرناطة آثار ، منها السقاية بباب الفخارين ، والخور المروقة بخور مؤمل . أدركتها ، وهي بحالها .

وفاته : ﴿ قال ابن الصيرفي ﴾ : وفي ربيع الأول من هذا العام ، وهو عام ٤٩٢ ، توفي بغرناطة مؤمل ، مولى باديس بن حبوس ، عبد أمير المسلمين وجابي مُسْتَخْلَصَه . وكان له دهاء وصبر ؛ ولم يكن بقارىء ولا كاتب ؛ رزقه الله عند أمير المسلمين أيام حياته منزلةً لطيفةً ودرجةً رفيعةً . ولما أشرف على النية ، أحضر ما كان عنده من مال المُسْتَخْلَص ، وأشهد الحاضرين على دفعه إلى من استوثقه على حمله ؛ ثم أبرأ جميع عماله وكتّابه ، وأنفذ رجالاً من صناعته إلى أمير المسلمين بجملةٍ من مال نفسه ، يُريه أن ذلك جميع ما اكتسبه في دولته أيام خدمته ، وأن بيت المال أولى به ؛ ورغب في ستر أهله وولده . فلما وصل ذلك إليه ، أظهر الأسف عليه ، وأمضى تقديم صنيعته .

ثم ذكر ما كشف البحث عنه من محتججه ، وشقاء من خلفه بسببه ، وعدد ماله وذخيرة .

فهرس أسماء الرجال

٧١ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ١٠٧ ، ١١٧ ،

١١٨ ، ١٣٠ ، ١٦٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،

٢١٠

باديس بن المنصور (أمير إفريقية) ٢٤

باديس بن واري ١٤٦

باطر (بطره) شولش ٦٩ ، ٧٤

ابن البراء ١٣٧

بزلف (والي السوس) ١٦٣

بقراط ١٨٥

ابن بكر ١٧٠

أبو بكر بن مسكن ١١٨ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،

١٥٧

بلبار الصنهاجي ٨٧

بلقين بن باديس سيف الدولة (والد عبد الله

المؤلف) ١٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٥ ،

٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ،

١٩٩

بلقين بن حبوس ٣٣ ، ٣٥

بلقين بن زاي بن زيري ٢٤

— ث —

ابن ياقنوت ٩٦ ، ٩٧

تميم بن بلقين بن باديس المعز (آخر عبد الله

المؤلف) ٤١ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٩٠ ،

٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٢ ،

١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ،

١٦٢ ، ١٦٣

— ج —

الجاحظ ١٩٨

— ا —

أبو إبراهيم اليهودي (ابن نغالة) ٣٠ ،

٣١ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ .

ولد أبي إبراهيم اليهودي ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ،

٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ،

٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،

٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٦ ،

٨٨ ، ١٣٣ ، ٢٠٥ .

ابن الأحسن السجلماسي ١٠٢ ، ١٧٢

ابن الأحمر ١٤٥

أبو الأحوص بن صاحب (صاحب المرية)

٤٤ ، ٤٥

أختا عبد الله المؤلف ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٤

الإذفونش ٢٠٧ ، ٢٠٩ . وانظر « ألفونش »

ابن أرقم ٥١ ، ٥٢

ابن الأصبحي ٩٧

ابن أسحى الكاتب ٦٣ ، ٦٠

إفلاطون ٨

أبرهانش ١٢٣ ، ١٢٤

ألفونش السادس ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ،

٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ،

٨٤ ، ٩١ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،

١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٢ ،

١١٣ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،

١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،

١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،

— ب —

باديس بن حبوس المظفر (جد عبد الله) ١١ ،

١٢ ، ١٣ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٦٨ ،

جالينوس ١٨٦ ، ١٩٣
 جعفر الخصى ١٥١ ، ٢١٣
 ابن أبي جوش ٨٦

- ح -

حيون بن ماكسن (أمير غرناطة) ١٧ ،
 ١٩ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ،
 ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٦٧
 الحجاج ١٩٢
 ابن الحديدي ٧٧
 ابن الحسن النباهي (قاضي مالقة) ٦٤
 الحكم المستنصر بالله ١٥

- خ -

ابن الخياط المنجم ٧٨
 ابن أبي خيشمة ١٥٨ ، ٢١٣

- د -

داود بن عائشة ١٠٣

- ذ -

ابن ذي النون ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٧ ،
 ٦٩ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨

- ر -

الرازي (ابن المعتمد بن عباد) ١٠٣ ، ١٠٨ ،
 ١١٢ ، ١٧١
 أبو الربيع بن الماطوف ٤٨ ، ١٣٠
 أبو الربيع النصراني ٦٦ ، ٦٨
 الرشيد (هارون) ١٨٤
 الرشيد (ابن المعتمد بن عباد) ٨١
 ابن رشيقي ٨٠ ، ٨١ ، ١٠٨ ، ١١٠ ،
 ١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ١٢٢

١٤٤ ، ١٧٣ ، ١٧٤
 الروي أو النصراني = ألفونس السادس
 الريه (لقب مقاتل بن عطية البرزالي) ٢١١ ،
 ٢١٢
 ابن الريولة ٧٧ ، ٧٨

- ز -

زاوي بن زيري ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ،
 ٢٤ ، ٢٥
 زاوي الصنهاجي ٨٧
 زهير (صاحب الرية) ٣٤ ، ٣٥
 ابن الزيتوني القروي ١٥٨

- س -

سراج الدولة ٨١
 ابن سعدون ١٤٩ ، ١٥٥
 ابن السقاء ٤٥
 سقراط ٨ ، ١٩٨ ، ١٩٩
 ابن سلمون ١١٧
 سماجة الصنهاجي ٧٦ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ،
 ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ٩٦ ،
 ١٤١ ، ١٧٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨
 السمساري ٢٠٧
 ابن سهل (القاضي) ١١٥ ، ١١٨ ، ١٤٦
 السيد للريق ١٧٥
 سير (الأمير المرابطي) ١١٠ ، ١٦٠ ،
 ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤
 سيف الدولة = بلقين بن باديس ولقد عبد الله
 ابن سيق ١٣٢

- ش -

ششلائد ٧٣

- ص -

الصحراري (أبو بكر م يوسف بن تاشفين)
 ١٧١

-ق-

القادر (حفيد ابن ذى الثون) ٧٧ ، ٨٠ ،
 ١٥٣ ، ١٧٣ .
 ولد القاضى (صاحب باغ) ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ،
 قروور ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،
 ١١٦ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،
 ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ،
 ١٧١ ، ١٧٣ ،
 ابن القطان ٢٠٥
 ابن القليجي أبو جعفر ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ،
 ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ،
 ١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٠٧

-ك-

كباب بن تميم ٧٥ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥ ،
 ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠

-ل-

لييب الخصى ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،
 ١٥١
 لثة الخادم ١٥٨
 ابن أبي لولا ١٣١

-م-

ابن ماشاء الله ١٤٧
 ماكسن بن باديس بن حبيوس ٤٠ ، ٤٨ ،
 ٤٩ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ،
 ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٩٤ ،
 ٢٠٦ ، ٢٠٥
 المأمون بن المعتد ١٧٠
 المتوكل بن الأفلح ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٦٥ ،
 ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،
 ١٧٤ ، ١٧٦ ،
 مجاهد (صاحب دائية) ٤٤ ، ٤٥

ابن صاوح = أبو الأحوص والمعتصم صاحب
 المريّة .

أبو الصمصام ١٧١

ابن الصيرفي ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢١٤

-ح-

عباد (المعتضد بن عباد) ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٨ ،
 ٥٩
 عباد بن المعتد ٧١
 العباس بن المتوكل بن الأفلح ١٧٤
 أبو العباس الحكيم ١٣٢
 أبو العباس (كاتب حبيوس) ٢٧ ، ٢٨ ،
 ٣٠

ولد أبو العباس ٣٠ ، ٣١

ولد عباس (كاتب زهير) ٣٤ ، ٣٥

عبد الله بن القروي ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ،
 ٤٠ ، ٤٢ ، ٥٩

عبد الملك (القاضي) ١٠٢

أم العلوي (بنت عم ماكسن) ٦٧ ، ٦٨

علي بن أبي طالب ١٨٣

علي بن القروي ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ،
 ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢

ابن عمار ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ،

٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ،

٩٦

عمر بن عبد العزيز ١١

-غ-

الغافقي (أبو القاسم) ٢٠٨ ، ٢١١

-ف-

فرقان ٢٨ ، ٣٢

الفضل بن المتوكل بن الأفلح ١٧٤

٤٥ ، ٤٤
 المنصور بن المتوكل بن الأفطس ١٧٢ ،
 ١٧٤ ، ١٧٣
 المؤمن بن هود ٧٨ ، ٧٩
 موسى ٨
 موفق (صاحب المدينة) ٣٧
 مؤيد ١١٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ،
 ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ،
 ١٥٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ،
 ٢١٤ ، ٢١٣
 ابن ميمون (أمين عهد اليسانة) ١٣٠ ، ١٣١
 ١٣٢

— ن —

الناية ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،
 ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ،
 ٦٥ ، ٧٠ ، ١٣٣
 نعمان ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٤٨

— ه —

هشام المؤيد ١٥

— و —

واصل الطنج ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨
 والدة المؤلف ٩٤ ، ٩٥ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،
 ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٢١٠

— ي —

يحيى بن يفران ٥٣ ، ٥٧ ، ٥٨ ،
 يدوير بن حياصة بن ماكش ٢٧ ، ٢٨ ،
 ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤
 ابن يعيش ٦٤
 ابن يكون ١٤٥
 يوسف بن تاشفين أمير المسلمين ١٠٢ ، ١٠٣ ،

ولد مجاهد ٦٢ ، ٧٨
 مخلوف بن ملوك ٥٨
 المرادى ٢٠٥
 المرتضى ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٥
 ابن مرتين ٧١
 ابن المرة ١٣٠ ، ١٣٢
 المستعين بن هود ٧٨
 مسكن بن حبوس المغرالي ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٠ ،
 ٦١ ، ٦٢
 المظفر (جد عبد الله) = باديس بن حبوس -
 المعصم بن صادق (صاحب المرية) ٤٥ ،
 ٤٦ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ،
 ٥٦ ، ٥٧ ، ٧١ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ،
 ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٤٤ ، ١٦٤ ،
 ١٦٥ ، ١٦٧
 المعتضد = صباد
 المعتضد بن عباد ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٥ ،
 ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩١ ،
 ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ ،
 ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ،
 ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،
 ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،
 ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ،
 ١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٠٦
 معد بن يعلى ١٣٩
 المعز بن باديس (أمير إفريقية) ٢٤ ، ٢٥ ،
 ٤٣
 المعز = تميم بن بلقين بن باديس -
 معز الدولة بن المعصم بن صادق ١٦٧
 مقاتل بن ضحلية البرزالي ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،
 مقاتل بن يحيى ٤٧
 المقتدر بن هود ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ،
 ابن ملحان ٧١
 منلو بن هود ٧٩
 المنصور بن أبي عامر ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ،
 المنصور بن أبي عامر (صاحب شرق الأندلس)

۱۷۶ ، ۱۷۴ ، ۱۷۲ - ۱۴۳ ، ۱۳۸	۱۰۸ ، ۱۰۷ ، ۱۰۶ ، ۱۰۵ ، ۱۰۴
۲۱۳ ، ۲۱۲ ، ۲۱۰ ، ۲۰۹ ، ۲۰۶	۱۱۴ ، ۱۱۳ ، ۱۱۲ ، ۱۱۱ ، ۱۱۰
۲۱۴	۱۲۰ ، ۱۱۹ ، ۱۱۸ ، ۱۱۷ ، ۱۱۵
یوسف بن حجاج ۱۳۸ ، ۱۴۰ ، ۱۴۱ ، ۱۴۷	۱۲۹ ، ۱۲۸ ، ۱۲۷ ، ۱۲۲ ، ۱۲۱

فهرس أسماء الأمم والقبائل والمائلات

صنهاجة ١٨ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ،	الإفرنج ٤٤ ، ٤٥ ، ٨١
٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٢ ، ٥٤ ،	البربر ١٦ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٤٥ ،
٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٧ ،	١٥٠ ، ٩٣ ، ٦٤
٨٥ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ٢٠٥ ،	بنو يرزال ٦٢ ، ٦٣
بنو عباد ٤٧ ، ٧٩ ، ١٦٤	بنو ثاقناوت ٩٧ ، ٩٨
بنو اللواتكي ٧٧	تلكاتة ٢٤ ، ٥٧ ، ٨٧ ، ١٤٦
لمتونة ٢٠٦	بنو حمود ٤٤
المرايطون ٤٥ ، ٨١ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،	الروم أو النصرى ١٥ ، ١٦ ، ٧٠ ،
١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،	٧٣ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٩ ،
١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،	١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١٢٨ ،
١٣٩ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ،	١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٥٢ ،
١٦٨ ، ١٧٥	١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢١٢
المغاربة ٦٠ ، ٦١ ، ١١٩ ، ١٥٠ ،	زناتة ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
بنو مغيث ٧٧	١٣٧
اليهود ٣٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،	بنو زيري ١٢٨

فهرس الأعلام الجغرافية

١٦٠٤ ١٥٢٤ ١٠٨٤ ١٠٤	أرجوننة (Archidona) ٩٥٤ ٩١
جطرون (Jotron) ٩٤٤ ٩٢	إسطة (Estepe) ٧٥
جليقية (Galice) ٧٢	إشبيلية (Seville) ١٠٣٤ ١٠٢٤ ٧٥
جيان (Jaén) ١٩٤ ٥٣٤ ٥٥٤ ٦٠٤	١٧٥٤ ١٧٠٤ ١٦٨٤ ١٢٨٤ ١٠٥
٦١٤ ٦٣٤ ٧٦٤ ٩٤٤ ٢٠٥	أشتير ٩١
حمارش ٩٤	حصن آشر (Iznajar) ١٩
الحمرام (Alhambra) ١٣٠٤ ٥٤	إغرناطة = غرناطة
الحمة (Alhama) ٩١	آغمات ١٧١
حور مؤيل (بغرناطة) ٢١٤	إلبيرة (Elvira) ٢٠٤ ١٩٤ ١٨٤
دانية (Denia) ٧٩٤ ٧٨٤ ٧٧٤ ٤٥٤	٢٢٤ ٢١
الرملة (La Rambla) ٣٢	أنقيرة (Antequera) ٩٥
رندة (Ronda) ١٧١	أبرش ٩٢
ريه ٩١	باب الفخارين (بغرناطة) ٢١٣
ريشة ٩٤٤ ٩٢	باب فستالة (بمالقة) ٩٢
الزاوية (La Zubia) ٢٢	باغه (Priego) ٦٩٤ ٦٦٤ ٦٤٤ ٤٤٤
الزلافة (Sagrajas) ١٠٦٤ ١٠٥٤ ١٠٤	بسطة (Baza) ٧١٤ ٥٧٤
سبته (Ceuta) ١٢٩٤ ١٠٣٤ ١٠٢٤	بطليوس (Badajoz) ١٠٥٤ ١٠٤٤ ٤٥٤
١٦٠٤ ١٤٦٤ ١٤٥	١٧٣٤ ١٧٢٤ ١١٥٤ ١١٤٤ ١١٣
سرقسطة (Saragossa) ١٢٢٤ ٨١٤ ٨٠٤ ٧٨٤	١٧٤
السطح (عمل) ٣٢٤ ٢٢٤	بلنسية (Valence) ١٥٣٤ ٧٨٤ ٧٧٤
الموس ١٦٣	١٧٥٤ ١٧٣
شاط (Jete) ٩٠	بليش (Velillos) ٧٢٤ ٧١٤ ٧٠٤
شربة ١١٣	١٤٨٤ ٧٤
شرق الأندلس ١٢٢٤ ٨٠٤ ٦٠٤	بيامة (Bacza) ٩٦٤ ٦٣٤ ٦٢٤
شقورة (Segura) ٨١٤ ٨٠٤	تدلى (Dellys) ١٦٨
شليز (Sierra Nevada) ٢٢	تسمير ٧٩
شنت أتلج ٧٢	الجيل (نظر) ١١٣٤ ٢٢٤
شنت مرية (Santa Maria) ٨٠	جريشة ٩٦٤ ٩٧٤ ٩٨٤ ١٠٤
شنيل (Genil) ٢٠	الجزائر (Alger) ١٦٨
شيلس ٧٢٤ ٧١٤	جزيرة الأندلس ١٠٧٤ ١٠١٤
صالحه (Zafia) ٩١	الجزيرة الخضراء (Algeciras) ١٠٣٤ ١٠٢٤

الصحراء (Sahara) ١٥٨

حصنة حبيب ٩٢

حصنة دوس ٩١

طرابلس ٨٩

طليطلة (Tolède) ٧٣ ، ٦٥ ، ٦٢ ، ٥٦

١٠١ ، ٨٠

الملوة (Maron) ١١٨ ، ١٨ ، ١٦

١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٣٩ ، ١١٩

النزيرة ٩٤ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٨

غرناطة (Grenade) ٢٤ ، ٢٣ ، ٢٢

٤٧ ، ٤٤ ، ٤٣ ، ٣٩ ، ٣٤ ، ٢٥

٦٣ ، ٦٢ ، ٦٠ ، ٥٩ ، ٥٣ ، ٥٢

٧٥ ، ٧٤ ، ٧٢ ، ٧١ ، ٧٠ ، ٦٩ ، ٦٥

١٢٠ ، ١١٣ ، ١٠٧ ، ٩٢ ، ٨٦

١٣٧ ، ١٣٤ ، ١٢٩ ، ١٢٣ ، ١٢١

١٥٣ ، ١٥٢ ، ١٥١ ، ١٥٠ ، ١٤٩

١٦٨ ، ١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٦٢ ، ١٥٦

٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٦ ، ١٧٠ ، ١٦٩

٢١٤ ، ٢١٣

فحص غرناطة ٢٢ ، ٤٤ ، ٧٠ ، ١٥٢

فنيانة (Fifiana) ٨٩ ، ٨٨ ، ٦٠ ، ٥٩

الفوقت (Alfuzente) ٣٤

قاشعره ٧٦

قامرة ٩٤

قبريرة ٥٣

قبرة (Cabra) ٦٦ ، ٦٤ ، ٤٤

قرطبة (Gordoue) ٧١ ، ٤٥ ، ٤٣

١٤٧ ، ١٤٦ ، ١٣١ ، ٧٨ ، ٧٧

٢٠٩ ، ١٧٠ ، ١٦٨ ، ١٥٢

قرطمة (Cartama) ٩٤

قرمولة (Carmona) ١٧٠

القصر (حصن) ٩١

قلعة أسطير (Alcala la Real) ٧٥ ، ٧٠

قلعة حماد ١٦٧ ، ١٦٨

قوجر ٣٢

القيروان ٢٤ ، ٢٥

لرقة (Lorca) ٤٤

لوثة (Loja) ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ،

٢١٣ ، ٢٠٦ ، ١٥١

ليبط (Alodo) ٨١ ، ١٠٧ ، ١٠٨

١٢٢ ، ١١٧ ، ١١٥ ، ١١٤ ، ١١٢

١٧٣ ، ١٦٥ ، ١٤٤ ، ١٣١ ، ١٢٤

مارتش (Martos) ٧٦

مالقة (Malaga) ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧

٩٣ ، ٩٢ ، ٩١ ، ٦٤ ، ٥٨ ، ٥٧

١٠٧ ، ١٠٦ ، ١٠٢ ، ٩٦ ، ٩٥

١٣٨ ، ١١٥ ، ١١٣

المدينة ٢١

مراكش ٢١٠ (وانظر مراكش)

مرسية (Murcie) ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١

١٤٥ ، ١٤٤ ، ١١٢ ، ١١١ ، ١٠٨

١٤٦

مروكش ١٢٥ ، ١٧١

المرية (Almeria) ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٤

٩٠ ، ٨٩ ، ٨٨ ، ٥٧ ، ٥٦ ، ٤٥

١٦٧ ، ١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٢٣ ، ١١٣

٢٠٦ ، ١٦٨

مرية بلش (Velez Malaga) ٩١

المشيخة ٢٠٩

المطمر ٧٦

مكناسة الزيتون ١١٥ ، ١٦٠ ، ١٦١

١٧١ ، ١٧٠ ، ١٦٣

منت ماس ٩٢

المتورى ٨٨ ، ٨٩

النكب (Almuficars) ٤٤ ، ٥٣

١٢١ ، ١٢٠ ، ٩٠ ، ٨٧ ، ٨٥

٢١٠ ، ٢٠٧ ، ١٥٩

ميشش (Mijas) ٩٤

١١٣ ء ٨٧ ء ٨٦ ء ٨٥ ء ٦٤ ء ٥٩

١٢٣ ء ١١٤

اليسانة (Lucena) ء ١٣٠ ء ١٣١ ء

١٤٨ ء ١٤٥

النيل (Nivar) ٢١١ ء ١٢٩

نيمش ٩٦

الهند ء ١١٨

وادي آش (Guadix) ء ٢٨ ء ٣٩ ء ٤١

٤٤ ء ٥٣ ء ٥٥ ء ٥٦ ء ٥٧ ء ٥٨

فهرس الفصول

صفحة

١	مقدمة الناشر
١	الفصل الأول : نظرات عامة للمؤلف
١	١ - القواعد التي يتعين للمؤلف اتباعها
٣	٢ - حقيقة الإسلام والرد على من لا يؤمن به
٦	٣ - قصور القياس دون عون من الرضى
١٠	٤ - ضرورة التعلم والتجربة
١١	٥ - التكوين السياسى للمؤلف
١٣	٦ - صعوبة الإنصاف التاريخى
١٤	٧ - المصادقة وأثرها فى التأريخ - مثل المنصور
	الفصل الثانى : الأحداث المهمة لقيام دولة بنى زيرى وأوليات هذه الدولة . أيام زوى بن
١٦	زيرى وجوس بن ماكسن
	٨ - الإصلاح العسكرى الذى أدخله المنصور . قنوم بنى زيرى إلى الأندلس وقيام
١٦	دول الطوائف
١٨	٩ - استقرار بنى زيرى فى البيرة بناء على طلب أهلها
٢٠	١٠ - رد الفعل الذى أحدثه فى الأندلس قيام دولة بنى زيرى . اختطاط غرناطة
٢٢	١١ - خروج المرتضى لحرب بنى زيرى وهزمته
٢٤	١٢ - رحيل زوى بن زيرى إلى إفريقية وموته هناك مسموماً
٢٥	١٣ - إمارة جوس بن ماكسن
٢٧	١٤ - المؤامرات التى دبرت لإسناد الإمارة إلى يدير بن حياصة . موت جوس
٣٠	الفصل الثالث : إمارة باديس بن جوس . (١) من أوليتها إلى موت ابن نقرالة
٣٠	١٥ - أولية إمارة باديس بن جوس وتعاظم الوزير اليهودى أبى إبراهيم
٣٢	١٦ - فشل المؤامرة التى دبرها يدير بن حياصة ضد باديس
٣٤	١٧ - انتصار باديس على زهير صاحب المرية
٣٦	١٨ - شخصية الأمير بلقين سيف الدولة والد المؤلف
٣٦	١٩ - نشاط يوسف بن نقرالة اليهودى ومؤامراته

صفحة

٢٠ - موت الأمير بلقين مسموماً	٣٩
٢١ - ما بلغ ابن نقرالة من المكان الأرفع	٤٢
٢٢ - استيلاء باديس على مالقة	٤٣
٢٣ - علاقات باديس ببني صمادح أصحاب المرية	٤٤
٢٤ - وصول الناية إلى غرناطة . حظوته ومنافسته اليهودي	٤٦
٢٥ - إجللاء الأمير ماكسن بن باديس	٤٨
الفصل الرابع : إمارة باديس بن حبوس - (٢) من موت ابن نقرالة إلى نهايتها	
٢٦ - مؤامرة للوزير اليهودي ابن نقرالة . ثورة صنهاجة عليه وقتله	٥٠
٢٧ - الحركة الموقفة التي قام بها باديس لانتزاع وادي آش من أيدي ابن صمادح	٥٥
٢٨ - الحركة الموقفة التي قام بها باديس لانتزاع مالقة من يد ابن عباد	٥٧
٢٩ - الكشف عن أمر فنيانة وقتلتها	٥٩
٣٠ - استيلاء باديس على مدينة جيان	٦٠
٣١ - استيلاء الناية على يباسة	٦٢
٣٢ - مؤامرة ضد الناية ومقتله	٦٣
٣٣ - استدعاء الأمير باديس ولده ماكسن ورجوعه إلى الحضرة	٦٦
الفصل الخامس : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (١) مشاكل	
٦٩ الأندلس الخارجية وحال الجزيرة عند ابتداء إمارة عبد الله	
٦٩ ٣٤ - رفض مطالب ألفونس السادس واشتراكه مع بن عمار	
٧١ ٣٥ - المهادنة بين عبد الله وابن صمادح صاحب المرية	
٧٢ ٣٦ - مهاجمة ألفونس السادس على غرناطة واضطرار عبد الله إلى المهادنة معه	
٧٦ ٣٧ - استيلاء ألفونس السادس على طليطلة	
٧٧ ٣٨ - استيلاء ابن هود على دانية . بعض أخبار بني هود	
٧٩ ٣٩ - ثورة ابن عمار على المعتمد بمروية إلى أن أخرجه منها ابن رشيق . أعماله بعد ذلك ومهلكه الشنيع	
٨٢ ٤٠ - عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد صاحب أشيلية	
٨٢ ٤١ - المؤلف يتحدث من منهجه في كتابة مذكراته	
الفصل السادس : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٢) مشاكل	
٨٤ غرناطة الداخلية إلى قنوم المرابطين	
٨٤ ٤٢ - عزل الوزير سلجقة ، ثم إجلأؤه واستقلال عبد الله في الأمر	

صفحة

- ٤٣ - النزاع على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة المرية . تعاقب أحداثه وحله ٨٨
- ٤٤ - توجيه عسكر ضد تميم بن بلقين صاحب مالقة وألغى المؤلف ، ونصره إياه ٩٠
- ٤٥ - ذكر ثورة كباب بن تميم وثورة بني تاقنوت ونهايتهما ٩٥

الفصل السابع : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٣) قدوم

- المرابطين إلى الأندلس وموقعة الزلاقة ومحاصرة حصن لبيب ١٠١
- ٤٦ - مقدمات تدخل المرابطين في شؤون الأندلس ١٠١
- ٤٧ - إرسال سفارات أندلسية إلى مراکش . احتلال المرابطين الجزيرة الخضراء ١٠٢
- ٤٨ - تجمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد ١٠٤
- ٤٩ - موقعة الزلاقة وانتصار المسلمين على ألفونش السادس ١٠٤
- ٥٠ - يوسف بن تاشفين يعقد مجلس رؤساء الأندلس بعد المعركة . بدء الخلاف بين المتحالفين ١٠٦
- ٥١ - عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس . حصار حصن لبيب ١٠٨
- ٥٢ - محاصرة لبيب . تصور فوضى ملوك الطوائف في ذلك الحين ١٠٩
- ٥٣ - النزاع بين ابن عباد وبين ابن رشيح ١١٠
- ٥٤ - رفع الحصار عن لبيب . تفرق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم ١١٢

الفصل الثامن : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٤) سياسة

- عبد الله بعد عودته من لبيب . إجراءات دفاعية وسياسية ١١٤
- ٥٥ - تشاؤم عبد الله بعد رجوعه من حصار لبيب . ممالك قرور ١١٤
- ٥٦ - بعض المؤامرات وتخاذل القليعي ١١٦
- ٥٧ - سيرة الجند مع الأمير في ذلك الحين . تشييد الحصون ١١٩
- ٥٨ - معاقبة عبد الله مع البرهانش وكرلى ألفونش السادس ١٢٢
- ٥٩ - التزام عبد الله على أداء الجزية لألفونش السادس وعقد اتفاق جديد معه ١٢٤
- ٦٠ - تهديد يوسف بن تاشفين إلى عبد الله . عبد الله يبرر مسلكه ١٢٧

الفصل التاسع : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٥) الحوادث

- الأخيرة قبل النزاع وفكر الكارثة ١٣٠
- ٦١ - ثورة يهود مدينة الريانة ١٣٠
- ٦٢ - قضية زفانة ١٣٣
- ٦٣ - انقلاب مؤمل وثورته في لوشة ١٣٦

صفحة

- ٦٤ - وصف التائر نعمان وسيرته ضد عبد الله ١٣٩
- ٦٥ - مسألة زواج الأميرتين أنسى عبد الله ١٣٩
- ٦٦ - حديث معترض عن نصحاء الأمير عبد الله ١٤١
- ٦٧ - رجع الحديث عن زواج الأميرتين أنسى المؤلف ١٤٣
- ٦٨ - تدخل الأمير عبد الله في مسألة مرسية وغضب المعتد ١٤٤
- ٦٩ - إرسال سفارة إلى يوسف بن تاشفين بسبته من قبل عبد الله وإيقاع الخوف في نفسه بعد رجوعها ١٤٥

الفصل العاشر : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٦) استسلامه

- السلطان المرابطي . يحته . إخراج من الأندلس ونفيه ١٤٧
- ٧٠ - عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وبده مقاتلته إياه ١٤٧
- ٧١ - وصول الجيش المرابطي قبالة غرناطة ١٤٩
- ٧٢ - الحالة داخل حضرة غرناطة ١٥٠
- ٧٣ - لا يجد عبد الله مخرجاً إلا بالتسليم ١٥١
- ٧٤ - تسام الأمير عبد الله ونهب أمواله ١٥٤
- ٧٥ - نفي الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى ١٦٠
- ٧٦ - عزل الأمير تميم صاحب مالقة وأنسى عبد الله . نفيه ١٦٢

الفصل الحادي عشر : عزل يقية ملوك الطوائف ومصيرهم بعد ذلك ١٦٤

- ٧٧ - موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة ١٦٤
- ٧٨ - حركات المرابطين على المرية ١٦٧
- ٧٩ - توتر العلاقات بين الأمير المرابطي والمعتد ١٦٨
- ٨٠ - الاستيلاء على قرطبة وإشبيلية ونفي ابن عباد ١٦٩
- ٨١ - ققول يوسف بن تاشفين إلى مراكنس ١٧١
- ٨٢ - عزل المتوكل بن الأفطس صاحب بطليموس ومهلكه ١٧٢
- ٨٣ - نشاط المرابطين ضد النصارى . استيلاء « السيد » لذريق على بلنسية ١٧٥
- ٨٤ - تأملات في تقلب الأقدار ١٧٦

الفصل الثاني عشر : تأملات أخيرة بعد النفي ١٧٨

- ٨٥ - المؤلف والشعر ١٧٨
- ٨٦ - استطراد المؤلف إلى الكلام عن طالعه ومصيره ١٧٩
- ٨٧ - آراء المؤلف في التنجيم ١٨١

١٨٢	٨٨ - آراء طيبة في الأغذية والنبيل
١٨٨	٨٩ - رجع الكلام عن التنجيم
١٩١	٩٠ - مسائل فلكية
١٩٢	٩١ - تحديد العلوم الطبيعية والطلب
١٩٣	٩٢ - نقض قول من ينكر أن الجن تتكلم
١٩٤	٩٣ - حديث عن المسرة وعن هموم الهوى والشباب
	٩٤ - تأملات نظرية وأمثلة يضربها المؤلف من قصة حياته عن الطموح وزوال خيراته
١٩٥	الدنيا
١٩٨	٩٥ - يتحدث المؤلف عن أولاده
٢٠٠	٩٦ - توجه المؤلف الحديث إلى قرائه راضين عنه أو ساخطين عليه
٢٠١	٩٧ - يبلغ المؤلف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه من أخطاء حياته الخاصة

٢٠٥	الملحق الأول : منتخبات من « كتاب البيان المغرب » لابن عطارى المراكشى عن دولة الأمير عبد الله
	الملحق الثاني : منتخبات من « كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة » لسان الدين ابن الخطيب :

٢٠٨	(١) ترجمة عبد الله بن بلقين
٢١١	(٢) ترجمة مقاتل بن عطية
٢١٢	(٣) ترجمة مؤمل

٢١٥	فهارس الكتاب
-----	--------------

en préparation, sera en grande partie éclairée sous un nouveau jour grâce à cet appoint d'une documentation fort riche et non suspecte.

* * *

Le manuscrit des "Mémoires" de 'Abd Allâh contient au total 80 feuilles d'épais papier de grand format [23 x 31 centimètres], inventoriées à la bibliothèque d'al-Qarawiyyîn à Fès sous le No. 1886. L'écriture est du genre *mabruî* andalou; la copie est en général en bon état de conservation; seuls deux feuillets sont fort mutilés. Nous avons adjoint au texte deux appendices comportant des passages inédits du *Kutûb al-Bayân al-mughîb* d'Ibn 'Idhârî et de l'*Ihâfa* de Ibn al-Khaṭîb sur 'Abd Allah et deux personnages importants de son règne. Enfin une carte permettra au lecteur de retrouver les plus importantes localités du Sud de l'Espagne qui sont citées dans le texte.

Je voudrais, pour terminer, signaler à ceux de mes lecteurs qui s'étonneront de certaines acceptions ou de certaines tournures des "Mémoires" que la langue de 'Abd Allâh, bien qu'en général correcte, a subi dans une certaine mesure l'influence de l'arabe vulgaire hispanique et qu'il faut pour comprendre certains mots qui peuvent paraître erronés, faire appel principalement au *Supplément aux Dictionnaires arabes* de Dozy.

Je n'ai pas besoin de signaler d'autre part au lecteur que les titres qui ont été introduits pour séparer les diverses sections des "Mémoires" et en annoncer le contenu n'existent pas dans le texte original.

Paris, 26 juin 1955

R. L.-P.

sinhâjienne des Banû Zîrî. Né en 447 [1056], il fut désigné à la mort de son père Buluggîn Sayf al-dawla, en 456 [1064] comme l'héritier présomptif de son grand père Bâdîs ibn Ḥabûs, et il lui succéda sur le trône de Grenade en 469 [1077], tandis que son frère Tamîm al-Mu'izz devenait prince indépendant de Malaga. Son règne ne fut qu'une longue suite de troubles à l'intérieur de son royaume, de conflits armés avec ses voisins musulmans et de compromissions avec le roi de Castille Alphonse VI. Au moment de l'intervention des Almoravides en Espagne, il participa aux campagnes d'al-Zallâqa et d'Aledo. Mais ses tractations avec le roi chrétien finirent par lui coûter son trône. En 483 [1090], Yûsuf ibn Tâshufîn vint le bloquer dans Grenade et il dut se rendre à sa merci. Il fut déchu de son trône et envoyé en exil dans le Sud du Maroc, à Aghmât, où il finit ses jours.

Ce fut au cours de son séjour forcé à Aghmât que 'Abd Allâh composa ses "Mémoires". Cette autobiographie — on pourra s'en rendre facilement compte — constitue la somme documentaire la plus considérable et la moins déformée que l'on possède sur l'histoire des *mulûk al-ṭawâ'if*. Malgré de longues digressions dans lesquelles l'auteur tente de justifier sa position politique devant les périls qui menaçaient son royaume, le *Kitâb al-Tibyân* fournit une chronique extrêmement détaillée de tous les événements qui aboutirent en 478 [1085] à la prise de Tolède par Alphonse VI, et, l'année suivante, à l'intervention des Almoravides dans la Péninsule ibérique.

C'est en même temps un document psychologique de premier ordre, qui permet, beaucoup mieux que les chroniques postérieures, de juger de l'état de décomposition sociale et politique de l'Espagne musulmane avant et après la bataille d'al-Zallâqa et des progrès accomplis à cette époque par les champions de la Reconquête chrétienne. Le récit des événements antérieurs au propre règne de l'émir 'Abd Allâh est également fort nouveau et fort important. Les "Mémoires" du prince de Grenade doivent être considérées, à partir de l'époque où prend fin la chronique d'Ibn Ḥayyân, comme un fil conducteur à travers l'histoire confuse des *ṭawâ'if*. Cette période, qui sera décrite au quatrième tome de mon *Histoire de l'Espagne musulmane*, actuellement

cahiers manuscrits jetés au rebut dans une dépendance de la mosquée d'al-Qarawiyyîn à Fès depuis au moins six siècles.

On savait, grâce à une indication fournie par la chronique anonyme intitulée *al-Ḥulal al-mawshāya*, que l'émir 'Abd Allāh avait composé un livre sur la dynastie fondée en Espagne par sa famille et dont il fut le dernier représentant. Quand, en 1934, je donnai une première édition de la partie relative à al-Andalus du *Kitāb A'māl al-a'lām* d'Ibn al-Khaṭīb, le passage suivant [p. 269] retint mon attention. "J'ai vu un *diwān*, écrit de sa propre main, que 'Abd Allāh ibn Buluggīn composa, après sa déposition, dans la ville d'Aghmāt; il y relate son histoire et les événements qui concoururent à sa chute, et cette œuvre est fort curieuse. Le prédicateur de la mosquée d'Aghmāt me fit cadeau de ce document". Nous savons, grâce à une précision fournie par le même ouvrage, qu'Ibn al-Khaṭīb visita Aghmāt et le tombeau d'al-Mu'tamid Ibn 'Abbād en 781 [1360]. Et l'on peut se demander si le manuscrit que nous avons utilisé n'est pas, sinon cette copie elle-même, du moins une seconde copie faite sur l'original et confrontée avec lui, comme le prouve la mention fréquente: *ṣahha; aṣl^m*.

Enfin, un autre hasard de lecture devait me révéler le titre exact des "Mémoires" de 'Abd Allāh: en effet, d'un passage du *Kitāb al-Marqaba al-'ulyā*, [p. 97], ouvrage sur la judicature andalouse que j'ai publié au Caire en 1948 et dont l'auteur fut le célèbre Ibn al-Ḥasan al-Nubāḥī, il ressort que le livre s'intitulait *al-Tibyān 'an al-ḥāditha al-kā'ina bi-dawlat Banī Z̧ḩr fi Gharnāṭa*.

Ce titre dit bien ce qu'il veut dire: l'auteur, détrôné et exilé, s'est proposé de relater l'histoire de son règne et les circonstances de sa chute.

Qui était cet émir 'Abd Allāh et quelle valeur faut-il attribuer à son livre ? Qu'il me suffise de résumer ici ce que j'en ai écrit récemment dans la nouvelle édition de *l'Encyclopédie de l'Islam* [p. 45].

'Abd Allāh ibn Buluggīn ibn Bādīs ibn Ḥabūs ibn Z̧ḩr fut le troisième et dernier souverain du royaume de Grenade fondé après la chute du califat de Cordoue par une branche collatérale de la famille berbère

AVANT - PROPOS

L'ouvrage dont on va trouver ici la plus grande partie du texte — tout ce qui en a été jusqu'ici retrouvé — est déjà connu de tous ceux qui ont étudié quelque peu l'histoire de l'Espagne musulmane et plus spécialement la période de cette histoire dite des *mulūk al-īawā'id*, correspondant en gros au Ve siècle de l'hégire [XI^e siècle de J.-C.]. En effet, au fur et à mesure de leur découverte et à deux reprises, j'en ai publié d'abord trois puis deux fragments étendus dans la revue "al-Andalus" de Madrid, en 1935-36 et en 1941. De l'ensemble aujourd'hui reconstitué, à part la première page et une longue et regrettable lacune centrale, une traduction en espagnol paraîtra à bref délai sous la signature de mon collègue et ami le Prof. E. García Gómez et la mienne. Cette traduction sera accompagnée d'une introduction détaillée et d'un appareil de notes historiques et géographiques auxquelles je renvoie d'ores et déjà le lecteur désireux d'être renseigné en détail sur l'ouvrage que je publie aujourd'hui et sur sa valeur documentaire et littéraire.

Je me bornerai donc ici à quelques indications essentielles. Il n'est pas fréquent de rencontrer, dans l'histoire du monde arabe, des souverains ou des personnages haut placés qui aient pris soin de retracer leur carrière en rédigeant leurs "Mémoires" à l'intention de leurs contemporains ou des générations futures. Cette constatation est encore plus vraie pour l'Occident de l'Islam que pour l'Orient; si on y trouve quelques autobiographies de personnages importants, tels qu'Ibn Khaldûn et Ibn al-Khaṭīb au VIII^e siècle [XIV^e siècle J.-C.], on ne connaît, dans ce genre historique, qu'une œuvre à citer: celle d'al-Baydhaq, le compagnon du Mahdî Ibn Tûmart, le fondateur de l'almoḥadisme, dont j'eus la chance, il y a plus de vingt-cinq ans, de retrouver en Espagne, à l'Escorial, un manuscrit jusque-là demeuré ignoré. C'est une autre chance, non moins heureuse, qui m'a valu de mettre la main, à plusieurs années d'intervalle et morceau par morceau, sur un ouvrage autobiographique non moins précieux: celui de l'émir 'Abd Allâh, dont les feuillets s'entassaient pêle-mêle dans un fouillis de

LES « MÉMOIRES » DE ʿABD ALLAH

DERNIER ROI ZIRIDE DE GRENADE

[Ve-XIe siècle]

TEXTE ARABE

publié d'après l'unicum de Fès

par

E. LEVI - PROVENÇAL

Professeur à la Sorbonne,

Directeur de l'Institut d'Etudes Islamiques

de l'Université de Paris

LE CAIRE

ÉDITIONS AL-MAAREF

1955



